سلسلة «كتاب النهضة» (٢٠١٥/١)

مذكرات حسن سعيد الكرمي

(١٩٠٥ - ٢٠٠٧م)

في الحياة والثقافة العربية

تقديم: د. محمد أبو حمور

إعداد وتحرير

سهام حسن الكرمي

كايد مصطفى هاشم

منتدى الفكر العربي

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥ م

«... أُســـتاذي حســـن الكرمي (أبا زياد) الذي لا يُبارى في شــغفِه بلغةِ الضاد، ولا يُجَارى في ولَعِه بالمُعجم العربيّ.

لقــد كان العلْمُ لديْه تماماً كما قال الإمام عليّ (كرّم الله وجْهَه) دينٌ يُدانُ به؛ به يكســبُ الإنســانُ الطاعةَ في حياتِه وجميلَ الأُحدوثَةِ بعد وفاتِه؛ والعِلمُ حاكِمٌ والمالُ محكومٌ عليه.

عرفتُــه معلّماً ومربّياً وإنســاناً كبيراً يؤمنُ بقوّةِ الفكــر وقدرتِه على إحداثِ التغيير المبدع. فجاءت مساهمتُه في مجال الإعلام تجسيداً لإيمانِه بأنّ الإعلام العالِمَ الحكيم إنما ينهضُ بدوْر المعلّم والمربّي وناقلِ الخَبَر الصادق الصدوق».

الحسن بن طلال

(النصّ الكامل لكلمة سموّه ص ١٥٠ في هذا الكتاب)

مذكرات حسن سعيد الكرمي

(١٩٠٥ - ٢٠٠٧م)

في الحياة والثقافة العربية

الطّبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥ م

المملكة الأردنيّة الهاشميّة
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنيّة
(٢٠١٥/٦/٢٩١٣)

٩٢٠,٧١

الكرمي، حسن سعيد

مذكرات حسن سعيد الكرمي ١٩٠٥-٢٠٠٧ في الحياة والثقافة العربية/ حسن سعيد الكرمي؛ تحرير سهام حسن الكرمي؛ كايد مصطفى هاشم. - عمّان: المنتدى، ٢٠١٥

(٢٣٥) ص.

ر.إ.: ٢٠١٥/٦/٢٩١٣

الواصفات: /السيرة الذاتية//التراجم/

* يتحمّل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية.

الإخراج الفني: **ميساء خلف** الخطوط: **صالح نسب**

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل كان أو بواسطة وسائل إلكترونية أو كهروستاتية، أو أشرطة ممغنطة، أو وسائل ميكانيكية، أو الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل وغيره دون إذن خطي من الناشر.

منتدى الفكر العربي
ص.ب: ١٥٤١ عمان ١١٩٤١ الأردن
تلفون: ٥٣٣٣٢٦١ - ٥٣٣٣٦١٧ - ٥٣٣٣٧١٥(٦-٩٦٢+)
ناسوخ (فاكس): ٥٣٣١١٩٧ (٦-٩٦٢+)
E-mail: *atf@atf.org.jo*
URL: *www.atf.org.jo*

التوزيع
دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع
ص.ب: ٩٢٧٦٥١ عمان ١١١٩٠ الأردن
تلفون: ٥٦٠٦٢٦٣ (٦-٩٦٢+)
ناسوخ (فاكس): ٥٦٠٦٣٦٢ (٦-٩٦٢+)
E-mail: *wardbookjo@yahoo.com*
URL: *www.darwardjo.com*

المحتويـــــــــات

- **هذه المذكّرات** (تقديم بقلم: د. محمد أبو حمّور) ٧
- **تمهيد** (سهام حسن الكرمي) ١١

القسم الأول: المذكرات

- الفصل الأول: **السنوات الأولى** ١٧
- الفصل الثاني: **في الرملة والقدس: سني الزواج**............................ ٣٧
- الفصل الثالث: **الرحلة الأولى إلى لندن**.................................. ٤٣
- الفصل الرابع: **العودة إلى القدس** ٤٧
- الفصل الخامس: **ما بعد الحرب العالمية الثانية** ٦٣
- الفصل السادس: **الإذاعة البريطانية والحياة في لندن**....................... ٧١
- الفصل السابع: **الترحال مندوباً عن الإذاعة** ٨١
- الفصل الثامن: **ما بعد التقاعد** ١٠٥
- الفصل التاسع: **في السنين الأخيرة**.....................................١١١
- الفصل العاشر: **حب القراءة**...١١٥
- أرشيف الصور..١٢٥

القسم الثاني: سيرة حسن الكرمي وآثاره في مرآة المفكّرين والأدباء
(كلمات وشهادات ودراسات) ١٤١

- **ملف مجلة «أفكار» الأردنيّة، وزارة الثقافة** (تقديم مجدولين أبو الرب) ١٤٣

- **كلمة صاحب السمو الملكي الأمير الحسن بن طلال:**
حسن الكرمي: العلامة؛ المعلم؛ الإعلامي
(ألقاها بالإنابة أ.د. هُمام غَصيب) ١٤٩
- **حسن الكرمي ... العلّامة اللغوي**
أ.د. عبد الكريم غرايبة.................................. ١٥٣
- **حسن الكرمي وريادة الإصلاح اللغوي**
أ.د. عبد الكريم خليفة ١٥٩
- **حسن الكرمي وإنجازه المعجمي والثقافي**
فخري صالح.. ١٦٧
- **حسن الكرمي: زيتونة فلسطين المعمرة**
د. سمير مطاوع... ١٨١
- **«اللغة... نشأتها وتطوّرها في الفكر والاستعمال»**
هيا صالح ١٨٥
- **حسن الكرمي ... سيرة وعطاء**.......................... ١٩٣
د. مصطفى محمد الفار
- **حسن الكرمي ... شيخ الأدباء والإعلام**.................. ١٩٩
ياسين الجيلاني
- **حسن الكرمي مفكّراً موسوعياً** ٢٠٧
كايد هاشم
- **ملف مجلة «المنتدى» حول كتاب «قضايا في الفكر والتفكير عند العرب» للراحل الأستاذ حسن سعيد الكرمي (العدد ٢٥٧ - ٢٠١٣)**
تقديم: كايد هاشم.. ٢١٥
- **قصة كتاب «قضايا في الفكر والتفكير عند العرب»**
سهام حسن الكرمي ٢١٩
- **كتاب «قضايا في الفكر والتفكير عند العرب» وذكريات مع مؤلِّفه**
د. سمير مطاوع... ٢٢٣

ملحق
- مطبوعات المنتدى ٢٢٩

هذه المذكِّـرات

(تقديم)

الدكتور محمـد أبـو حمّور
الأمين العام لمنتدى الفكر العربي

تحمل مذكِّرات العلامة حسن سعيد الكرمي (١٩٠٥- ٢٠٠٧م) -رحمه اللّه-، التي يَشرُف منتدى الفكر العربيّ برعاية إصدارها عن نسختها المخطوطة، ملامح تاريخية لعصر يمتد مئة عام ونيف من الحياة الاجتماعية والثقافية في المشرق العربي، بما في ذلك تأثيرات وتداعيات الأحداث السياسية الكبرى، ولا سيما الأوضاع العربيّة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، ثم نكبة فلسطين الأولى في العام ١٩٤٨. ورغم أن صاحب هذه المذكِّرات لم يقصد إلى تصوير تلك الأحداث السياسية تحديداً، فإنَّ ارتباط وقائع سيرته الحياتية الشخصية بها وما حكمت به الأقدار على أسرته ووالده المرحوم الشيخ سعيد الكرمي، أحد العلماء الأعلام في عهد النهضة العربية، من ارتحالات وتنقلات في العيش بين فلسطين وسوريا والأردن، وانتقال صاحب المذكرات نفسه للعمل في القسم العربيّ بهيئة الإذاعة البريطانية والإقامة في لندن سنوات طويلة، حيث انطلق برنامجه الأدبيّ المشهور «قول على قول»، وحيث انطلق في جولاته ورحلاته الثقافية ومقابلاته مع كثير من الشخصيات السياسية والثقافية، خاصة في العالم العربيّ وإفريقيا، كلّ ذلك يُضفي على مذكِّراته قيمة خاصة

في المنحى التاريخي من واقع شهادته على العصر وآرائه ونظراته ومواقفه، وهو المثقف والمفكِّر العربي، الذي اغتنت خبراته الطويلة بتجاربه في ميادين التعليم والإدارة التربوية والإعلام والتأليف والترجمة والتعريب ووضع المعاجم والاتصال بالثقافة والمجتمع في الغرب.

لا شك أن هذه السيرة الغنيّة في مشهد الفكر العربيّ الحديث والمُعاصر جديرة بأن تُقدَّم إلى أجيال الأمّة العربيّة والإسلاميّة بوصفها نموذجاً ينطوي على رؤية وتجربة فريدة في قضية الحفاظ على الهُويّة الثقافيّة والحضاريّة، خاضها رجلٌ فقد وطنه الأوّل وهاجر إلى الغرب في عهد مضطرب أصابت سِهامه الناس والثقافة والآمال على حدٍّ سواء، لكن الكرمي الذي نشأ على قيم نهضوية في محيط أسرته وفي ما وعاه من أحداث في هذه المنطقة، استمسك بالعروة الوثقى؛ عروة الإيمان والعلم والعمل والبحث والدراسة والاطلاع ما امتدت حياته، فكان أنموذجاً للإنسان العربي المنتمي، والمتفتح في الوقت نفسه على ثقافة الآخر الغربي، المُحاوِر لها بندّيّة، القادر على إنفاذ بصيرته في أسباب العِلل التي حلَّت بأمّته وفكرها وتفكيرها، كما في مكامن التقدُّم واجتياز عقبات صعودها واستعادة مكانتها في الحضارة الإنسانية.

لقد آثرنا أن نقدِّم هذه المذكِّرات كما كتبها الكرمي بنفسه في سنوات حياته الأخيرة، إلا من ضبط حركات بعض الألفاظ وتصويب القليل جداً من أغلاط الطباعة في المخطوطة، وتقسيم النصّ إلى فصول مترابطة تحمل نفس العنوانات التي كان الكاتب قد وضعها عند تسجيل مذكِّراته. ثم ألحقنا بالمذكّرات مجموعة من الكلمات والشهادات والدراسات التي كتبها عن المرحوم الكرمي وآثاره – بعد وفاته – عدد من المفكِّرين والأدباء والنقّاد، تتصدرها كلمة

وفاء لصاحب السموّ الملكيّ الأمير الحسن بن طلال - حفظه الله ورعاه - الذي بادر إلى تكريم أستاذه الراحل برعاية حفل تأبين نظّمه مجمع اللغة العربيّة الأردنيّ في السادس عشر من شهر حزيران/ يونيو ٢٠٠٧. كما تفضَّل سموّه في السابع عشر من أيار/ مايو ٢٠١٣ برعاية حفل إشهار كتاب «قضايا في الفكر والتفكير عند العرب» للكرمي، والذي أصدره منتدى الفكر العربي في العام ٢٠١٣.

إنّنا إذ نقدِّم، ضمن إصدارات المنتدى «سلسلة النهضة»، أثراً جديداً من آثار المفكِّر واللغوي والأديب الراحل حسن الكرمي في هذا الزمان، الذي تحتاج فيه أجيالنا إلى التركيز على تعريفهم بأعلام الأمّة ورموز الفكر التنويري العلمي، وإعادة الوشائج بينهم وبين النماذج القدوة في الثقافة والفكر، فإنه ليطيب لي أن أتوجه بالشكر الجزيل إلى أُسرة الراحل ممثَّلةً بابنته السيدة سهام الكرمي على التعاون مع المنتدى والمحرر المشارك الأخ كايد هاشم في إعداد الكتاب وتحريره وتزويده بالصور من أرشيف العائلة. والشكر كذلك إلى وزارة الثقافة الأردنية وهيئة تحرير مجلة «أفكار» على تزويدنا بنصوص الكلمات والمقالات والدراسات التي اشتمل عليها الملف الذي سبق أن أصدرته المجلة عن الراحل صاحب المذكِّرات، وجزيل الشكر أيضاً إلى كل مَنْ عَمِل على إخراج الكتاب بهذه الحلّة القشيبة. جزاهم الله جميعاً خير الجزاء.

د. محمد أبو حمّور

عمّان، آب/أغسطس ٢٠١٥

تمهيد

سهام حسن الكرمي

السيرة الشخصية أو تاريخ حياة فرد ما، هو ما يقوم بتدوينه من وقائع مرّت به في أثناء حياته. ولتكون هذه السيرة ذات أهمية للقارئ لا بد أن يكون هذا الشخص قد تقلَّد مناصب سياسية أو عسكرية أو كان ذا شأن في المجتمع يجعل من قصة حياته مرجعاً يستفيد منه المؤرخون، أو يكون هذا الشخص قد مرَّ بتجارب فذة من المهم الاطلاع عليها للمعرفة والفائدة.

عندما قرأت سيرة والدي الشخصية التي كان قد بدأ كتابتها قبل وفاته بعشر سنين، كنت أتوقع أن أحظى بوثيقة حيَّة لأهم حقبة من تاريخ فلسطين، ما بين الحرب العالمية الأولى إلى الحرب العالمية الثانية وتأسيس دولة إسرائيل وما واكبها من حروب ونزاعات. لكنني وجدتها خالية من سرد أحداث سياسية أو وقائع عسكرية توضح مواقف الأحزاب وأنشطة ذوي السلطة. فلم أعهد أن والدي انتمى يوماً إلى حزب أو كان له أي نشاط سياسي، ولا أذكر أنه كان من عادته الإدلاء بآرائه جهراً بمواقف سياسية معينة. لكنه كان ناقداً حاذقاً في السياسة العالمية وكانت له نظرة عميقة في الأحداث ورأي واقعي لما سيؤول إليه مستقبل البلاد، وإنْ احتفظ بهذه الآراء لنفسه ثم أودعها مذكراته بعد نصف قرن من الزمان.

تحدَّث في مذكراته عن سبب انزوائه عن السياسة بحادثة صغيرة وقعت له في أثناء شبابه المبكر. يقول إنه في إحدى الليالي خرج وزملاؤه من مكتب عنبر، المدرسة التي كان يتلقى فيها تعليمه في دمشق، في مظاهرة تندِّد بالحكم الفرنسي على سوريا. ولكن الشرطة داهمت المتظاهرين واعتقلتهم، ثم أُفرج عنه بكفالة أخيه أحمد شاكر الذي كانت تربطه صلة صداقة بمدير الشرطة. وكانت نصيحة أخيه له بأن لا يدع النشاط السياسي يحول دونه ودراسته الجدية التي ستؤمن له مستقبلاً زاهراً. ذكر هذه الحادثة في مذكراته لكونها رسمت له طريقه في الحياة وظل بعيداً عن السياسة بعكس بعض إخوته الذين انغمسوا في النشاط السياسي وذاقوا حلوها ومرّها.

لكن كان لسيرة حسن الكرمي طعم لا يقل عذوبة عن مذكرات ذوي الشأن من سياسيين وحكام ورجال دولة. فقد تحدَّث عن وقائع في حياته وعلاقات صداقة شابتها مودة ثم تحولت إلى عداء سافر لم يكن له أدنى دور في ذلك التحول تجاهه. وبهذا أعطى صورة صريحة عن المجتمع الفلسطيني في تلك الفترة من الزمان وتحليلاً للوضع السياسي الذي أدى في النهاية إلى تفتت تلك الأمّة وانهيار معالمها وما آلت إليه حتى زمننا الحاضر. فقلما نقرأ في السِّير والمذكرات مثل ذلك العمق في دراسة نفسية مجتمع ما تكشف منهج عادات وسلوكيات نبعت من ظروف ذلك المجتمع.

تحدَّث قليلاً عن انطباعاته عن المجتمع السوري في أثناء سني دراسته في دمشق وحكم الفرنسيين لتلك البلاد وطبيعة تفاعل القوميات المختلفة لوجود المستعمر في وطنهم. وأسهب في الحديث عن فترة الانتداب البريطاني في

فلسطين وأثر ذلك على سير الأمور السياسية والمدنية في تلك الفترة الحرجة من تاريخ البلاد. كان برأي حسن الكرمي أن من أسباب إضاعة العرب لفلسطين النزاعات التي حطمت هِمم الشعب وخلقت الفوضى حتى عَمَد الأخ يكيد لأخيه، وشاعت الدسائس والاتهامات التي ذهبت بريحهم وأفقدتهم القدرة على النضال للحفاظ على أرضهم والدفاع عن حقوقهم. لكن بعد مضي ما يقرب من القرن يمكننا في رأيي النظر إلى الوراء وإحراز فهم أوسع لما حدث لفلسطين بل ولمجمل الوطن العربي، فندرك أن المكيدة كانت مدبَّرة بالرغم منا. ولعل فشل الثورة والاحتجاجات لم تكن لتقدم أو تؤخر في النكبة التي ألَمَّت بالفلسطينيين ولا تزال تحيط بهم إلى اليوم.

يصف حسن الكرمي انتقاله إلى لندن ليعمل في القسم العربي للإذاعة البريطانية بعد أن أيقن أن لا مجال للعودة إلى فلسطين مثله في ذلك مثل باقي الناس. وهناك واجه صراعاً من نوع آخر، لم يكن سياسياً أو أمنياً في مواجهة بني وطنه كالسابق؛ بل صراعاً بين فئات من أوطان مختلفة يسوده التنافس والشقاق ويهبط إلى مستوى النميمة والغيرة السافرة. مع ذلك حاول في حياته أن يرقى عن تلك التفاهات والنزاعات وتمكَّن من رفع القسم العربي إلى مصاف أجود الإذاعات الناطقة بالعربية موضوعاً وسلامةً في اللغة والإلقاء. في هذه الأثناء تركَّز جهده على تأليف معجم سهل الاستعمال للقارئ العربي لتفسير المفردات الإنكليزية إلى اللغة العربية، بينما ولعه بالشعر والأدب واطلاعه الواسع عليهما أدى إلى ابتداع برنامج ظل إلى يومنا هذا مرجعاً لطالب الأدب ومسلياً لمتذوقي الشعر في جميع أنحاء العالم العربي وخارجه، ذلك هو برنامج «**قول على قول**»،

الذي دام تقديمه مدة ثلاثين عاماً وما يزال يبث إلى اليوم بعد وفاة صاحبه بما يقارب العقد من الأعوام.

استمر تأليفه للمعاجم ليضم عدداً كبيراً من المعاجم الإنكليزية – العربية، ومعاجم حديثة في اللغة العربية. ولو مد الله في عمره لقدم المزيد من هذه المعاجم المتخصصة في مواضيع متعددة، علمية وأدبية وغيرها.

هذه هي سيرة حياة حسن الكرمي، التي دامت قرناً أو يزيد، بين يدي القارئ ليحكم على جدارتها كما فعل الكثيرون في السابق وقدموا اعترافاتهم وخلاصات تجاربهم حول إنجازاتهم، كلّ بأسلوبه الخاص.

سهام حسن الكرمي

عمّان، آب/أغسطس ٢٠١٥

القسم الأول

المذكِّـــرات

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾

(سورة البقرة: الآية ٣١)

الفصل الأول

السنوات الأولى

قيل لي إن مولدي كان سنة البطيخ في طولكرم. وكانت سنة كثر فيها محصول البطيخ وكثر تصديره إلى مصر بالمراكب الشراعية من ميناء على البحر هو اليوم يعرف بنتانيا. وكان قد سبقني بالمولد من إخوتي وأخواتي: محمود وسعاد وصفا وصفية وعبد الحفيظ وتمام وآمنة. ولدت توأماً وسمّيت حسن بدري وتلاني شقيقي التوأم وسُمّي حسين صبحي. وأذكر أنني في السابعة أو الثامنة من عمري كان الناس يسمونني «أبو راس» لعظم رأسي بالنسبة إلى سائر جسمي، وأحياناً يسمونني البردويل لطولي وكبر رأسي.

وأول ذكرياتي عن التعلم أن والدي، وكان مفتي بني صعب، أي طولكرم، أخذني إلى كُتَّاب الشيخ خليل في الحارة القبلية. وكان هذا الكُتَّاب عبارة عن بيت له مصطبة وله قاع، وكنت أجلس على الأرض في القاع وهو مكان المبتدئين، وكان المتقدمون في القراءة والكتابة يجلسون على المصطبة. ثم انتقلت إلى المدرسة الابتدائية وهي بالقرب من الجامع. وكان معلموها الشيخ عبد الكريم من قرية الطيبة وعارف العواد من نابلس. وفي أوائل الاحتلال البريطاني سنة ١٩١٨ انتقلت المدرسة إلى بناء جديد إلى الشمال الغربي من البلدة.

وأذكر أن والدي أُلقي القبض عليه وهو في ديوانه في أواخر سنة ١٩١٥ وسيق إلى دمشق ثم إلى عاليه في لبنان وحوكم في المجلس العرفي وحكم عليه بالإعدام من جملة ثلاثة عشر زعيماً بتهمة الاشتراك في حركات سرية

للانفصال عن الدولة العثمانية. ثم خُفِّف حكم الإعدام إلى السجن المؤبد ونقل إلى سِجن القلعة في دمشق هو وحافظ السعيد. وبقي مسجوناً إلى سنة ١٩١٧ حين أُفرج عنه من قبل جمال باشا الصغير بمساعي الشيخ أسعد الشقيري ورضا باشا الركابي. وأذكر أنه في أثناء سجن الوالد كان العيش صعباً على الوالدة وعلينا، فاضطررنا إلى الهجرة إلى قرية كفر زيباد هرباً من الحرب لأن طولكرم أصبحت في خط النار بعد سقوط غزة ويافا. وأذكر أننا جميعاً من إخوة وأخوات كنا نعمل بأيدينا في مزرعة لنا ولم نستفد من جهودنا لأن الجراد غزا المنطقة سنة ١٩١٦ وقضى على كل شي.

الحياة في دمشق

عاد الوالد إلى طولكرم من السجن في صيف ١٩١٧. ولما سقطت دمشق وتأسست أول حكومة عربية هناك برئاسة رضا باشا الركابي، تعين الوالد عضواً في المجمع العلمي العربي فانتقل إلى دمشق وانتقلنا معه في خريف ١٩١٨ ودخلت مدرسة عنبر في الصف الرابع الابتدائي مع إخوتي حسين وعبد الغني وعبد الكريم. وكانت مدرسة عنبر تضم مدرسة التطبيقات الابتدائية، من الصف الأول إلى السادس، ومدرسة السلطاني الثانوية، من الصف السابع إلى الثاني عشر.

في الصف الخامس ظهر ميلي إلى الحساب والهندسة وكان معلمنا من أسرة الصباح[1] من جنوب لبنان. ويُقال إنه لمع في العلوم والرياضيات فيما بعد في كندا والولايات المتحدة واكتشف اكتشافات باهرة ثم قُتل في حادث غامض. وظل هذا الميل إلى الرياضيات لدي طوال عمري. وكان الطلاب في العهد الفيصلي يخيرون بين أن يتعلموا اللغة الإنكليزية أو الفرنسية، فاخترت أنا الإنكليزية، وكان معلمي في هذه اللغة عجاج نويهض. ولما احتل الفرنسيون دمشق وزالت دولة الملك فيصل في خريف ١٩٢١، ألغي تعليم اللغة الإنكليزية

(١) المرحوم حسن كامل الصباح (١٨٩٤-١٩٣٥م).

وتحولت إلى اللغة الفرنسية، وكنت في الصف السادس. مدرسنا في هذه اللغة كان عربي جزائري اسمه صالح جميلو، وسرعان ما تلقنت اللغة الفرنسية ولحقت بطلاب صفي.

وفي سنة ١٩٢٢ تعين والدي قاضياً للقضاة في عمّان وانتقل إليها وبقيت أنا وإخوتي في المدرسة في دمشق. وكان معنا أخي أحمد شاكر وشقيقي الكبير محمود الذي كان مديراً لمدرسة الملك الظاهر، بينما كان أحمد شاكر موظفاً في دائرة خط الحجاز الحديدي. وانتميت في دراستي الثانوية إلى الشعبة العلمية، بينما أخواي عبدالغني وعبدالكريم دخلا الشعبة الأدبية. ومن الأشياء التي أذكرها في هذه الفترة أن الطلاب في مدرسة عنبر كان لهم نشاط سياسي شديد بعد انتهاء حكم الملك فيصل في سوريا، وكانوا حملة لواء المناوأة للسلطة الفرنسية. وبعد دخول الجيش الفرنسي دمشق- وكان من السنغاليين- جاء الجنرال غورو مندوباً سامياً لسوريا ولبنان. وأهم ما قام به في أول عهده هو اهتمامه بما يجري في المدارس من مقاومة وطنية. وزار الجنرال غورو مدرسة عنبر، وكانت قائدة المقاومة، واصطف الطلاب لاستقباله فدخل وكان على ما يظهر ينتظر من الطلاب تصفيقاً وترحيباً. ولكن الطلاب وجموا وقابلوه بصمت تام ، ولا شك أن ذلك الصمت كان الإعراب الصادق عن الشعور الوطني في سوريا.

تألفت في مدرسة عنبر جمعية سرية كنت أنا من جملة المؤسسين لها، وأثارت حركات هذه الجمعية قلق السلطات الفرنسية في دمشق فقامت بحملة تفتيشية شديدة. وقد خشيت أن تُكتشف هذه الجمعية لأن ذلك كان سيؤدي بالنسبة لي إلى انتهاء الدراسة أو النفي من دمشق. وكان أخي محمود في ذلك الوقت مديراً لمدرسة الملك الظاهر، وخرج الطلاب من مدرسته بمظاهرة في الشوارع. واتهمت السلطات مدير المدرسة بالتشجيع على ذلك فعُزل من منصبه واضطر إلى مغادرة البلاد إلى عمّان. وأذكر أن مدرسة عنبر خرجت في مظاهرة من مأذنة الشحم إلى ساحة المرجة كانت لها طنة ورنة. لكن الشرطة

أحاطت بالطلاب وساقت زعماءهم إلى دائرة الشرطة. وتولى الأمر هناك ضباط فرنسيون جاء أحدهم إلينا وكنا مصطفين في الساحة الداخلية، وبيده بندقية وصاح بنا: «قولوا عفواً»، فقلنا باستثناء البعض ومنهم طالب حموي من عائلة قنوت رفض أن يقول عفواً فضربه الضابط الفرنسي بالبندقية على قفاه فصرعه. ثم حُبِسنا في حبس التوقيف. فلما علم أخي أحمد شاكر بالأمر اتصل بمدير الشرطة حمدي الجلاد، وكان صديقاً له فأفرج عني.

وكان أخي عبد الغني سباقاً في العلوم الأدبية ولكنه كان متأخراً في الرياضيات، وكان لا بد من مساعدته حتى يتخطى مرحلة مهمه من مراحل التعليم الثانوي في نهاية الصف التاسع. وكان للرياضيات معلمان: مُسلّم عناية وجودت الهاشمي، وقد اهتم عبد الغني بمصادقة مُسلّم عناية فكان يكتب له المقالات الأدبية ويزوره في بيته. ووعده بأن ينجحه في الامتحانات الخطية النهائية وأن يسأله سؤالاً واحداً في الامتحان الشفهي، وهكذا كان. ولما دخل عبد الغني قاعة الامتحان الشفهي سأله مُسلّم عناية السؤال المتفق عليه فأجاب الإجابة الصحيحة. ولما هم بالخروج أوقفه جودت الهاشمي وسأله سؤالاً آخر فحار في الجواب لكنه مع ذلك حصل على علامة النجاح. ولكن ما العمل بامتحانات جودت الهاشمي الخطية؟ حصلت أولاً على الأسئلة من طالب خرج من قاعة الامتحان بعد بدء الامتحان بفترة قصيرة. وكنت أوصيت عبد الغني بأن يجلس في آخر القاعة وظهره إلى جدار الغرفة المجاورة حيث جلست وقد نقبت خرقاً في الجدار وأخذت ألقن عبد الغني الأجوبة من خلال ذلك الخرق إلى أن قاربت الانتهاء. وكان المراقب جودت الهاشمي نفسه، فما أحسست إلا وجودت فوق رأسي يقول بلهجة دمشقية: «إيه ما بكفي» فخرجت مسرعاً ونجح عبد الغني وترفع إلى الصف العاشر.

المرحلة الثانوية

بعد أن أتممت المرحلة الثانوية الأولى بنجاح واطلع أخي أحمد شاكر على علاماتي اقترح أن ألتحق بمدرسة الطب. في هذه المرحلة كان من أصدقائي رياض الميداني وماجد الغزي فضلاً عن عدد كبير من الزملاء. وكنت في ذلك الوقت أتصل بشركات النشر في بريطانيا وأميركا وأشتري منها بعض الكتب العلمية والرياضية، من جملتها سلسة من الكتب عن الكهرباء. واتفقت مع حسن السقا وهو أحد زملائي في الدراسة وكان مولعاً بالعلوم، على أن نترجم السلسلة من الإنكليزية إلى العربية.

كان المعلمون في مدرسة عنبر من خيرة الرجال علماً وخلقاً. أذكر منهم الشيخ محمد الداودي الذي كان يعلمنا اللغة العربية وشيئاً من علم الاجتماع وحُسن السلوك، من ذلك كتاب في حُسن الأخلاق للشيخ مصطفى الغلاييني. وعندما توفي بعد سنة خلفه الشيخ عبد الرحمن سلام وكان أديباً وشاعراً وحفظنا من أشعاره الشيء الكثير منها:

دع عنك لا تسأل ودع ذكر الغد	فلقد كفاني أن يومي في يدي
ولو استقر على اتفاق رأيهم	أن يمنعوني من دخولي مسجدي

وذكر لي الشيخ عبد الرحمن أنه كان معلماً في قرية قلقيلية من أعمال طولكرم، وكان بعد الفراغ من التعليم في آخر الأسبوع يذهب إلى طولكرم وينزل في بيت جدي الشيخ علي المنصور لأنه، في رأي الشيخ عبد الرحمن، كان العالم الأديب في تلك الأنحاء. وخلفه الشيخ عبد القادر المبارك وكان قاموساً متحركاً ولكنه لم يكن أديباً ولا شاعراً. وكان معه معلم آخر هو سليم الجندي وكان نقيضاً للشيخ عبد القادر. فقد كان فوق ضلاعته في اللغة أديباً ناقداً واسع الاطلاع. وكان خفيض الصوت على عكس الشيخ عبد القادر الذي كان له صوت أشبه ما يكون بدويّ الطبل. وأذكر بينما كنت طالباً ليلياً أن الطلاب كانوا يتعوذون بالله من نوبة الشيخ عبد القادر لأنه كان يقلق راحتهم بصوته الشديد في أول الليل

وفي الصباح. وكان من بين الطلاب طالب في دار المعلمين اسمه محمد عربي. وفي إحدى الليالي جاء الشيخ عبد القادر إلى المنامة وأخذ يهدر بصوته فقال له محمد عربي: يا أستاذ ارفع صوتك لأن النور خابٍ ونحن لا نسمع.

أما رشيد بقدونس فكان معلماً للتاريخ، وكان في الأصل ضابطاً في الجيش التركي وأسره اليونان في حرب البلقان وتعلم اليونانية. وكان يعلمنا التاريخ القديم ومنه العرب القدماء، وأذكر أنه كان يحدثنا عن تاريخ الحميريين واتفق أنه قال: ولما مات ملك حِمير... فصاح أحد الطلاب: ولما مات ملك الحمير. وقد علمنا الدكتور حسيب بايزيد لمدة قصيرة، وكان قد درس في استنبول وتعلم اللغة العربية على يد معلم تركي. وعلمنا قصيدة كعب بن زهير التي مطلعها: «بانت سعاد فقلبي اليوم متبول»، فيلفظ متبول متبوّل بتشديد الواو. وعبثاً حاول بايزيد تصحيح الخطأ ولكن دون جدوى.

كان مُسلم عناية يعلمنا الهندسة والمثلثات والمساقط، بينما علمنا جودت الهاشمي الجبر وحساب التفاضل والرياضيات العملية. وأسست في تلك الفترة برئاستي جمعية علمية للعلوم الرياضية، وكان الطلاب المختارون للجمعية يعقدون اجتماعات دورية تُلقى فيها المحاضرات. وأذكر أن الأستاذ مسلّم عناية بدأ معنا بحثاً جديداً هو بحث المساقط، وجاء الدرس الأول مشوقاً جداً فاستمعنا بإصغاء تام خلاف العادة. فاستغرب الأستاذ هذا الصمت العميق والإصغاء التام، فتوقف عن الشرح فجأة وقال: يوجد في الصف مؤامرة وأنا لن أمضي في شرحي إلا إذا أفهمتوني لماذا هذا الصمت. وعبثاً حاولنا أن نفهمه أن الموضوع جديد وطريف لذلك استمعنا له بصمت وإصغاء. واستمر هو في ظنه وفسد الدرس وانقلب إلى فوضى. وكان يقول لنا إذا تشوش النظام في الصف: أنتم غافلون عن المستقبل، ولكن سيأتيكم زمان لو كنتم على فرس والرغيف يدرج أمامكم فأنتم لن تلحقوا به.

ومن معلمينا الذين أذكرهم الأستاذ حسن يحيى الذي درسنا التاريخ وكانت لغته العربية عامية. وأذكر أنه قال عن أحد الملوك لما خرج مطروداً: «خرج إيد من قدام وإيد من ورا». أما الأستاذ صالح جميلو معلم الفرنسية، فكانت لغته عامية جزائرية. وأذكر أنه كان سريع الغضب وإذا تكلم وهو غضبان تكلم بلغة غير مفهومة. وكان أكثر ما يغضبه الغلط في تهجئة الكلمات الفرنسية أو في تصريف الأفعال. وعلمنا عزت الرفاعي الرياضة البدنية. وكان شديد التمسك بالنظام مما كان يزعج الطلاب، فسعى بعض الطلاب إلى التحرش به لإثارة غضبه. من هؤلاء طالب اسمه طلعت خربوطلي، الذي قام ونحن مصطفون للدخول إلى غرف الدراسة، فخرج من الصف خلافاً للنظام، فما كان من عزت الرفاعي إلا أن انتفض غضباً وكان بيده ساعة يدوية فألقى بها بقوة على الأرض فتكسرت. ولم أرَ عزت الرفاعي بعد الصف العاشر في عنبر إلا سنة ١٩٧٦ في أحد مصارف دمشق، ولما عرفني سلم عليّ قائلاً: أهلاً بالسير جاك. والسير جاك هو اسم كنت أعرف به في مدرسة عنبر أطلقه عليّ فؤاد اليوغن ولزمني طوال السنتين الأخيرتين من دراستي في مدرسة عنبر. والاسم الكامل هو سير جاك طوبس، وهو اسم رجل في إحدى الروايات البوليسية.

عرفت الكثيرين في المدرسة منهم صلاح البيطار الذي تقلد منصب رئيس الوزراء في سوريا، وخالد بكداش الذي أصبح رئيس الحزب الشيوعي. ومن أصدقائي الخلّصين رياض الميداني الذي أصبح وزيراً للاتحاد المصري في سوريا، وماجد الغزي الذي أصبح فيما بعد والياً لدمشق. ودامت تلك الصداقة طوال حياتنا. وكان لي صديق آخر أكبر مني هو فؤاد الساطي الذي أصبح كبير الأطباء في الجيش السوري. وكانت الصداقة بيننا قائمة على دراسة اللغة الإنكليزية، ودامت هذه الصداقة فكنت ألتقي به في كل زيارة لي لدمشق. وقد تفضل عليّ فؤاد الساطي فأعطاني بعض المعاجم العلمية استفدت منها في عملي المعجمي. وعرفني من جديد بخليل الساطي من طلاب عنبر.

كنت في مدرسة عنبر طالباً ليلياً منذ الصف الثامن، وكان الطلاب الليليون خليطاً من أماكن متعددة من سوريا- من دمشق والقنيطرة وحوران وحمص وحماة. ولا أذكر وجود طلاب من غير سوريا إلا أنا وإخوتي، وكان ينظر إلينا على أننا سوريون بسبب عمل الوالد في المجمع العلمي في دمشق، ووجود أخي محمود مديراً لمدرسة الملك الظاهر، وأخي أحمد شاكر في دمشق. وكان معنا من الطلاب النهاريين طالبان فلسطينيان من عائلة العلمي من القدس. وفي حياتنا الليلية في مدرسة عنبر كان لا بد من وجود احتكاكات بين الطلاب. فمثلاً كان الطلاب الحمويون أكبر في السن من البقية، وتغلب عليهم الشراسة فنشأ بينهم وبين الطلاب من أبناء الشام توتر بصورة دائمة ولا سيما في المساء عند العشاء وفي الصباح عند الفطور وفي وقت المطالعة، إلى أن تفجر الوضع في إحدى الأمسيات حول أمر بسيط. ففي أحد الأعشية اتفق وجود حموي على إحدى الموائد مع عدد من أبناء الشام، فطلب الحموي ما سمّاه مَلعقة بفتح الميم. فقلت له أنا: قل مِلعقة بكسر الميم. وحدثت مشادة ومناهضة للقتال عند جميع الموائد التي كان عليها حموي أو أكثر. وكادت تقوم القائمة لولا تدخل المعلم المناوب. ولكن الأمر لم ينته عند ذلك الحد، لأن طلاب الشام أصروا على أن يخرج الحمويون من المدرسة في تلك الليلة. تجمهر طلاب الشام وتجمهر الطلاب الحمويون وكادت تقع معركة، فاتصل المعلم المناوب بالمدير فحضر هذا وعقد مؤتمراً جاء بقرار إبعاد الطلاب الحمويين في تلك الليلة فخرجوا ولم يسمح بعودة أحدهم إلى النوم في المدرسة تلك السنة. وكان الطلاب الحمصيون على الحياد ولم يقع بينهم وبين طلاب الشام أي خلاف. ومما أسف له طلاب الشام أمر واحد هو وجود بدر الدين الحامد بين الحمويين الذين خرجوا. فقد كان هذا الشاعر محبباً للجميع وطُلب إليه أن يقضي سنة في دار المعلمين الملحقة بمدرسة عنبر، لدراسة أصول التعليم وتعلم الفرنسية. وأذكر أنه كان يدخن وكان التدخين ممنوعاً ولكن كان الكل يتغاضون عنه في أمر التدخين. وأذكر أنني أتيته وهو يدخن في ناحية من ساحة المدرسة، فقلت له وهو يسير عائداً

إلى الدرس: قل في السيكارة شعراً فقال على الفور:

كأني حين أشربها وأمشي   أثبت طائعاً مسمار نعشي

وكان بدر الدين الحامد في مدرسة عنبر مصدر ترويح وطرافة لما كان ينشد من أشعار ويتحدث به من نوادر أدبية. ولم يكن في مدرسة عنبر جمعية أدبية تتولى تنظيم ندوات شعرية وأدبية، مع أن بعض الطلاب برعوا في أوائل نشأتهم الشعرية. وأذكر منهم زكي المحاسني وجميل سلطان وأخي عبد الكريم وأنور البيطار. ولم يكن بين الطلاب من يهتم بالنشر في الصحف أو المجلات، إلا أني قرأت كتاباً وأنا في الصف التاسع وجدت فيه أقوالاً للشاعر الألماني غوته استرعت اهتمامي فترجمتها وبعثت بشيء منها إلى جريدة «المقتبس» الدمشقية، وكان رئيس تحريرها أحمد كرد علي، فنشره على الصفحة الأولى بقلم ح.ب.الكرمي، ونشر لي بعد ذلك قطعتين أو ثلاثة. وجئته يوماً أعترض على وجود أغلاط في الجريدة فوعد بتصحيحها، ثم جئته مرة ثانية منبهاً إلى وجود أغلاط فاستشاط غضباً قائلاً: هل هو قرآن؟ ثم أعاد إليّ القطعة التي كنت جئته بها ورفض نشرها. وكنت في ذلك الزمن أنشر أيضاً في جريدة «العمران» عن تاريخ الحركة الفاشستية، لكنني توقفت عن النشر لانشغالي في الدراسة والإعداد لامتحانات آخر السنة. ويظهر أن السفارة الإيطالية كانت ترقب هذه السلسلة من المقالات باهتمام، فلما توقفت اتصلت السفارة بجريدة «العمران» تستفهم عن السبب في توقف المقالات عن الفاشستية، فأخبروها أن الكاتب وهو طالب، مشغول بالدراسة للامتحان. ولم أعد إلى الكتابة في الصحف بعد ذلك.

أصدقاء الدراسة

كان لي من الأصدقاء طالب جزائري اسمه أحمد الجزائري، عرفته في الصف الخامس أو السادس. وترك هذا الطالب الدراسة لسبب من الأسباب واختفى عني، وحسبت أنه عاد إلى الجزائر. لكنني عرفت من بعض الجزائريين

أنه ما زال في دمشق. ومضت الأيام والسنون إلى أن كانت سنة ١٩٧٠ وكنت في زيارة لدمشق فمررت بدكان للقرطاسية ورأيت فيها رجلاً أشبه ما يكون بأحمد الجزائري، فسألته عن اسمه فقال: أحمد. وهنا سألته إن كان يوماً طالباً في مدرسة عنبر فقال: نعم، فقلت: هل تعرف طالباً في تلك المدرسة اسمه حسن الكرمي؟ فقال: نعم وكان يسكن في المحل الفلاني. ولما أخبرته أنني هو، عانقني وتعارفنا من جديد.

ومن الأصدقاء طالب اسمه يحيى النحاس وقد ترك المدرسة هو الآخر، وكنت ألتقي به دوماً في أثناء زياراتي لدمشق. وأذكر أنه فتح دكاناً بالقرب من المكتبة الظاهرية لحياكة الجرازي الصوفية، وقد صنع لي في إحدى زياراتي جرزاية كنت أذكره كلما لبستها. وكان له أخ طبيب، وما كان أشد دهشتي حينما اتصل بي هذا الطبيب سنة ١٩٥٢ وأنا في لندن يسأل عني. وسألته عن أخيه يحيى فطمأنني عنه. ولكنني لم أجد ليحيى أثراً بعد سنة ١٩٦٠ ولم يعلم به أحد من الذين كنت أسألهم عنه في دمشق. وكان لي صديقان من دار المعلمين في مدرسة عنبر، أحدهما حامد الأخرس من حمص والآخر علي شركس من القنيطرة. وقد انقطعت أخبارهما بعد تخرجهما إلى أن كانت سنة ١٩٤٨ عندما خرجت مع عائلتي من فلسطين بعد انتهاء الانتداب البريطاني ولجأنا إلى دمشق. وكان علي شركس قد علم بهجرة الفلسطينيين فلما جاء من القنيطرة إلى دمشق سأل عني أحد الفلسطينيين فدلّه على مكاني فزارني وكان اللقاء. ولم أره بعد ذلك.

وكنت أجلس مع ماجد الغزي على مقعد واحد ويجلس رياض الميداني على المقعد الذي يلي مقعدنا إلى الخلف. وهذا يذكرني برفيقين آخرين هما صلاح البيطار وخالد بكداش اللذين كانا يجلسان في المقعد إلى الخلف من مقعدي في مدة المطالعة الليلية في مدرسة عنبر. ولم تنقطع صداقتي مع ماجد ورياض منذ ذلك الحين إلى أن توفاهما الله. ومن حسن الاتفاق أن بيتي في دمشق كان قريباً

من بيت رياض الميداني فكنا نتزاور باستمرار كلما قدمت إلى دمشق. كما كان يقطن قريباً مني صديقان آخران هما مدحت البيطار وحسن السقا.

سني الشباب

أنهيت الصف العاشر في مدرسة عنبر سنة ١٩٢٤ وذهبت إلى عمّان حيث كان والدي في ذلك الوقت قاضياً للقضاة، وعرضت عليه فكرة الذهاب إلى الجامعة الأميركية في بيروت. فعارض في أول الأمر ثم لان فأخذت في الإعداد لامتحان الدخول وكاتبت مسجل الجامعة واتفقنا على مواد الامتحان. ثم بلغني أن في القدس كلية إنكليزية تعد الطلاب لامتحان المتركيوليشن الفلسطيني، وهو امتحان الاجتياز إلى التعليم العالي الفلسطيني. ففضلت الالتحاق بها لأنها في فلسطين وثانياً لأنها تُدرِّس باللغة الإنكليزية التي ما فارقني الاهتمام بها. وذهبت إلى القدس، وكان الوالد قد وافق على ذلك، وقابلت مدير الكلية واسمه المستر هامند وعرضت عليه ما أتممته من تعليم في دمشق، وكيف أن الجامعة الأميركية وافقت على دخولي صف الفرشمان، وهو أول صف جامعي. فوافق على دخولي في الصف الأول الجامعي وهو صف المتركيوليشن. ولم تكن الكلية قد اكتملت فكان فيها ثلاثة صفوف أو أربعة، اثنان منها جامعيان وصف أو اثنان دون المرتبة الجامعية.

كان الطلاب في الكلية خليط من فلسطينيين وأردنيين وعراقيين ويهود. وأذكر من طلابها سليمان النابلسي الذي صار فيما بعد سفيراً للأردن في لندن ثم رئيساً للوزارة الأردنية، وبهاء طوقان الذي صار فيما بعد وزيراً للبلاط الأردني، وكانا في الصف دون صف المتركيوليشن. وكان في نفس الصف ثلاثة طلاب آخرين: راسم كمال وله زوجة وأولاد، وزوجته ابنة خالتي، وهو من عنبتا بالقرب من طولكرم، ومحمد حمدان من قرية باقة بالقرب من طولكرم، وعبد الله بشناق من حيفا. وكان هؤلاء الثلاثة لا يكادون يفترقون. وكان لراسم غرابات مضحكة، من ذلك أنني سألته يوماً أن يقرأ لي ما هو مكتوب على

باب معهد علمي وهو بالعربية: باستور آنستيتيوت. فقرأها كما يلي: أبابيتور أنستيتور.

وكان معي في الصف طلاب منهم صائب وعمر النشاشيبي من القدس وصالح المعشر من السلط وجبرة صبابا من بيت جالا وطالب روسي قيصري اسمه ماركوف. وقد توثقت معرفتي بعمر النشاشيبي بسبب الصلة التي كانت في السابق بين والدي ووالده جودت النشاشيبي في طولكرم في أوائل الحرب العالمية الأولى. ودعاني والده إلى بيته في البلد القديمة فزرته وحدثني مطولاً عن والدي في ذلك الزمن. وكان عمر محباً للمشاكسة فبينما كان الطلاب ينشدون الترنيمة في القاعة في الصباح كعادتهم كل يوم، أخذ عمر يهزأ بالمنشدين ويحوّر الكلام إلى ألفاظ نابية. فسمعه البعض ووشوا به إلى المدير الذي وضع طالبين بجانبه يسمعان ما يقول عند الإنشاد، وهكذا ثبت للمدير ما قيل عن عمر فقرر طرده من الكلية. وندم عمر وأراد الرجوع إلى الكلية بشتى الوسائط، إلا أن المدير أصر على طرده. وبعد خروج عمر تبعه صائب النشاشيبي.

أما جبرة صبابا وكان أكبر مني سناً، فكان متعصباً من ناحية دينية حتى في اللغة. فكان يعتبر القرآن كتاب المسلمين وليس كتاباً عربياً حجة في اللغة. وحدثني بعض الطلاب أنه وقف في الصف مرة وقال للمعلم نخلة زريق: يا أستاذ أنت دائماً تعطينا الأمثلة في اللغة من القرآن، لماذا لا تعطينا الأمثلة من الإنجيل؟ فغضب نخلة زريق وقال محتداً: ولا يا صبابا من أين أعطيك الأمثلة من إنجيل متى أم من إنجيل لوقا؟

وكان في الصف الثاني الجامعي ثلاثة طلاب مسيحيين: يوسف صلاح من رافيديا من قرى نابلس ونجيب قبعين من السلط في الأردن، وكانا يدرسان اللاهوت، ونبيه بولص من كفر ياسيف بجوار عكا. وأصبح نجيب قبعين في آخر الأمر مطراناً للبروتستانت الأنكليكان في القدس، وكان مقره بجوار مدرسة المطران على طريق نابلس وزرته غير مرة وهو هناك. وأصبح صديقاً لي في الكلية

الإنكليزية وبعدها، ثم إنه كان صديقاً لأخي محمود في أثناء إقامته قسيساً في نابلس. أما يوسف صلاح فقد ترك اللاهوت ودخل سلك الشرطة وصار ضابطاً ولم تكن بيني وبينه صداقة تذكر. وأصبح نبيه بولص مهندساً مدنياً ودخل العمل في دائرة الأشغال العامة في حكومة فلسطين. وحكاية اختصاصه في الهندسة المدنية هي أن إحدى الجامعات في بريطانيا خصصت منحة مالية لطالب من الكلية الإنكليزية يكون مؤهلاً لدخول الجامعة في بريطانيا. وكان هو في صف أعلى مني ومع ذلك كنت أدرس الرياضيات معه في نفس الصف وأحرز نفس التقدم، ولكن عندما جاء خبر المنحة اختارت إدارة الكلية نبيه بولص ولم تسمح لي بأن أدخل معه في مباراة لمعرفة من هو الأصلح. ولم أحمل على الكلية حقداً لأنني كنت أعرف أنها مؤسسة تبشيرية وأنها بحكم ذلك لا بد أن تفضل مسيحياً على مسلم، ومع ذلك عندما احتاجت إدارة الكلية إلى معلم للرياضيات، وكنت قد انتهيت بنجاح من امتحان الاجتياز إلى التعليم الفلسطيني، عرضت عليّ هذا المنصب براتب سبع جنيهات فلسطينية في الشهر على أن أعيش فيها كمعلم داخلي. وكنت في أواخر سنة ١٩٢٥ قد تفاوضت مع إدارة المعارف ومديرها بومان، على أن أعمل معلماً في القدس بينما يُسمَح لي بإتمام تعليمي الجامعي في الكلية الإنكليزية. وأخبرت مدير الكلية بهذه المفاوضات، فكتب هو إلى مدير المعارف يطلب منه أن يسمح لي بأن أدرس الرياضيات في الكلية، فأجاب مدير المعارف بالرفض. فقدمت طلباً رسمياً إلى إدارة المعارف وجاءني الرد بأنه يقتضي عليّ الذهاب لمقابلة المستر فارل، وكان مساعداً لمدير المعارف المستر بومان. وقابلت فارل وبحث معي مطلبي وهو وظيفة في التعليم مع إتمام الدراسة، فوافق قائلاً بأنه يحبذ انضمامي إلى المعارف لكننا اختلفنا على الراتب، فقد طلبت زيادة على السبع جنيهات فلسطينية التي عرضتها إدارة المعارف. وتركني المستر فارل في غرفته وغاب قليلاً ثم عاد وأخذني إلى غرفة أخرى وخرج، وكان في الغرفة السيد جورج أنطونيوس وكان المساعد الأول لمدير المعارف. فكلمني باللغة العربية وبدأ يقنعني بقبول العمل بذلك الراتب لأن الإدارة ستهيء لي الفرصة في أثناء العمل لإتمام دراستي الجامعية في الكلية

الإنكليزية. فقبلت وبدأت العمل في مدرسة البكرية في القدس. وكان والدي قد ترك العمل في شرقي الأردن بسبب خلاف مع الأمير عبد الله في أواخر ١٩٢٤، وكنت لا أزال في الكلية فكان تركه العمل كارثة بالنسبة إليّ لأن أملي في متابعة دراستي الجامعية قد انقطع. وبالرغم من ضيق الحال فقد أتممت بنجاح السنة الأولى الجامعية ونجحت في امتحان المتركيوليشن وكنت الناجح الوحيد في الكلية الإنكليزية.

في الكلية الإنكليزية بدأت الدراسة حسب الاتفاق مع إدارة المعارف. والكلية هي مدرسة تبشيرية تابعة لجمعية البعثة التبشيرية للكنيسة، كبقية المدارس التبشيرية أمثال المطران وصهيون وشميت وغيرها. جميع هذه المدارس مسيحية تبشيرية في الأصل. ولم يكن للمسلمين أي مدرسة في المستوى الثانوي أو الجامعي سوى دار المعلمين الحكومية والكلية العربية الحكومية فيما بعد. فالطلاب المسلمون في فلسطين وشرقي الأردن لم يكن لهم بد من دخول هذه المدارس التبشيرية، وكانوا يفدون إليها من جميع أنحاء البلاد. فكان الطلاب المسلمون يتعلمون الديانة المسيحية ويبرز بعضهم فيها، وكانوا يصلون الصلاة المسيحية في الكنيسة وغيرها وينشدون الأناشيد الدينية المسيحية. ولعل هذا التسامح أو الرضا من الطلاب المسلمين كان عاملاً في حُسن العلاقات بين الطلاب وعدم وجود منافرات أو خصومات دينية. والغريب أن الطلاب المسلمين لم يجدوا حرجاً من تعلم الدين المسيحي ولا من الصلاة في الكنيسة. ولعلهم كانوا يعتبرون هذه الأمور ثانوية بالقياس إلى الغرض الأسمى وهو التعلم على أيدي معلمين من الإنكليز. وكانوا يرون أن المدرسة هي للتعليم فقط وغاب عنهم أحياناً أن المدرسة تبشيرية، ومع ذلك لم ينسوا أبداً أنهم مسلمون. وأذكر أن الطلاب المسلمين الداخليين في الكلية الإنكليزية في سنة ١٩٢٦ أرادوا صوم رمضان، وكان هذا يستدعي ترتيباً خاصاً وأن تقوم الكلية، وهذا الأهم، بالتسهيلات لإقامة ركن من أركان الدين الإسلامي في عقر دارها وهي مؤسسة تبشيرية. وذهب وفد من الطلاب المسلمين إلى مدير الكلية لهذا

الغرض، فحاول إقناعهم بالعدول عن مطلبهم لأسباب عديدة ذكرها لهم ولكن الطلاب أصروا وهددوا بترك الكلية جميعاً. وبعد أيام رضيت الكلية بأن تقدم التسهيلات الضرورية لصوم رمضان.

المدرسة البكرية

كنت قد تركت الإقامة في الكلية وأصبحت طالباً نهارياً بعد تعييني معلماً في مدرسة البكرية. ولم تكن هذه المدرسة تبعد أكثر من مائتي متر عن الكلية الإنكليزية، فكان ترددي بينهما سهلاً. كان المدير يحيى حيّاتي الشهابي ومن المدرسين نزار أبو السعود وخضر عويضة والشيخ محمد نجم الدين الخطيب. ونزار أبو السعود كان يتذوق الأدب بل كان شاعراً جيداً كما كان فحلاً في اللغة العبرية وله جولات فيها، فكان يفند بأقواله أقوال فطاحل اليهود العبرانيين. وتوطدت الصلة بيني وبينه وكان مشتركاً في مجلة «الميزان» التي كان يصدرها أخي أحمد شاكر في دمشق. كان نزار من أعوان راغب النشاشيبي رئيس بلدية القدس، في السياسة الفلسطينية وله صلات بعدد من المتحمسين ضد الصهيونية ومنهم السوريكي. وحدث أن السوريكي ونزار أبو السعود وقعا في معركة مع جمهور من اليهود يوم السبت، وقيل إن نزار طعن يهودياً وقتله فعزل من المدرسة وحوكم فحكم عليه بالسجن سبع سنوات. وحاول راغب النشاشيبي أن يخفف الحكم عنه ولكن دون جدوى. وكان نزار ينظم الشعر الجيد ومجلسه مجلس أنس وله مقطوعات شعرية عن الحوادث في فلسطين. وفي مناسبة أخرى قيل إن شيخاً فلسطينياً باع حلقة من حلقات أبواب الحرم الشريف إلى جمعية أثرية، وكان للحلقة قيمة تاريخية. فنظم نزار في ذلك أرجوزة طويلة مطلعها:

يا شيخ عارف مَنْ سرقَ   من مسجدنا تلك الحلقة

وتوارى نزار أبو السعود عن الأنظار في السجن ثم أطلق سراحه. ورأيته في دكان في القاطمون فتحادثنا، وذكر لي أنه لا عمل له وأنه لم يعد له رغبة في أي عمل جدي. وأذكر أن رجلاً من آل عويضة كان يُعنى بالخيل وله صداقة مع

الأمير في شرقي الأردن أراد أن ينقذه من يأسه عسى أن يركن إلى حياة مستتبة فزوجه من ابنته. ولكن ذلك لم يأت بالنتيجة المرجوة وهاجر مع مَنْ هاجروا مِن أهل القدس إلى أريحا وهناك مات يائساً من الحياة.

ومن الشخصيات الغريبة التي عرفتها، مدير المدرسة يحيى حيّاتي الشهابي. كانت فيه غرابة في الأطوار عرف بها في إدارة المعارف، من ذلك مثلاً أنه كان إذا كتب كتاباً رسمياً إلى مفتش المعارف كان يكتبه على لونين: أحمر وأسود بحيث يخالف بين الكلمات فالسوداء تتبعها حمراء وهكذا على التوالي. وكان أمامه دائماً محبرتين: إحداهما للحبر الأسود والأخرى للحبر الأحمر، وريشتان واحدة لهذا الحبر وأخرى لذاك، فما كنت أسمع إلا والريشتان تتناوبان السقوط على المحبرة. وكانت بين المدير هذا والمعلم خضر عويضة صداقة أكيدة، ولم تربطني بأيهما صداقة أو تقارب.

سكنت في حي المصرارة في القدس في غرفة قريبة جداً من المدرسة البكرية، وزارني فيها والدي عدة أيام في سنة ١٩٢٦ لما كان في زيارة للحرم الشريف. وبقيت في تلك الغرفة إلى ما بعد امتحان الإنترميديت الفلسطيني الذي كان يعرف بالامتحان المتوسط بعد المتركيوليشن وقبل امتحان التخرج الجامعي. وكانت صاحبة الغرفة امرأة أرملة ولها ثلاث أخوات وكانت سيدة أخرى تقطن في المبنى ولها ابنتان فكان المبنى يغص بالنساء المتزوجات وغير المتزوجات، ولكن لم يكن لي في ذلك الوقت رغبة في النساء لحاجتي إلى الاقتصاد في النفقة لأتمكن من الإنفاق على نفسي ومساعدة عائلتي في طولكرم. وكنت متجهاً في كليتي إلى عملي ودراستي ولكن المرء قد يميل أحياناً وإن لم يفعل ذلك عن قصد. وأعترف أنني وأنا طالب في الكلية الإنكليزية استرعت انتباهي فتاة تسكن قريباً من الكلية، التقيت بها عفواً في الطريق وكنت أقف متجهاً بنظري إلى بيتها فتشرع هي بالخروج من البيت والدخول مراراً ناظرةً نحوي. وكان لها أخ شرس يراقبها دائماً فلم أرَ سبيلاً للاتصال بها فكففت عن النظر نحوها ولم أعد إلى الاهتمام بها.

التدريس في الرشيدية

ثم انتقلت من المدرسة البكرية إلى الرشيدية وكان مديرها شريف النشاشيبي. ومن معلميها الشيخ إبراهيم العوري وحسن عرفات وشكري المهتدي وغيرهم، وقد حللت مكان فؤاد حمزة الذي ترك التعليم وذهب إلى السعودية. وعلمت التاريخ والجغرافية كما كان يعلم فؤاد حمزة، وقد وجدت أنه ترك دفاتر لهذين الموضوعين فيها جميع المعلومات، فلم أحتج إلى كبير عناء في إعداد مواد التدريس. وكان بجوار المدرسة الرشيدية مدرستان حكوميتان أخريان: دار المعلمين ومديرها أحمد سامح الخالدي ومدرسة التمرين ومديرها طلعت السيفي. وتأسست معرفة خفيفة بين أحمد سامح وبيني لأنه كان في ذلك الزمان يسعى لجمع نخبة من الشباب العرب والمسلمين حوله، وكان قد أنشأ صندوقاً مالياً لمساعدة الطلاب المسلمين الذين يريدون الدخول في الجامعات كالجامعة الأميركية في بيروت. وكان الفضل في إنشاء هذه المعرفة لطلعت السيفي، وسرعان ما نشأت بيني وبين طلعت صداقة توطدت شيئاً فشيئاً حتى بلغت ذروتها في السنين التي تلت ١٩٢٦ . وكان هو قد انضم إلى الكلية الإنكليزية لتحسين معلوماته العامة وخاصة في اللغة الإنكليزية، وكان أول لقاء لنا هناك هو الذي أسس العلاقة فيما بيننا. وأذكر أننا كنا ندرس معاً في غرفتي في المصرارة، ومع أنه لم يكن قادراً على مساعدتي في دراستي لكنه كان مشهوراً بالمزاح والتنكيت مما جعله نزهة للخاطر ومصدر راحة للبال. وتعرفت عن طريقه بعدد من شباب القدس منهم: عارف الترجمان ومحمد أهرام ويوسف الجاعوني وراجي أبو السعود وغيرهم. وكنا نلتقي في دكان محمد أهرام في المصرارة وهو مجمع الخلان، وكثيراً ما كنت آخذ كتابي إلى الدكان وأدرس في أثناء ما كان محمد أهرام، وهو خياط يفصِّل ويقطع ويخيط.

ومن الذين عرفتهم عند أحمد سامح الخالدي رجل هندي مسلم اسمه محمد أخطر، تولى تحرير جريدة «فلسطين» بالإنكليزية سنة ١٩٢٧. وكان على جانب عظيم من المعرفة باللغة الإنكليزية وبالوضع في فلسطين والعالم العربي

والإسلامي، وكان له رأي خاص في القضية الفلسطينية يميل فيه إلى الاعتدال، وكان في الظاهر معارضاً للحاج أمين الحسيني. وتكررت اجتماعاتي به وامتدت صلتي به إلى ما بعد سنة ١٩٣٠ وزارني مرة أو مرتين في الرملة لما كنت معلماً هناك.

وعرفت من معلمي مدرسة التمرين شاباً من آل الجاعوني كان يدعو مديره ويدعوني إلى بيته لأكل الكبة الجاعونية المشهورة. ولما قمنا بتمثيل رواية «لولا المحامي» على مسرح مدرسة الفرير، قمت أنا بدور خالد بطل الرواية وقام الشاب الجاعوني بدور الفتاة التي أحبها خالد. وأذكر أنني وأنا على المسرح لاحظت فتاة جميلة الوجه بعينين دعجاوين تجلس في الصف الأول من النظارة. وبعد أن انتهينا من التمثيل سألت الشاب الجاعوني عن تلك الفتاة فلم يجب، ولما سألت طلعت عنها تبين أنها أخت الشاب الجاعوني وأنها مخطوبة لابن عمها.

بعد أن نجحت في امتحان الإنترميديت (المتوسط) الفلسطيني سنة ١٩٢٧، خرجت منهوك القوى ضعيف الجسم، فأخلدت إلى الراحة وعدم إجهاد الفكر وطلبت نزهة الخاطر والترويح عن النفس، فوجدتهما في صحبة طلعت السيفي، فكنت وأنا معه في ضحك مستمر. وكان هو قد تزوج من امرأة دمشقية لكن صداقتي معه لم تنقطع وكنت أزوره في بيته وتعرفت على زوجته. وسكن في منزل إلى الشرق من المدينة فيما وراء وادي الجوز، وفي غياب زوجته في دمشق كنت أسهر معه في المدينة ثم نذهب إلى بيته. وكنا نمر في طريقنا بالمسلخ حيث تذبح الحيوانات وعرف عن هذا المكان أنه مستراد لضبع كان يصادفه الناس هناك. وخرجت أنا وهو قرب منتصف الليل ومررنا بالمسلخ في طريقنا إلى البيت، وبعد أن قطعنا بعض المسافة سمعنا صوتاً كفرقعة السوط فقلت لطلعت: هذا صوت ضبع، وتولانا الفزع في ذلك الليل البهيم. فلجأنا إلى طريقة لإرهاب الضبع بإشعال عيدان الكبريت الواحد بعد الآخر منطلقين بأسرع ما تقوى عليه

أقدامنا حتى وصلنا البيت وحمدنا الله على السلامة. ولم أعد أرافقه في الليل إلى بيته، ثم هو انتقل منه إلى بيت في باب الساهرة.

تابعت دراستي في الكلية الإنكليزية وكانت الموضوعات التي نجحت فيها في الامتحان المتوسط هي: العربية والإنكليزية والرياضيات والتاريخ. وكنت آمل في التخصص في الرياضيات في امتحان البكالوريوس الفلسطيني، لكن معلم الرياضيات كان قد أصيب بداء في القلب فانقطع عن التعليم ولم يوجد من يحل محله، فتركت الرياضيات إلى العلوم الأدبية وهي اللغة العربية والإنكليزية والتاريخ مع دراسة الآثار.

وفي الرشيدية كانت صلتي أكثر ما تكون بعدد محدود من المعلمين، فاقتصر هذا العدد على: حسن عرفات وبترو زخريا وأنطون عبد المسيح وشكري المهتدي وجليل برامكي. وكان أنطون يدرس معي لامتحان البكالوريوس الفلسطيني، وشكري لامتحان الحقوق في جامعة لندن، وجليل لامتحان اللغة والأدب الإنكليزي في جامعة لندن. أما حسن عرفات فكان اتصالي به على الأكثر لاهتمامه بالرياضيات التي كان يعلمها مع الطبيعة في الرشيدية. وأذكر أنني أسست على سبيل التسلية مملكة كنت أنا الملك وكان حسن عرفات رئيس الوزراء وبترو زخريا وزير المالية وشكري المهتدي وزيراً للعدل. ولم يكن في الوزارة وزراء آخرون إلا أن الباب كان مفتوحاً، وأذكر أن زهير الشهابي كان من المرشحين. ولما نقلت أنا من القدس إلى الرملة قال حسن عرفات بالنيابة عن الوزارة: لقد أرسلنا الملك مندوباً سامياً إلى الرملة.

وأذكر أنني وحسن عرفات كانت لنا جولات في الرياضيات، وكان يحاول إعجازي مراراً بأسئلة رياضية، ومن جملتها أن ألقى عليّ مسألة هندسية كانت من المعضلات العالمية التي توفر على حلها عدد من العلماء، والمسألة هي: إذا كان المنصفان لزاويتي القاعدة في مثلث ما متساويين فالمثلث متساوي الساقين. وكنت أظن أن الحل ممكن وفي وقت غير طويل، ولكنني أخطأت في ظني وشعرت

أن المسألة عويصة جداً. فجعلت أفكر فيها ويخطر ببالي من وقت إلى آخر حل فأجربه فأجد أنه ليس الحل الصحيح. وبقيت الحلول تراودني مدة تزيد على ستة أشهر، إلى أن كان في أحد الأيام فكرت في الحل فمر بخاطري حل اعتقدت جازماً أنه الحل الصحيح. فجلست إلى طاولتي في الحال وبدأت في الحل إلى أن أنهيته بالبرهان الصحيح بعد أربع ساعات. وفي صباح اليوم التالي توجهت إلى الرشيدية بازدهاء، وتوجهت إلى حسن عرفات وأخبرته بافتخار أنني قد حللت المسألة فلم يصدق. وبعد أيام جاءني وجلس ناحية وأخذ ينظر في الحل مدة تزيد على الساعة ثم نهض وقال: الحل صحيح. ونصحني بإرسال الحل إلى إحدى المجلات العلمية في بريطانيا، ولكني لم أفعل وبقي الحل كما دونته على ظهر خريطة في كتاب تاريخ إنكليزي، إلى أن تركت القدس بعد سنين في عام ١٩٤٨ واحتل اليهود بيتي وجميع ما فيه وذهبت كتبي ومن بينها ذلك الكتاب.

قدمت امتحان التخرج الجامعي الفلسطيني من الكلية الإنكليزية سنة ١٩٣٠، وكانت الكلية تسمى بكلية الشباب. نجحت في ذلك الامتحان ونجحت معي فتاة اسمها فهيمة نصر وطالب يهودي اسمه بن زفي.

الفصل الثاني

في الرملة والقدس: سني الزواج

قبل ظهور نتائج الامتحان ذهبت إلى دمشق للنزهة وهناك تزوجت في ٣١ تموز عام ١٩٣٠. وعندما عدت إلى طولكرم مع زوجتي علمت أنني نجحت في الامتحان وأنني نقلت معلماً للغة الإنكليزية في مدرسة الرملة الثانوية.

وفي الرملة ذهبت لاستئجار بيت أسكنه مع زوجتي، وكنت في ضائقة مالية فاضطررت إلى أن أستدين إيجار البيت. ولم يكن معي ما أشتري به أثاث البيت فذهبت إلى يافا واشتريت بالدين ما أمكن شراؤه من تاجر هناك. ثم انتقلت إلى الرملة مع زوجتي وبدأت العمل، وكان مدير المدرسة إبراهيم صنوبر ومن المعلمين فوزي الكيالي وفهمي الغصين وحسن فهمي الدجاني وعبد اللطيف الطيباوي، ثم التحق بالمدرسة عدلي البيطار. وكان طلاب المدرسة من الرملة ومن اللد ومن القرى المحيطة. وتعرفت من غير المعلمين بشباب هم محمود علاء الدين وإيليا فانوس وشوكت الخيري.

وجدت الرملة مقسومة بين مسلمين ومسيحيين وكان بيتي في القسم المسيحي من المدينة. ووجدت المدينة مقسومة بين مجلسي ومعارض في السياسة الفلسطينية، وكان رئيس البلدية مصطفى الخيري من المعارضين للحاج أمين الحسيني، رئيس المجلس الإسلامي الأعلى. ومع أن والدي كان من رجال المعارضة، فإني ما ملت أبداً إلى تحزب ما، سواء أكان دينياً أم سياسياً. وكنت

أمقت الأحزاب ولا أنتمي إلى أي منها، ولعل الشيخ مصطفى الخيري كان ينتظر مني أن أكون في كنفه بحكم كوني ابن الشيخ سعيد الكرمي، أحد أركان المعارضة في فلسطين. ولكني أخلفت ظنه وبقيت على الحياد ولم أزره أبداً. واتفق أن والدي زارني في الرملة فدعاه الشيخ مصطفى إلى وليمة في بيته وذهب والدي ولم أذهب معه. وكان طبيب العائلة هو اسكندر عرنكي، وكان حولي عدد من الأسر المسيحية نزورهم ويزورونا. ولما اشتد الخلاف بين جماعة المفتي أمين الحسيني ومعارضيه في الرملة ثم حدث شيء من الفتنة بين بعض المسيحيين والمسلمين وانتقلت العدوى إلى المدرسة واتهم الطلاب المسيحيون بعض المعلمين المسلمين بالمحاوزة ضدهم، كنت أنا طاهر الذيل من هذه المنازعات والاتهامات ولم يتطرق أحد إلى ذكري في هذا الشأن لأن الجميع كان يعرف بُعدي عن كل تعصب أو تحزب.

كانت مدة إقامتي في الرملة أسعد وأهنأ مدة قضيتها في حياتي على الرغم من ضيق ذات اليد. كانت يافا قريبة والقدس غير بعيدة، وكانت النفس ميالة إلى التسلية واللهو بعد إتمام الدراسة وفي الحياة الزوجية الجديدة. كان لي في يافا ابن خال اسمه سعيد الخليل وزوجته أمينة ابنة خالي الآخر، وكنت أزوره في منزله في حي العجمي. وكان من سكان الرملة الشيخ سليمان التاجي الفاروقي فطلب إليّ أن أعلمه الإنكليزية فبدأت بتعليمه في بيته. وكان في يوم الأحد من كل أسبوع تقريباً يأخذني في سيارته إلى جريدته في يافا، «الجامعة الإسلامية»، ويستشيرني في بعض أموره ويعرض عليّ بعض الترجمات من الإنكليزية لتصحيحها. وأذكر أنني كنت في مكتبه نتحدث عن أمور الجريدة وعن بعض اقتراحات عرضتها عليه فدعا مدير إدارته خالد الفرخ لكي يسمع ما كنت أقترحه، فوافق قائلاً: وهل يريد الأعمى إلا قفة عيون؟ وكان الشيخ سليمان أعمى فخرج خالد من الغرفة عاجلاً. وأخذ الشيخ يردد: سامحك الله يا خالد. وفهمت بعد ذلك أن خالد الفرخ أحجم عن مواجهة الشيخ عدة أسابيع.

لم يكن التعليم شاقاً عليّ لأن كتب تعليم الإنكليزية كانت متوافرة ولم تكن هناك حاجة إلى جمع وإعداد مسبق. وخطر لي أن أمضي في الاستعداد للامتحان المتوسط لجامعة لندن. وكنت وأنا في القدس قد نجحت في امتحان متركيوليشن لندن نجاحاً جيداً. وقررت هذه المرة أن أعود إلى اختصاصي المفضل وهو الرياضيات، وفعلاً بدأت أدرسها وقطعت شوطاً بعيداً فيها، ثم توقفت لأنصرف إلى الإعداد لامتحان المعلمين الأعلى. وكان لا بد من النجاح في هذا الامتحان إذا أراد المعلم الترقية في الراتب درجة أو أكثر من درجته، فقدمت طلباً لدخول ذلك الامتحان لسنة ١٩٣١ ونجحت فيه. وارتفع راتبي الشهري وكنت في أشد الحاجة إلى ذلك لتسديد ديني والإنفاق على والدتي وأختي ولتحسين حالة بيتي من حيث ملتزماته. ثم ولدت لي في أول شهر أيار من سنة ١٩٣١ ابنة سمّيتها سهام.

كان بجوار الرملة على جانب الطريق أماكن للتسلية كالمقاهي والمطاعم لا بأس بها من حيث النظافة وحُسن الخدمة والرعاية بالزبائن. كنت أذهب أحياناً إلى بعض هذه الأماكن في المساء بصحبة أحد الأصدقاء غير المعلمين، وأكثر ما كنت أخرج إليها بصحبة محمود علاء الدين وشوكت الخيري، وأحياناً بصحبة فوزي الكيالي أو فهمي الغصين من المعلمين. ومن الطريف أن اثنين من الشباب الذين كنت أتردد معهم على مقهى هناك، كانا يتنافسان على حب زوجة صاحب المقهى ويغدقان الهدايا لها، ولم تكن هي من حيث الجمال تستحق كل ذلك. وكان صاحب المقهى يغض الطرف، إلى أن توطدت الصداقة بين الزوجة وأحد الشابين فاغتاظ الزوج وأراد أن يوقف الشاب عند حده دون أن ينفره عن التردد إلى المكان. فرتب لدعوة إلى الزبائن ومن جملتهم ذلك الشاب وكتب الدعوة باسم الشاب ووضع كنيته على الشكل الذي عرفت به عائلته قديماً. ولما قرأ الشاب الدعوة استشاط غضباً لأنه أدرك أن الزوج كان يعرّض به احتقاراً له. وعلى أثر ذلك نفر ذلك الشاب وانقطع عن زيارة المكان وخلى الميدان للشاب الآخر.

وكان التنافس بين تينك الشابين مصدر سلوى لي وتفكه. وكان بينهما تنافس آخر على حب مديرة مدرسة البنات يريد كل منهما استمالتها إليه. لكن تلك المحاولة كانت عقيمة لأن السيدة كانت مسيحية من القدس وكانت أولاً مديرة مدرسة وثانياً مثقفة وراقية. بينما شاب منهما كان معلم ابتدائي براتب صغير ومتزوجاً وينقصه التعليم العالي، والثاني كان محصل ضرائب براتب صغير ومتعلماً تعليماً بسيطاً. وكنت أستغرب كيف يدخل في روع تينك الشابين الأمل في أن تقبل مديرة محترمة بأحدهما صديقاً أو عشيقاً. ثم انضم إليهما في المنافسة أحد المعلمين الآخرين واشترى دراجة نارية ولها عربة صغيرة ملحقة بها، وكان يأمل أن يحمل السيدة في تلك العربة في نزهة إلى القدس أو يافا.

قضيت في الرملة سنتين ونصف السنة حتى ربيع ١٩٣٣ ثم نقلت إلى المدرسة الرشيدية في القدس، وهذه المرة لتعليم اللغة الإنكليزية. وكانت إدارة المعارف قد أعدت دورة تدريبية لمعلمي اللغة الإنكليزية في المدارس الثانوية في القدس سنة ١٩٣٢ لتحسين طرق التعليم للغة تحت إشراف مفتشين إنكليزيين وهما المستر أتنبرة والمستر وايتنغ. وكنت قد خرجت من هذه الدورة بنجاح حتى أن أحمد سامح الخالدي كان إذا التقيت به يقول: أهلاً بشيخ معلمي اللغة الإنكليزية.

انتقلت إلى القدس وتركت زوجتي وابنتي الصغيرة في بيتي في الرملة وأوصيت بهما جاراً لي هندياً مسلماً، فما أخلف الظن. وكنت آتي إلى الرملة في يوم العطلة في آخر الأسبوع ثم أعود إلى القدس. إلى أن وجدت بيتاً في حي باب الساهرة ونقلت زوجتي وابنتي إليه واستقررنا في القدس. وكان مدير المدرسة في ذلك الزمن عارف البديري ومدير المعارف المستر بومان ونائبه المستر فارل. وكان بيني وبين المستر فارل شيء من الصلة العلمية لاهتمامه بالتاريخ أولاً ثم باللغة الإنكليزية، فكان عند زيارته للمدرسة الرشيدية يطلب أن يراني ونقف معاً نتحدث، وأكثر حديثه أسئلة عن التاريخ وبعض الصعوبات في قواعد اللغة الإنكليزية. وقد أثار هذا الاجتماع مع المستر فارل بعض الظنون عند عدد من المعلمين أصحاب الأغراض وأخص بالذكر معلماً من غلاة المتظاهرين بالغيرة

الوطنية الزائفة في جميع أموره. وكان له شأن في ما تعرضت له من اختلاقات وبهتان فيما بعد.

وفي عودتي إلى القدس تجددت صداقتي مع طلعت السيفي ومع الذين كنت أعرفهم من قبل وزاد عددهم حتى شمل المحامين أمثال عوني عبد الهادي وعمر الصالح، وشمل من غير المحامين فؤاد النشاشيبي وحسن قليبو. ولم تكن في القدس في ذلك الزمن حركة أدبية تذكر لأن الجميع كانوا منغمسين في حمأة السياسة المحلية وفي الخلافات بين مجلسي ومعارض، أي بين أتباع الحاج أمين الحسيني، رئيس المجلس الإسلامي الأعلى، وأتباع حزب الدفاع برئاسة راغب النشاشيبي. بالإضافة إلى أتباع أحزاب فلسطينية أخرى مثل حزب الاستقلال بزعامة عوني عبد الهادي وحزب الكتلة الوطنية في نابلس بزعامة توفيق صلاح وحزب الشباب بزعامة يعقوب الغصين. وكان تعدد هذه الأحزاب خدمة جليلة للصهيونيين، كما أن اختلاف تلك الأحزاب كان العامل الأكبر في توهين العزائم وتشتيت القوى. والغريب أنني ما كنت أجد أحداً يرى رأيي في أن تلك الأحزاب كانت من صنع أعداء الفلسطينيين بل إنها كانت مفروضة عليهم، إذ كيف يعقل أن تكون الأحزاب مختلفة حول القضية الأساسية وهي الدفاع عن الأرض؟ هذه الأحزاب تركت تلك القضية واشتغلت بأمور جانبية ومهاترات كانت تصل إلى حد البذاءة.

وكنت أنا أتجنب الانخراط في الحزبيات لعلمي أنها ليست لخدمة الوطن أولاً، ولأني كنت انصرفت لتحسين وضعي في إدارة المعارف ثانياً، فتوفرت على التعليم. كانت تسليتي هي زيارة الأصدقاء البعيدين عن الحزبية، وكان رفيقي في ذلك طلعت السيفي، فكنا نكثر التردد على بيت فؤاد النشاشيبي ولم يكن له أي اهتمام بالحزبيات. وتسليتي الأخرى كانت قراءة الكتب عامة والكتب الإنكليزية خاصة، وهذا لا يستغرب لكوني معلماً للغة الإنكليزية. فالمعيشة على العموم كانت رتيبة، ولم يكن فيها ما ينغص.

وفي سنة ١٩٣٥ اختارتني إدارة المعارف معلماً للغة الإنكليزية في الكلية العربية، وكانت الكلية في بنائها الجديد على جبل المكبر في جنوبي شرق القدس. وكنت أذهب في سيارة كبيرة عند الظهر مع عدد من الطلاب إلى الكلية وأتناول الغداء هناك وأعود مع الطلاب على مدى يومين من كل أسبوع. ودام هذا الحال معي حتى سنة ١٩٣٧، مما مكنني من الاختلاط بعدد من المعلمين في الكلية منهم بالطبع أحمد سامح الخالدي مدير الكلية وحبيب الخوري والحاج مير وسليم كاتول ووصفي العنبتاوي وحسن عرفات وعبد الرحمن بشناق وجورج خميس، وكان هذان الأخيران يعلمان اللغة الإنكليزية. وأذكر أن أحمد سامح الخالدي غضب على أخي محمود فأخرج من الكلية ابنه زهير ظلماً وعدواناً. وعندما جئت إلى الكلية كنت كأنني جئت رغماً عنه، فلم يكن ينظر لي بعين من الارتياح للعداوة بينه وبين أخي. كان بإمكاني إظهار العداوة له، إلا أنني فضلت البقاء على الحياد والسلوك كما لو أن شيئاً من ذلك لم يكن. ولا شك أن إدارة المعارف كانت تعلم بالحيف الذي نزل بزهير فأرادت أن تكفر عن ذلك فانتخبته فيما بعد، بعد إتمامه الجامعة الأميركية في بيروت، طالباً موفداً من الإدارة إلى بريطانيا للتخصص في علم الحياة (البيولوجيا). وكانت هذه نكاية، على ما يظهر بأحمد سامح الخالدي ولا سيما بعد أن قامت العداوة بينه وبين المستر فارل مدير المعارف حينئذ لأسباب متعددة.

الفصل الثالث

الرحلة الأولى إلى لندن

في سنة ١٩٣٧ أُرسلت في بعثة إلى إنكلترا للتخصص في أصول التعليم، في معهد التربية والتعليم التابع لجامعة لندن. سافرت بالباخرة من بور سعيد وكان من بين الركاب بعض الطلاب المصريين الموفدين في بعثات دراسية للتخصص. وكان على الباخرة أيضاً فتاة إنكليزية وقد لزق بها أحد الطلاب المصريين وأخذ ينفق عليها بسعة. وجاءت الفتاة يوماً إليّ وأنا وحدي على ظهر الباخرة ومعها الطالب المصري وهما في حالة سكر. فأخذت تتحرش بي وتقول أقوالاً ظننت أنها من قبيل الاستخفاف أو الاستفزاز، فلم أحتمل ذلك لأن الطالب المصري كان يضحك طول الوقت، فانفجرت وقلت لها: سُدي فمك، فسكتت وانصرفت. وأقبل الطالب المصري عليّ يلومني على كلامي للفتاة بتلك القسوة، فلم أعره اهتماماً. وفي صباح اليوم التالي جاءتني الفتاة تعتذر لي عن سوء أدبها، فعذرتها وهذا مما أغاظ الطالب المصري.

وعندما وصلنا ميناء ساوثامبتن في جنوبي بريطانيا استقلينا القطار إلى محطة فكتوريا في لندن وذهب كل منا في طريقه. وكان الطالب المصري قد عرض عليّ أن يأخذني بسيارة السفارة المصرية إلى أي مكان أريد ولكنني رفضت، وأخذت سيارة أجرة وتوجهت إلى عنوان كنت أخذته من عبد الرحمن بشناق لمنزل سيدة إنكليزية تؤجر غرفاً. وأذكر أن السيدة نظرت إليّ ملياً قبل أن تدعوني إلى الدخول والسكن في منزلها. وعندما سألتها عن سبب ترددها قالت إنها خشيت أن أكون هندياً أو مصرياً، وفهمت فيما بعد أن الطلاب المصريين في لندن كانت لهم سمعة سيئة بسبب سلوكهم وعدم وفائهم بدفع الإيجار وتلاعبهم في ذلك وفرارهم من المنزل دون دفع ما عليهم. أما الطلاب

الهنود فكانوا محتقرين في لندن لا لسوء سلوكهم ولكن لأنهم ينتمون إلى شعب يحتقره الإنكليز. والحق أنني لم أشعر يوماً أن معاملتي من قبل الإنكليز كان فيها شيء من المجافاة أو الاحتقار.

كانت تلك الرحلة أول رحلة لي خارج فلسطين إلى مسافة بعيدة. والأمر الذي واجهني في حياتي الجديدة في لندن، هو أنني كنت أجد في سلوكي عند مخاطبة النساء أو التعامل معهن شيئاً من الاحتشام أو الاستحياء خشية أن يصدر عني غلطة في اللغة أو في السلوك، فألجأ أحياناً إلى الصمت أو الانعزال. وكنت أتمنى لو أصادق رجلاً أتعلم منه أو امرأة أُذهب عني بصداقتها خجلي واحتشامي. ثم وجدت صديقاً في شخص كان نازلاً هناك اسمه بلنغتون وكان طبيباً بيطرياً متقدماً في السن نوعاً ما. فقد لاحظ هذا الطبيب في سلوكي شيئاً من الخشية والخجل وعرف كما يظهر سبب ذلك، فأراد أن يدربني ويدرجني شيئاً فشيئاً. فكان يتكلم معي كل صباح بعد الفطور ويحادثني، فكنت أسأله عن أشياء كانت تعترضني فيشرحها لي ويرشدني. كنت أحياناً أزوره في عيادته ونتناول معاً طعام الغداء. وكان يشجعني على محادثة النساء والاقتراب منهن ويحب مني أن أحدثه عما جرى معي في أية علاقة مع النساء. وقد اقتصرت هذه فقط على حوادث طفيفة كانت تجري مع الطالبات في الكلية. وأذكر أن الطبيب دُعي مرة في المساء إلى منزل لمعالجة هرة لسيدة وأخذني معه، وفيما كنا في المكان دُعي الطبيب إلى منزل آخر، فذهب وتركني على أن يعود ليأخذني فيما بعد إلى المنزل. ويظهر أنه تأخر في ذلك المكان ونسي أن يعود إليّ فاضطررت إلى النوم عند السيدة، ولو كنت أعرف طريق العودة إلى المنزل لعدت، ولكن لم يكن قد مضى على وجودي في لندن سوى فترة قصيرة.

وجاء بعد مدة في المنزل رجل اسمه كارترايت، أخبرني أنه كان في فلسطين من رجال الإدارة في بئر السبع، فأنست به وصادقته. وكان في ذلك الزمن يحاول أن يكون عضواً في لجنة تريد الحكومة البريطانية إرسالها إلى فلسطين لتفحص الحالة وتقديم تقرير عن ذلك. وكان كارترايت معدماً تقريباً، فكان يستدين جنيه أو اثنين مني ومن بيلنكتون بين الحين والآخر. وفي يوم من الأيام

فُقد شيء ثمين من التحف في المنزل ولم يُعرف من أخذه، ثم فقدت آلة للطباعة بعد ذلك. فاشتد القيل والقال في المنزل عمن يكون السارق، واتفق أنني دخلت على ربة المنزل في مكتبها لأمر ما وتطرق الحديث معها إلى شيء لا أذكره الآن، فإذا بها تقول: وهذا أيضاً تريد أخذه؟ فوجمت وبقيت صامتاً لم أحر بكلمة مدة دقيقة وخرجت دون أن أنبس ببنت شفة. ولعلها أدركت خطأها، ثم تبين فيما بعد أن كارترايت بسبب ضيق ذات يده كان يأخذ تلك الأشياء ويبيعها. بعد ذلك ترك المنزل وعاد إلى بلدته ولم أره ثانية.

كانت الحياة رتيبة بالنسبة إليّ سواء في معهد التربية والتعليم أو في المنزل أو في الخارج. وكنت أتحاشى التورط في علاقة صداقة مع طالبة من المعهد أو من خارجه. وكان لي صديق بين الطلاب فجاءني يوماً وقال إن الطالبة الفلانية وأشار إليها، تريد مني أن أحييها إذا التقيت بها. فصرت أحييها ولم أزد على ذلك، إلى أن كان في أمسية من الأمسيات أن دعا أحد أساتذتنا وهو الدكتور غري الطلاب والطالبات إلى منزله، وكان من جملة ما جرى في تلك الأمسية أنه عند إطفاء النور كان على كل طالب وطالبة أن يقبّل الشخص الذي يريد وهي لعبة معروفة. وشعرت عند إطفاء النور أن طالبة أمسكت بي وأخذت تقبّلني إلى أن أشعل الضوء ثانية، وتبين أن هذه الطالبة هي التي كنت أحييها.

كان للعرب نشاط سياسي بين الطلاب ولا سيما بين الطلاب الفلسطينيين، وكان يتزعم هذا النشاط عيسى نخلة وعبد الله الحسيني. وقد ضمت الطلاب العرب جمعية خاصة بهم، عرفت منهم: نقولا زيادة من فلسطين ومحمود عبد الحليم من مصر وعبد الرحمن البزاز من العراق. وكان معظم الطلاب من العراق ومن مصر في بعثات حكومية أو غير حكومية، أما الطلاب الفلسطينيين ففي بعثات حكومية تشترط عليهم عدم الدخول في نشاط سياسي. واتفق أن عقد الطلاب العرب مؤتمراً في ربيع ١٩٣٨ في مقاطعة إلى الشرق من لندن هي هدرسفيلد، مدته أسبوع، ووقع الاختيار عليّ لأن أكون رئيساً. وفي أحد الاجتماعات تبين لنا أن بين الطلاب العراقيين ثلاثة أو أربعة من اليهود، ولما شعر أولئك الطلاب بموقفهم جاءوا يدللون على ولائهم للقضية العربية لأنهم

عراقيون أولاً. ولما انقضى المؤتمر اجتمع عدد منا وأخذنا صورة شمسية لنا. وأذكر أننا دعونا نوري السعيد، الزعيم العراقي إلى اجتماع للطلاب العرب وطلبنا إليه أن يحدثنا، وكنت أنا رئيساً للاجتماع، فلبى الدعوة. وفي حديثه عن الوحدة العربية قال: إن الوحدة العربية تتحقق بأن تعقد الدول العربية معاهدات صداقة مع بريطانيا وهذا قد يجمع بينها وبذلك تتحقق لها الوحدة. ولم يوافق جميع الطلاب على ذلك الرأي.

كان المستر فارل الذي أصبح مديراً للمعارف، يشجعني على التخصص في الرياضيات قائلاً إنه بإمكانه أن يرتب لذلك مع جامعة لندن. واجتمعت فعلاً بأحد المختصين بالأمر فشجعني على ذلك ولم يبق إلا أن أحزم في الأمر. لكنني أرجأت اتخاذ القرار إلى نهاية الدورة، ولما انتهت كانت صحتي قد تضعضعت واشتقت إلى زوجتي وولدي فعدلت عن دخول الجامعة لدراسة الرياضيات إلى حين. وكانت الإذاعة البريطانية في لندن قد افتتحت في أول كانون الثاني من سنة ١٩٣٨ قسماً لإذاعة عربية وكان الطلب على مذيعين شديداً. ففكرت أن أعيد ما كنت فعلته في القدس من الجمع بين العمل والدراسة. وفكرت أنني إذا عملت في القسم العربي من الإذاعة البريطانية براتب مناسب، تمكنت في أثناء العمل من التخصص بالرياضيات. وحينما قاربت العودة إلى فلسطين، طلبت مقابلة المسؤول عن التوظيف للقسم العربي وعرضت عليه خدماتي فرحب بذلك. وذكرت له أن عملي في الإذاعة مرهون بموافقة إدارة المعارف في فلسطين لأنني موظف حكومي. فأرسل المسؤول كتاباً إلى مدير المعارف إلا أن المدير رفض الطلب وعدت أنا إلى القدس.

سافرت من محطة فكتوريا وكان في وداعي المستر بلنغتون الصديق القديم وصديقة كانت معي في المنزل، وذهبت إلى باريس. اجتمعت هناك بعبد الرحمن البزاز وعدد من الطلاب العراقيين وزرت معالم باريس وفرساي وبعد أيام سافرت إلى مرسيليا بالقطار ومنها إلى بور سعيد بالباخرة ومن ثم إلى اللد ثم القدس.

الفصل الرابع

العودة إلى القدس

في القدس عدت إلى التعليم في المدرسة الرشيدية التي كانت قد أصبحت مدرسة ثانوية كاملة تنتهي بالصف الرابع الثانوي. وكان نظام التعليم في فلسطين على مراحل: المرحلة الابتدائية وعدد صفوفها سبعة، والمرحلة الثانوية وعدد صفوفها أربعة. والمرحلة الابتدائية درجتان: الدرجة الأولى عند انتهاء الصف الخامس والثانية عند انتهاء الصف السابع. والمرحلة الثانوية درجتان: الأولى عند انتهاء الصف الثاني، والثانية عند انتهاء الصف الرابع عندما يتقدم الطلاب إلى امتحان الاجتياز إلى التعليم العالي وهو امتحان المتركيوليشن. وكانت درجات المعلمين على أساس هذا التعليم، فمنهم معلمو الابتدائي وكانوا على ثلاث درجات ومعلمو الثانوي وكانوا على درجتين. وفي فلسطين في ذلك الزمان كان هناك عدد من المدارس الثانوية أغلبها كان ينتهي بالصف الثاني الثانوي وبعضها كان يصل إلى الصف الرابع. والكلية العربية كانت الوحيدة من المدارس الثانوية التي احتوت على صفيّ خامس وسادس لتدريب المعلمين أو للإعداد لامتحان المتوسط في نهاية الصف السادس. وقد قام نظام التعليم في فلسطين على مبدأ أنه لما كان المال المخصص للتعليم محدوداً، فلا بد أن ينفق هذا المال على الطلاب الذين هم أهل للتعليم في جميع مراحله. لذلك كان أكثر الأولاد والبنات يحرمون من التعليم بسبب عدم توافر الأماكن في المدارس لاستيعابهم ولا سيما في القرى وأكثرها كان بلا مدارس. وكثيراً ما كان الأهلون يضطرون إلى المساهمة في بناء المدارس ودفع رواتب المدرسين. وما أن انتهى

الانتداب على فلسطين إلا وقد أصبح التعليم شاملاً بفضل هذا التعاون بين الحكومة والأهالي.

كان لا بد من اختيار الطلاب الأصلح عند كل درجة من درجات التعليم: الأول بعد الصف الخامس، والاختيار الثاني بعد الصف السابع للمرحلة الثانوية، ثم اختيار آخر بعد الصف الثاني ثانوي، والاختيار الرابع بعد الصف الرابع ثانوي في الكلية العربية. أما الطلاب الذين لا يحظون بالاختيار في أي مرحلة يبقون بلا تعليم أو يدخلون المدارس الأهلية. وكان المال المخصص للتعليم في ميزانية حكومة فلسطين مقسوماً بين العرب واليهود بنسبة كانت موضع جدل بين إدارة المعارف المشرفة على تعليم العرب والوكالة اليهودية. وحجة اليهود في هذا الجدل هو أن المال بين العرب واليهود يجب أن يقسم على أساس عدد الطلاب الموجودين فعلاً في المدارس، وهي حجة معقولة في ظاهرها ولكنها لو اتبعت لأخذ اليهود حصة الأسد. أما حجة إدارة المعارف فهي أن المال يجب أن يقسم على أساس عدد الأولاد الذين هم في سن التعليم، وهذه الحجة تعطي القسم الأكبر من المال لتعليم العرب، وهكذا كان.

كانت فلسطين من الناحية الإدارية للمدارس مقسمة إلى أربع مقاطعات، وهي القدس والسامرة والجنوب والشمال، ثم استحدثت مقاطعة خامسة وهي غزة. وكان على رأس كل مقاطعة مفتش يساعده مساعد واحد. كان مقر السامرة في نابلس ومقر الجنوب في يافا ومقر الشمال في حيفا.

وكانت الإدارة العامة مؤلفة من مدير للمعارف ومن نائب للمدير ومن مساعد له ثم من مفتشين إداريين ومفتشين فنيين يفتشون المدارس في الموضوعات المختلفة بحسب اختصاصهم. وكان لمدير المعارف مساعد واحد ثم صار له في سنة ١٩٤٦ مساعدان: أحدهما جبرائيل كاتول والثاني أحمد

سامح الخالدي. وكان جبرائيل كاتول للإدارة والمالية وأحمد سامح الخالدي للتعليم، وكان منصب المساعد للتعليم قد استحدث خلافاً لرأي مدير المعارف وبضغط من السكرتاريا العامة للحكومة بعد احتجاجات قامت بها عناصر إسلامية وعربية ضد ترقية جبرائيل كاتول وإعطائه درجة فوق درجة أحمد سامح الخالدي مدير الكلية العربية. أتيت بهذا العرض الموجز لنظام التعليم في حكومة فلسطين ليكون دليلاً لمعرفة حالة التعليم في ذلك القطر ودليلاً لما سأذكره من حوادث فيما بعد.

قلت إني عدت إلى التعليم في المدرسة الرشيدية في أيلول من سنة ١٩٣٨، وكان بين المعلمين من يرى في إرسالي بعثة إلى بريطانيا دليلاً على أنني كنت ممالئاً للسلطة، وزاد هذا الظن عندهم شدة لما رأوا أُنني أُكثر من قراءة الكتب الإنكليزية. ثم إن بعضهم عدني من المعارضين للحاج أمين الحسيني، وكان المعارض في ذلك الزمان مشكوكاً في وطنيته. وأتتني هذه التهمة من ناحية أن أخوين لي كانا من مناصري حركة المعارضة في البلاد. ولا تخلو هذه الظنون والتهم من الحسد ولا أساس لها من الصحة على الإطلاق. واستغل أصحاب الأغراض أمراً آخر، وهو أن الإضراب العام الذي قام به العرب في فلسطين سنة ١٩٣٦ أدى إلى إغلاق المدارس ومنها الرشيدية، فطلب إليّ العمل في دائرة المطبوعات لترجمة ما تنشره الصحف العربية. ولم يكن في هذا العمل أي شيء من التجسس لأنه مجرد ترجمة لأقوال علنية منشورة في الجرائد. لكن أصحاب الأغراض أشاعوا لغرض في أنفسهم أن عملي ذلك كان تجسساً، والغريب أن تكون هذه الإشاعة صادرة عن معلم أو معلمين ساقتهم الحمى الحزبية التي كانت تستحوذ على النفوس في البلاد إلى أقوال وأعمال أدت إلى الكارثة العظمى وهي ضياع البلاد ونزوح السكان وقيام دولة إسرائيل.

هذا الوضع واجهني لما عدت إلى التعليم في المدرسة الرشيدية، وزاد هذا الوضع إيلاماً للنفس أن صديقاً قديماً لي قد تغير عليّ وصار من ألد أعدائي وعاون على نشر الشائعات الكاذبة وضم صوته إلى أصوات الآخرين. ومن هذه الشائعات على سبيل المثال قولهم إنني سافرت إلى بريطانيا سنة ١٩٣٧ أحمل معي مشروع التقسيم، وكان هذا المشروع قد اقترحته لجنة ملكية بريطانية ورفضته اللجنة العربية العليا وعلى رأسها الحاج أمين الحسيني. والذين كانوا يسمعون هذه الشائعات من العاقلين يردون بقولهم: لماذا ترسل الحكومة الفلسطينية هذا المشروع الخطير بواسطة رجل عادي ولديها من الوسائط البريدية وغيرها الشيء الكثير؟

بدأت العمل بجد واهتمام في أيلول سنة ١٩٣٨، ولم يمض على بدء العمل سوى بضعة أشهر حتى شعرت بأن الطوق يزداد إطباقاً علي. وزاد من ضيق النفس أنني كنت محاطاً بأشخاص لا يضمرون خيراً لي إما لخوفهم وإما لغرض في نفوسهم، وأنني كنت أسكن حياً كان بؤرةً للعنف الذي انغمس فيه البعض جهلاً منهم، ولا رادع ولا وازع. ولما اشتد الحال اعتزلت العمل ولزمت بيتي خوفاً من الاغتيال وكتبت إلى مدير المعارف بالحال. وكان من جملة المشنعين عليّ معلم من آل البرغوثي يسكن بيتاً مجاوراً لبيتي في حي باب الساهرة. كان لذلك المعلم موجدة عليّ مثل موجدة صديقي القديم عليّ، وهذا ما جمع بينهما. وحكاية ذلك أن زوجة هذا المعلم زارت زوجتي في يوم من الأيام ورأتني نائماً على مقعد في غرفة الضيوف من غير غطاء فأخذت بنفسها غطاءً وغطتني، وقالت لزوجتي: كيف تتركين أبا زياد ينام من غير غطاء؟ هذه الحكاية نقلت إلى زوجة صديقي وجاري وهي نقلتها إليه، وكانت الصداقة لا تزال قائمة بيننا. ولما فسدت العلاقة، نم ذلك الصديق بهذه العلاقة إلى المعلم وهو بالطبع اعتبر ذلك ذنباً وألقاه على عاتقي. وأخذ يعمل بالخفاء للإيقاع بي وساعده بذلك

صديقي القديم الذي انقلب عليّ والمعلم م.خورشيد. وفي يوم من الأيام وأنا منزوٍ في بيتي طرق الباب طارق، وكانت زوجتي خوفاً عليّ تبادر إلى فتح الباب بنفسها، واتفق أنني كنت بجانب الباب ففتحته ورأيت أن الطارق رجلاً لا أعرفه فسألني إن كنت حسن الكرمي فأجبته بنعم، فطلب الدخول ودخل. فعرفت أنه من آل الدزدار، وقال لي في أثناء الحديث إنه جاء لمعرفة براءتي أو عدمها مما يُشاع عني وقال إنه كان مأموراً بإلقاء قنبلة داخل البيت إذا أنا امتنعت عن فتح الباب. وقال إنه آمن ببراءتي، وتفاهمنا وأعطيته خمس جنيهات للمجهود القومي، وعرض أن يكون حارساً لي في ذهابي إلى الرشيدية ورجوعي منها. ولكن هيهات، لأني كنت أشك في كل إنسان.

وحدث شيء آخر في تلك المدة العصيبة، وهي أن أحداً لم يزرني، والوحيد الذي كان يزورني قريب من عائلة الخضر من طولكرم كان يعمل في البوليس الفلسطيني وكان له زميل من قرية طمرة من نواحي طبرية. جاء هذا الزميل وزارني مع قريبي وعلم بالوضع، فغضب وعزم على معاقبة المسؤولين فأعلمته بأسمائهم. وبعد بضعة أيام جاءني أحد المظنون بهم وأخذ يتنصل من كل شيء وأقسم على أنه ليس له دخل في أي دسيسة ضدي وكان هذا الرجل هو المعلم البرغوثي. وفهمت منه أنه تلقى من قيادة الثورة كتاباً يتهمه بأنه يعمل في الخفاء على اغتيالي وينذره بأنه سيكون مسؤولاً عن أي أذى يلحق بي. وكان الكتاب يحمل ختم القيادة في منطقة القدس. وعلمت أن الشخصين الآخرين تلقيا كتابين بهذا المعنى.

ومع ذلك فإن بالي ظل مضطرباً فقررت الخروج من منزلي والذهاب إلى مكان آمن. وذهبت فعلاً إلى دار جمعية الشبان المسيحية وأقمت هناك، وتركت زوجتي وولدي في رعاية جار طيب وفي رعاية قريبي الشرطي، وكلفت أخي عبد

الكريم (أبا سلمى) بزيارة البيت من وقت إلى آخر للاطمئنان، وعملت مؤقتاً في دائرة المطبوعات بإذن من إدارة المعارف. وبعد أن كنت قد قضيت في دار جمعية الشبان المسيحية شهراً تقريباً اتصل بي نديم البارودي وكان موظفاً كبيراً في إدارة الزراعة والأحراش، واقترح أن يتناول الغداء معي في مطعم الجمعية فرحبت به. ثم عاد وأخبرني بأنه سيأتي بصديق معه، فرحبت به وبالصديق. فجاء فعلاً ومعه صديقه ونزلنا إلى المطعم وعرفني بالصديق واسمه مطيع اللبابيدي، فلما سمع هذا الأخير باسمي ارتبك لكنه وعد عندما سمع بوضعي بأن يعمل جهده لرفع الحيف وكف الأيدي. وبعد مضي ما يقرب من الشهر على ذلك الاجتماع جاءني نديم البارودي وأعلمني أن مطيع اللبابيدي اتصل بجميع القيادات وتلقى منها أنني لم أكن مهدداً من أي جهة وبأنه يمكنني الخروج من عزلتي والذهاب أنى شئت بأمان واطمئنان. فتشجعت بعض الشيء وصرت أتجول فيما حول دار الجمعية إلى مسافات غير بعيدة، ثم قررت استئجار دار في القطمون في الجهة الغربية من القدس وأتيت بزوجتي وولدي وسكنت هناك وتابعت العمل في دائرة المطبوعات. ثم تعينت في إدارة المعارف وكانت في شارع الملكة ماري مقابل مقبرة مأمن الله وكان هذا الشارع في منأى عن الأعمال العنيفة، شأنه في ذلك شأن حي القطمون. وظل الحال بين الخوف والاطمئنان إلى أن كانت سنة ١٩٣٩ وأعلنت الحرب العالمية الثانية، عندها اختفى كل نشاط إرهابي في جميع فلسطين، كما لو أن ذلك النشاط كان بأمر وإيقافه كان بأمر، وسبحان صاحب النهي والأمر. فاطمأن الناس على أرواحهم وعاد الفارون من البلاد إلى أهلهم وذويهم وحمد الناس الله على نشوب الحرب، فبعض الشر أهون من بعض. وكان ذلك فرجاً عظيماً لي.

قبل ذلك بما يقرب من الشهر اتصل بي نديم البارودي وأخبرني بأن مطيع اللبابيدي قد أعدم شنقاً، فتعجبت من ذلك، لكنه أخبرني أن مطيعاً

كان رئيساً لجماعة العنف في القدس وهو الذي قتل بنفسه عدداً من الناس في القدس القديمة. وكان يعمل في مكان للخياطة عند سعدي التميمي بالقرب من باب الخليل، ويضع مسدسه في درج للطاولة التي يعمل عليها. فإذا قرر قتل أحد كان يأخذ مسدسه ويستأذن من سعدي التميمي ويذهب فيقتل ثم يعود إلى عمله كما لو أن شيئاً لم يحدث. وأخبرني أن مطيعاً أراد أن يمد يده إلى خارج الحدود المقررة له فألقى قنبلة في شارع الملكة ماري وهو أقرب أن يكون شارعاً لليهود فأصاب امرأة أميركية وآخرين بجراح فألقت الشرطة القبض عليه وزجته في السجن وشنق على عجل في اليوم التالي. وطلب إليّ نديم البارودي المساعدة لأن مطيعاً كان ينام عنده وترك أغراضاً له في بيته. ولم يكن لدي واسطة للمساعدة ولكنني كنت على يقين بأن الشرطة السرية في فلسطين كانت على علم تام بأعمال الإرهاب وبرجاله لذلك طمأنت نديم البارودي بأنه لن يلحقه أذى من جراء تلك العلاقة مع مطيع اللبابيدي. وأخبرني نديم أن مطيعاً ولد في حماة وأن أباه وإخوته كانوا يعملون في مزارع دار البارودي.

العمل في إدارة المعارف

استقررت في عملي في إدارة المعارف وعينت بعد سنة برتبة مساعد مفتش. وكنت على اتصال وثيق بمدير المعارف وبنائبه وبمساعده، وحدث في سنة ١٩٤١ أن جاء أحمد سامح الخالدي إلى إدارة المعارف مساعداً لمدير المعارف ومسؤوليته البرامج التعليمية والدورات التدريبية والامتحانات. وكان مجيئه إلى الإدارة على غير رضى من مدير المعارف. وطلب إليّ أن أكون مساعده، وأذكر أن نائب مدير المعارف واسمه هوغبن قال لي: اعمل معه على أن تعمل أنت كل شيء وليس له إلا التوقيع. ومع أن أحمد سامح كان قد خاصم أخي محموداً وأخرج ابنه زهير من الكلية العربية، فقد أخلصت معه العمل لأن الواجب هو الإخلاص

في العمل. واعترف أحمد سامح بذلك، وكان يفاخر بأن القسم الفني في إدارة المعارف، وهو قسمه كان أية في الضبط والإتقان. وكان العبء ثقيلاً عليّ، فأتاح ذلك لأحمد سامح فرصة الالتفات إلى مشروع اليتيم الذي كان يرأسه وإلى مدرسة دير عمرو للأيتام. وكان يعتبر ذلك المشروع بأنه باب للشهرة والحظوة لدى الشعب العربي، فكان مكتبه في إدارة المعارف مزدوج النشاط: نشاط لإدارة المعارف ونشاط لمشروع اليتيم. وكان يفد عليه بعض موظفي المشروع وبعض رجال القرى المجاورة ويعرفون بالمخاتير. وحدث مرة أنه كان في مكتبه في اجتماع مع مخاتير القرى وكان حافلاً، فدخل عليه مدير المعارف، ويظهر أنه كان قد علم بالاجتماع، فوجد المخاتير يدخنون ويشربون القهوة ويتحدثون مع أحمد سامح عن مشروع اليتيم ومدرسة دير عمرو، وهذا لا يجوز في مكتب حكومي، فاغتنم مدير المعارف الفرصة وطرد المخاتير بصوت عنيف فخرجوا يجرون أذيال الإهانة ووقف أحمد سامح مبهوتاً. ودخلت عليه بعد ذلك لأمر من الأمور فوجدته محتقن الوجه غضباً، وشكا إليّ سوء معاملة مدير المعارف للمخاتير وهم وجوه القرى، وعدم احترامه له شخصياً. وأنا بالطبع أعرف أن المكتب الحكومي هو للعمل الرسمي لا غير، ولكني واسيته وطيبت خاطره، وذكرت له على سبيل المثال أن مدير المعارف دخل عليّ يوماً فوجد عندي اثنين أو ثلاثة من المعلمين كانوا يحدثوني عن أمور متعلقة بعملهم الرسمي فما كان منه إلا أن صاح بهم: اخرجوا فخرجوا كاسفي البال.

وظل مدير المعارف يدبر على إبعاد أحمد سامح عن إدارة المعارف. وعندما أصيب أحمد سامح بنوبة قلبية، اتخذ مدير المعارف حادث النوبة ذريعة للتخلص منه، وبعد أن كان أحمد سامح قد أمضى سنة تقريباً في إدارة المعارف في منصب مساعد مدير المعارف أحاله هذا إلى مجلس طبي حكومي، وكان قرار المجلس أنه من الأفضل من الناحية الصحية لأحمد سامح أن

لا يصعد درجاً وأن لا يرهق نفسه في العمل بين مدير للكلية العربية ومساعد لمدير المعارف وأن يركن إلى حياة رتيبة. وكان لإدارة المعارف درج لا بد لأحمد سامح من ارتقائه للوصول إلى مكتبه. وهذا مع غيره كان السبب، بحسب التقرير الطبي، في أن أحمد سامح وجد نفسه مُقصى عن إدارة المعارف ومنحصراً في إدارة الكلية العربية. وكان المجلس الطبي الحكومي يراعي أحياناً رغبة رئيس الإدارة الحكومية من غير أن تخل هذه المراعاة إخلالاً فاضحاً بالعلم. وأذكر أن رفيق التميمي كان في أوائل الأربعينات مديراً للمدرسة العامرية في يافا، وكان النظام قد اختل في المدرسة بسبب الحالة السياسية في المدينة وعجز المدير وكان أطرشاً، عن ضبط النظام فكتب إلى مدير المعارف كتاباً رسمياً يطلب فيه الانتقال إلى الإدارة مفتشاً فنياً وإراحته من عمل مدير المدرسة لأنه أطرش. وبادر مدير المعارف إلى اتخاذ هذا الإقرار بالطرش ذريعة للتخلص من رفيق التميمي كليةً لأن الإدارة كانت تعتقد بأنه لا يصلح للتعليم ولا لإدارة المدرسة على الرغم من إدلاله على الإدارة بأنه خريج جامعة السوربون في باريس. وأحيل إلى المجلس الطبي فقرر المجلس أنه لا يصلح للعمل لأنه أطرش. فأحيل على المعاش.

ولم يقتصر مدير المعارف المستر فرل في ذلك العهد، على إخراج أحمد سامح من الإدارة العامة، بل إنه أخذ يتدخل في شؤون الكلية وكان له أعوانه على ذلك. ولما كانت الكلية العربية المصدر الأول الذي يؤخذ منه الطلاب للبعثات الحكومية إلى بريطانيا ومصر، فإن لمدير الكلية شأناً كبيراً في ذلك وكان يجب أن تكون له الكلمة العليا في اختيار الطلاب. لكن هذا لم يكن لأن مدير المعارف لم يقر بذلك وأصر على أن يكون له القول الفصل. وكنت أنا في ذلك الزمن مسؤولاً عن الامتحانات وعن أوضاع الطلاب في الكلية العربية ودار المعلمات ودار المعلمات الريفية ومدرسة الصناعة في حيفا ومدرسة الزراعة في طولكرم،

ثم صرت مسؤولاً فيما بعد عن اختبار البعثات العلمية لعموم حكومة فلسطين في منصب الأمين لمجلس البعثات الحكومية وسُمح لي بالتوقيع نيابة عن مدير المعارف. وأذكر على سبيل المثال تدخل مدير المعارف في اختيار الطلاب من الكلية العربية للبعثات العلمية، أنه دخل عليّ في صباح أحد الأيام وكانت غرفتي بلصق غرفته، وطلب إليّ أن أستعد للذهاب معه إلى الكلية العربية للبحث في اختيار الطلاب. وكان قد أعطاني أسماء الطلاب الذين اختارهم أحمد سامح وأسماء الطلاب الذين يرى هو أنهم أصلح للاختيار، وبين الأسماء من الطرفين اختلاف.وكانت الرئاسة في إدارة المعارف مؤلفة من: مدير المعارف ونائب المدير ومساعده ورئيس شؤون الموظفين ورئيس ديوان المالية ومفتش إداري ومساعد أو مساعدين للمفتش الإداري ومن رئيس المكتبة. هذا من الناحية الإدارية، ومن مفتشين فنيين للموضوعات المدرسية المختلفة كالعربية والإنكليزية والعلوم والتاريخ والجغرافيا والفنون والرياضة البدنية هذا من الناحية الفنية. وكان في الرئاسة مفتشون من اليهود تابعون أيضاً لإدارة المعارف في الوكالة اليهودية. وأذكر من أولئك المفتشين: بنتويتش ويشاعيا وبلوم وغويتاين وغيرهم. وكان يشاعيا من يهود فلسطين وصار عند احتلال اليهود للقدس في سنة ١٩٤٨ حاكماً عاماً لها، وبلوم من يهود الاسكندرية فأصبح بعد قيام دولة إسرائيل مديراً للمعارف العربية. أما غويتاين وهو من أصل ألماني فقد كان عالماً باللغة العربية، وأذكر أن أحد الموظفين العرب كان يتكلم عن كتاب «الفخري» وقال عن مؤلفه أنه ابن الطَقطقي (بالياء) وسمع غويتاين ذلك عرضاً فصححه قائلاً: هو ابن الطِقطقى (بالألف المقصورة). أما من الناحية العربية فقد كان مساعد مدير المعارف كما ذكرت سابقاً جبرائيل كاتول وهو من لبنان ورئيس شؤون الموظفين منسى حنوش وهو سرياني من فلسطين. وكان من المفتشين العرب: اسحاق موسى الحسيني ووصفي العنبتاوي وروبرت كفلكنتي وأحمد طوقان وحبيب

الخوري. وكان منصب المساعد الفني قد ألغي سابقاً واستعيض عنه بمنصب رئيس المفتشين وعين فيه أحمد طوقان في سنة ١٩٤٧.

كان اتصالي أكثر ما يكون بمدير المعارف ونائبه الإنكليزي ومساعده جبرائيل كاتول. وكنت أحرر المكاتبات الرسمية باللغة الإنكليزية في معظم الحالات، وكان عليّ ترجمة الوثائق المهمة والمراسلات مع الهيئات العمومية وبقيت مدة طويلة حتى نهاية الانتداب مشرفاً على امتحانات الموظفين في اللغة العربية. وكان هذا الإشراف مدعاة لوضع معجم يضم الأفعال العربية والأسماء والصفات التي تتردد في الكلام وفي الكتابة وقمت بتنظيم هذا المعجم ولكنه لم ينشر. ولعل لهذا المعجم الفضل في حفزي على وضع معجم انكليزي/عربي فتوفرت عليه وأتممته وحملته معي إلى لندن سنة ١٩٤٨ وكان النواة لمعجم «المنار» الذي صدر سنة ١٩٧٠.

نشاطات أخرى

كنت في أثناء ذلك أعمل يومين في ما بعد الظهر في مكتب الدعاية لمراقب المواد الغذائية وعملت في ذلك المكتب حتى سنة ١٩٤٥. وعملت سابقاً في سنة ١٩٣٩ في قسم الأخبار في إذاعة فلسطين. وهنا لا بد لي من ذكر نادرة مع أحد حراس الإذاعة يعرف بأبي جورج كنت أحب مداعبته. فكنت كلما رأيته أقول له: صلِ على الذي مخطمته ودع فيقول: أرجوك يا حسن أفندي لا أقدر. وفي أحد الأيام أفهمته أن الذي مخطمته ودع هو الجمل، ولكنه لم يقتنع وظل يمتعض للصلاة على الذي مخطمته ودع. والمخطمة هي من الرسن ما يحيط بالخطم وتكون عادة مرصعة بالودع.

كنت ذكرت أنني عملت منذ أواخر سنة ١٩٣٨ في مكتب المطبوعات مدة غير طويلة وكان المكتب في فندق الملك داوود بجانب مكتب الترجمة الحكومي. وكان

رئيس مكتب المطبوعات أوين تويدي ومن الموظفين محمد كمال وعلي الدجاني وكاشف مراد. وأما رئيس مكتب الترجمة الحكومي فكان إبراهيم كعيبني وفيه من الموظفين جلال زريق وعادل الترجمان وعبد الحميد ياسين ومحي الدين قطينة وغيرهم. ومن موظفات السكرتارية لحكومة فلسطين فتاة اسمها هيلدا عزام كان جلال زريق يهواها. ورأى يوماً على صدرها تمثالاً صغيراً لكلب فقال في ذلك أبياتاً منها:

ألا يا ربــة الكلب عوى في جانب القلب
إذا هَيجت لي حبي فما ذنبي فما ذنبي

وكنت في سنة ١٩٣٩ أرتاد نادياً في مبنى الملك داوود يسمى راديانس وقد اجتمعت فيه مرة مع أسمهان وزوجها الأمير الأطرش وفخري النشاشيبي. وفي إحدى الليالي أوصلني فخري النشاشيبي بسيارته إلى بيتي في القطمون، وتحدث معي بشأن المجلس الإسلامي الذي كان لا يبدي نشاطاً في سبيل تحسين وضع المسلمين بعد حوادث الخراب والقتل والتشريد التي أحدثتها الحرب الأهلية بين الفلسطينيين. وكان الشيخ كمال اسماعيل أحد أعضاء ذلك المجلس والذي يرجى منه أكثر الخير في هذا السبيل. فاقترح عليّ فخري النشاشيبي أن أجمعه بالشيخ كمال ففعلت وجرى الاجتماع في بيتي ولم أدر ما جرى من الحديث في ذلك الاجتماع، ولكن علمت أنه لم يأت بنتيجة. ثم قتل فخري في بغداد وكان القاتل فلسطينياً التجأ إلى رجل كويتي الأصل فحماه وأمده بالمال وبقي في بغداد واندس خبره.

وأذكر من بين الأصدقاء في ذلك الوقت عمر الصالح البرغوثي وصداقتي به من أوائل سنة ١٩٣٠. كنت أجتمع به في مكتبه للمحاماة مع عدد من الشبان العرب وأرافقه أحياناً إلى بيته. وأذكر مرة أنني رأيت عنده كتاباً بالإنكليزية

عن القانون الدولي ومؤلفه لورانس، فطلبت أن أستعيره منه فرفض وقال: في بيته يؤتى الحكم، أي أن الكتاب يستعمل في المكتب وليس خارجه. فقررت أن آخذ الكتاب ولو بالسرقة، وكنت أظن أن السرقة في هذا الباب حلال. فذهبت إلى المكتب وقرأت في الكتاب ثم حملته وودعت عمر الصالح وخرجت. وبعد أيام افتقد عمر الصالح الكتاب ولما رآني سألني عنه فقلت له: هل رأيت معي كتاباً لما خرجت من المكتب آخر مرة؟ فقال: لا، فقلت كيف تتهمني بسرقة الكتاب؟ فاعتذر، ثم بعد أيام أعدت الكتاب في غيابه. وأنا أورد هذه القصة برهاناً على صحة قول القائل: من شدة الظهور الخفاء. وفي هذا حكاية سمعتها من والدي. وهي أن رجلاً دخل الجامع للصلاة، فخلع عباءته وكانت من الخز الثمين وعلقها على مسمار عند مكان الوضوء وقعد يتوضأ. فرأى العباءة رجل آخر فأخذها ولفها على رأسه كالعمامة وقعد بجانب صاحب العمامة يتوضأ. وعندما انتهى هذا الأخير من الوضوء قام إلى عباءته فلم يجدها فأخذ يسأل المتوضئين فلم ير أحد منهم العباءة ولو أنها كانت تحيط برأس الرجل الذي سرقها.

وكان من بين الأصدقاء الذي كنت أزوره في بيته منذ سنة ١٩٣٥ فؤاد محي الدين النشاشيبي. وكنت أواصل زياراتي له في المساء مع طلعت السيفي. وكان له ثلاثة أبناء: هشام وناصر الدين وعصام، وكنت أُعلِم منهم هشاماً وناصر الدين في الرشيدية. وفي ذلك الزمن الذي اشتدت فيه الخصومة، ظل فؤاد على الحياد. وكانت زوجته أخت إسعاف النشاشيبي الأديب المعروف، وهذا أيضاً ظل على الحياد مما كان يغضب أقطاب المعارضة. وأذكر أن فخري النشاشيبي وحسين فخري الخالدي أخذا إسعافاً في سيارة إلى بيته في حي الشيخ جراح في القدس في أحد الليالي وضرباه وخرجا.

وعرفت إسعاف النشاشيبي أول مرة في زيارة مني له قبيل امتحان البكالوريس الفلسطيني، وكان هو أحد الممتحنين، فأردت أن أفهم منه شيئاً عن طبيعة الامتحان في اللغة العربية، وكان يرافقني طالب آخر هو أنطون عبد المسيح. فشرح إسعاف مواد الامتحان ثم عرج على ذكر ما كان هو يستعد له، وذكر أنه يجمع من مآثر العرب الأدبية كتاباً سمّاه «الأمّة العربية». وكانت له مكتبة عامرة ضاعت في أثناء المناوشات بين العرب واليهود سنة ١٩٤٨.

ومن ذكريات سنة ١٩٣٩ وما بعدها أن إدارة المعارف أنشأت مدرسة للطلاب من أبناء موظفي الإنكليز الذين انقطعوا عن الدراسة وبقوا في فلسطين بسبب الحرب. واضطلع فارل بتأسيس تلك المدرسة، واختارني أن أكون معلماً للرياضيات فيها. وكانت المدرسة بجوار منزل المستر فارل، فكنت أزوره بقصد البحث معه في موضوعات لغوية إنكليزية. فكنت مثلاً أكتب مقالة في اللغة الإنكليزية وأقرأها عليه وهو يصحح الأغلاط أو ينصح ببعض العبارات. وأذكر أن المستر فارل قال ذات يوم أن أحدهم ألف كتاباً بعنوان: إت تو سيجانوس، وسألني إذا كان في العنوان غلطة لغوية، والعنوان كما لا يخفى في اللغة اللاتينية. وترددت في الجواب إلا أنني تذكرت مقولة شكسبير عن بروتس: إت تو بروتيه، فقلت إن عنوان الكتاب يجب أن يكون: إت تو سيجانيه. وكنت أقرأ معه «الإلياذة»، فأقرأ أنا ترجمة البستاني لها إلى العربية وأترجمها له بالإنكليزية، وكان هو ينظر في الأصل اليوناني. وكان المستر فارل يعرف المنطق واللغة العربية ويعرف الشعر وأوزانه. وأذكر أنه اقترح أن يزاد على أوزان الشعر العربية بحر جديد أخذه هو من اليونانية القديمة، وعرضت الوزن على أخي أبي سلمى فوضع أبياتاً على ذلك الوزن. وقد ضاع مني ذلك الوزن ولم أعد أذكره. وأذكر عنه أيضاً أنه قرأ المعري عن طريق كتاب نيكلسون وقد أعارني ذلك الكتاب مرة لأقرأه.

ومع اهتمام المستر فارل ببعض نواحي التراث العربي فقد كان يرى أن المدنية العربية اعترضت سبيل المدنية العالمية وشقته وافترق الشقان. وكان يجب أن تعود المياه إلى مجاريها من المدنية اليونانية إلى المدنية الرومانية ثم إلى المدنية الأوربية. وكأنه كان يرى أن المدنية العربية دخيلة وأنه يجب الآن وصل ما انفصل. وبدأ هو بتطبيق الفكرة بإدخال شيء من الأدب اليوناني القديم، وكلف السيدة عنبرة سلام زوجة أحمد سامح الخالدي بترجمة شيء من الإلياذة إلى العربية، وطبعت الترجمة وأُدخلت دراستها في المدرسة الرشيدية مرة في الأسبوع على حساب اللغة العربية.

وكان طه حسين يوافق المستر فارل على ذلك الرأي، وأذكر أنه زار فلسطين وزار إدارة المعارف واجتمع بالمستر فارل ودار الحديث بينهما على ذلك الموضوع وتوافقا عليه.

كانت علاقتي منذ سنة ١٩٣٩ إلى ١٩٤٦ في إدارة المعارف مع جبرائيل كاتول ومدير المعارف المستر فارل وبنائبه هوغبن. وكانت قد انقطعت علاقتي مع أحمد سامح الخالدي بعد انقطاعه هو عن الإدارة العامة. وشرع المستر فارل في ذلك الوقت يعد العدة لإقصاء نائبه هوغبن وتعيين المستر أتنبره في مكانه. وكان هذا في ذلك الوقت مديراً للمعارف في عدن بعد أن ترك فلسطين. فكان المستر فارل أحياناً يستعين بي على إظهار جهل نائبه هوغبن. من ذلك مثلاً أنه طلب إليه أن يعد تقريراً عن مدرسة صناعية يراد إنشاؤها في حلحول من قرى الخليل. وقدم المستر هوغبن التقرير وقرأه المستر فارل وأخذ يجد فيه مطاعن، ودعاني إلى غرفة نائبه وكانا يناقشان ذلك التقرير، وسألني: ما هو الموضوع الذي يدل على ذكاء الطالب أكثر من غيره بصورة عامه؟ فقلت: المعروف عموماً هو اللغة اللاتينية أو الإنكليزية. ويظهر أن المستر هوغبن قد قال غير

ذلك. ثم سألني: هل الطالب الصناعي يكون من منحطي الذكاء؟ فقلت: لا، لأن الطالب الصناعي يجب أن يكون ذكياً إلى حد ما. ويظهر أن المستر هوغبن كان قد غلط في ذلك. ومن الأشياء الأخرى التي أذكرها أيضاً أنني لما سافرت في بعثة للمجلس البريطاني إلى إنكلترا سنة ١٩٤٥، وزعت أعمالي على غيري من الموظفين ومنهم وصفي العنبتاوي وكان نصيبه إعانات المدارس الأهلية. وفي يوم من الأيام وأنا في لندن ورد عليّ كتاب رسمي باللغة العربية بتوقيع نائب مدير المعارف المستر هوغبن، يسألني عن بعض الإضبارات ويوجه إليّ شيئاً من اللوم لعدم تسليم تلك الإضبارات إلى الموظف المسؤول قبل مغادرتي إلى بريطانيا. تعجبت من ذلك الكتاب وأحسست بأن القصد منه إلصاق تهمة التقصير في الوظيفة فغاظني ذلك. فكتبت الجواب إلى مدير المعارف بقالب رسمي باللغة الإنكليزية وقلت في آخره ما معناه إن الذي وقّع ذلك الكتاب لم يدقق في النص لأن فيه أغلاطاً، وكان الموقّع على الكتاب هو المستر هوغبن وهو لا يعرف اللغة العربية. فحل غضب المستر هوغبن على وصفي العنبتاوي وحل غضب مدير المعارف على نائبه وحل غضب وصفي العنبتاوي عليّ، ودامت القطيعة بيني وبينه أكثر من سنة بعد رجوعي من بريطانيا سنة ١٩٤٦، ثم تصافينا. وكان كتابي سلاحاً بيد المستر فارل ضد نائبه. وظل المستر هوغبن ينتظر لي عثرة، وأذكر أنني كتبت مسودة لكتاب كان سيرسل إلى السكرتارية لحكومة فلسطين بالإنكليزية وسها عن بالي في ذلك الكتاب ذكر شيء ليس بذي شأن في الحقيقة. وقرأ المستر هوغبن المسودة ثم استدعاني وخاطبني مجابهة بقوله: لقد اقترفت جرماً لا يغتفر. وسألت عن الأمر فأخبرني فاعتذرت وآثرت المسالمة.

الفصل الخامس

ما بعد الحرب العالمية الثانية

انتهت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥. وفي الخريف سافرت إلى بريطانيا على حساب المجلس البريطاني لدراسة علم الإحصاء في التعليم ولدراسة نظام إدارات المعارف في إنكلترا وويلز واسكتلندة. وكان سفري مع طلاب البعثات لحكومة فلسطين، وكنت المسؤول عنهم عرباً ويهوداً بوصفي سكرتير مجلس البعثات للحكومة. وكان السفر من حيفا على باخرة للجنود، ودامت الرحلة ١٦ يوماً ذقنا فيها الأمرين، ونزلنا في ميناء لفربول ثم أخذنا القطار إلى لندن. وهناك واجهتنا صعوبة إيجاد المسكن، وأخيراً استقررت أنا في مسكن مع نعيم القسوس مؤقتاً في حي يُقال له ساسكس غاردنز. ولم أكن أعلم أن الحي كان خاصاً بالمومسات في ذلك الزمن، إلا أن الضرورة هي التي أحوجت إلى ذلك. وعملت مدة شهر أو شهرين في دائرة من دوائر الحكومة البريطانية في حي بال مال، وأتممت مهمتي في إيجاد مساكن لطلاب البعثات وأماكن لهم في الجامعات البريطانية. ثم دخلت كلية يونيفيرستي كولدج التابعة لجامعة لندن وبدأت دراسة علم الإحصاء. وكان الأستاذ في تلك السنة لذلك الموضوع الأستاذ بيرسون ابن الإحصائي المشهور بيرسون. قضيت ستة أشهر في تلك الكلية ثم بدأت العمل في إدارات المعارف في المجالس المحلية في بريطانيا. وأذكر أنني عملت مدة في إدارة للمعارف في بلدة تراوبريدج وتعرفت وأنا هناك بمفتش للمعارف هو المستر دي بنسن، وهو الذي أصبح مديراً للمعارف في حكومة فلسطين خلفاً للمستر فارل. تنقلت من إدارة إلى إدارة، وذهبت إلى مقاطعة وستمورلاند والتحقت بإدارة المعارف في مدينة

كندال وكان مدير المعارف هناك المستر ترفليان ابن أخ المؤرخ البريطاني المشهور. واجتمعت به وذكر لي أنهم عرضوا عليه أن يكون مديراً للمعارف في حكومة فلسطين لكنه رفض لأن زوجته لديها مرض يمنعها من البقاء في بلد حار. وعبثاً حاولت إقناعه أن مناخ فلسطين معتدل وليس حاراً لكنه ظل مصراً على رفضه.

في مدينة إدنبرة في اسكتلندا سكنت غرفة بالقرب من القلعة وكنت أزور معهداً للتعليم كان مشهوراً، وفي أيام البطالة كنت أطوف حول القصر الملكي هولي روود. وفي أحد أيام الآحاد دعتني صاحبة الغرفة التي كنت أستأجرها إلى الخروج إلى الحديقة للتنزه، فصعدت في صحوة النهار وكان الطقس دفيئاً فوجدت نفسي بين أعداد من النساء في درجات مختلفة من العراء، فخجلت وخشيت أن أكون متجاوزاً فعدت إلى غرفتي وأخبرت السيدة صاحبة المنزل بما وجدت، فقالت: ألا تعلم أنك ساكن في مستشفى للتوليد وأن النساء اللواتي رأيتهن هن من نزيلات ذلك المستشفى؟ ويظهر أن المجلس البريطاني الذي دبر أمر السكن لم يجد لي غرفة إلا في ذلك المكان. وأخبرتني صاحبة المنزل أن لا أشعر بخجل، فجرؤت وصرت أتجول في الحديقة والنساء منطرحات على العشب في تلك الحالات. وبعد زيارتي لمدينة كيركلدي في شمال اسكتلندة حيث كان أحد الأساتذة يطبق نظاماً للتعليم، تجولت في بعض المدارس قرب بحيرة لوخ لومند وعدت بعدها إلى لندن.

كان الأمير عبد الله أمير شرقي الأردن في صيف سنة ١٩٤٦ قد وصل إلى لندن لمفاوضات بشأن الوضع في شرقي الأردن، ومعه رئيس وزرائه إبراهيم هاشم والسكرتير الخاص بهاء الدين طوقان. وكان الأمير ينزل دائماً في فندق

هايد بارك كورنر، فزرت الفندق للسلام على سمو الأمير. وأذكر أنني جلست معه ما يقرب من عشر دقائق وعرفني لما قلت له إنني ابن الشيخ سعيد الكرمي. وأذكر أنه في حديثه معي سألني ما هو الحق؟ ثم بدأ يشرح ما هو الحق، وبعدها بدأ يشمر عن ساعديه وقال إنه يريد الوضوء للصلاة، فاستأذنت وذهبت.

واستمرت المفاوضات بين الحكومة البريطانية والأمير عبد الله، وعندما زرت إبراهيم هاشم بعد أيام سألته عن المعاهدة الجديدة قال: الند للند، وضم سبابة اليد اليمنى إلى سبابة اليد اليسرى دلالة على أن المعاهدة كانت بين طرفين متكافئين، ولكني أردت مزيداً من الشرح فسألته: والجيش؟ فقال: الجيش مشترك القيادة. ثم سألته: والمالية؟ فقال: الحكومة البريطانية تعطينا إعانة. ثم سألته: والخارجية؟ فقال: في السياسة الخارجية نحن مع بريطانيا. فقلت له: وأين الند للند؟ فقال: وهل نحن زارعوها نخلاً؟ أي إن الأمور تقرر بحسب الواقع الحاضر دون انتظار طويل لما يتمخض عنه المستقبل. وكنت أرافق إبراهيم هاشم في بعض الجولات في لندن، وأخذته مرة إلى مطعم تركي ليأكل كباباً، ولكنه لم يستطب الكباب هناك. وأخذته مرة إلى السينما وكان يلبس الطربوش فكان محط أنظار الجميع.

ومن الذكريات في صيف ١٩٤٦ أنني سكنت في فندق تجاه حديقة هايد بارك، وفي إحدى الساعات تذكرت صديقة عرفتها سنة ١٩٣٧ و١٩٣٨ وعنوانها في بلدتها كان معي، فحدثتني نفسي أن أكتب إليها وأستدعيها إلى لندن. وفعلاً كتبت إليها في الحال وانتظرت الجواب، ومضى عليّ في الانتظار ما يقرب من الشهر وأزف موعد العودة إلى فلسطين، فتركت عنواني في الفندق وأخذت طائرة عسكرية كانت تقل جنرالين وعدد الركاب سبعة. ولما أقلعت الطائرة وصرنا فوق المضيق الإنكليزي والوقت ليلاً جاءنا قائد الطائرة وقال إن أحد المحركين في الطائرة تعرض لخلل ولا بد من العودة. فعدنا وكلنا في خوف شديد، ونزلنا في أحد المطارات وانتظرنا حتى منتصف الليل فجاءت طائرة

أخرى وحملتنا إلى اللد في فلسطين. وبعد أيام من وصولي إلى القدس وصل كتاب من الصديقة تقول فيه إنها كانت غائبة عن بلدتها ولما عادت ووجدت كتابي، أسرعت مع ولديها إلى لندن ولكنها وجدت الأرض قفراء. وكان ذلك آخر العهد بها.

آخر الأيام في القدس

عدت إلى إدارة المعارف في صيف ١٩٤٦ ولم يكن أحد يظن أن بريطانيا ستترك فلسطين، فكان العرب في وجه الغطرسة اليهودية يحبذون بقاء الانتداب البريطاني لأنه لم يكن لهم من حام سواه. وكنت أنا مطمئناً إلى مستقبلي في إدارة المعارف بعد أن أصبحت مفتشاً إدارياً، وكان المستر فارل قبل اعتزاله العمل في إدارة المعارف قد ذكر لي أنه يعمل على بناء مستقبل جيد لي، وقال: ولكن إذا هبت الرياح على غير المراد فلا يحسن بي أن أقدح به بعد موته. كان ذلك في أواخر سنة ١٩٤٦،

وفي أوائل سنة ١٩٤٧ في يوم من الأيام زارني السيد عبد الحميد شومان، رئيس البنك العربي، ومعه سكرتير البنك صديقي محمد عبد السلام البرغوثي، وعرض عليّ مديرية بنك عمّان العربي، وكان ذلك الفرع أول فرع وأهم فرع له بعد الفرع الرئيسي في القدس. فشكرته على زيارته وعرضه، ووعدت بأن أنظر في العرض باهتمام وتقدير. وضعني هذا العرض في مأزق حرج، وما كان من السهل عليّ القطع في قبوله أو رفضه فلجأت إلى المطاولة. وكان الراتب الشهري الذي عرض عليّ تسعين جنيهاً في وقت كان راتبي في إدارة المعارف سبعين جنيهاً أي بفارق عشرين جنيهاً، في مقابل هذا كنت سأضحي بمستقبلي في إدارة المعارف وبمستقبل أولادي الذين كنت أطمح بإرسالهم إلى الجامعات البريطانية على حساب الحكومة، كما سأضحي براتب التقاعد. فطلبت من رئيس البنك العربي زيادة الراتب إلى خمسة وتسعين أي بزيادة خمس جنيهات في الشهر فرفض ذلك. وفيما كان الأمر بين الأخذ والرد، ذهبت إلى مدير

المعارف المستر دي بنسن وسألته رأيه فدعاني إلى الغداء في بيته، ولما شرحت له الوضع قال لي بما معناه: تكون قد جننت لو أنك تركت إدارة المعارف، لأنك ستكون خلفاً لجبرائيل كاتول مساعداً لمدير المعارف. بعد هذا الكلام رأيت أن الأفضل البقاء في إدارة المعارف، وهكذا كان. ثم بعد أشهر معدودات تبين أن الحكومة البريطانية كانت تفكر في إنهاء الانتداب، واتضح ذلك في آخر سنة ١٩٤٧. وهكذا فقد كان شأني شأن من أسلم في الليل فلا المسلمون قبلوه ورفضته النصارى.

بعد عودتي من بريطانيا وجدت أن الأحوال في فلسطين قد عادت إلى الاضطراب وأكثر ذلك من أعمال الإرهاب اليهودية. وانتقل الصراع من صراع بين الفلسطينيين إلى صراع بين اليهود والعرب. ولم يكن اليهود يأبهون بالعرب من ناحية عسكرية، لأنه كان لديهم جيش مدرب تدريباً جيداً، كما كان لديهم منظمات إرهابية مدربة، مثل منظمة إرغون وشتيرن، ولم يكن عند العرب من ذلك شيء. وكان اليهود في سنة ١٩٤٦ وما بعدها يرون أن الحين قد حان لهم لتأسيس دولة لهم، وأن عليهم أولاً إخراج البريطانيين من فلسطين. إلى هذا الهدف وجهوا جهودهم ونجحوا في آخر الأمر وتم لهم ما كانوا يصبون إليه وهو تأسيس دولتهم اليهودية، وتم ذلك فعلاً في ربيع ١٩٤٨.

كانت المنظمات الدفاعية العربية متفرقة ليس لها قيادة عامة واهتمت بأعمال قتالية صغيرة ضد اليهود دون أن يكون لها تدريب على ذلك، فتفوق اليهود عليهم في هذا الميدان. وقام سكان الأحياء العربية المتاخمة للأحياء اليهودية بتأسيس فرق للدفاع، وكان الأهلون يدفعون رواتب هذه الفرق، ولم يكن لرجال هذه الفرق تدريب على السلاح ولا على القتال أو الجندية. وقد نظمت في حي القطمون الذي كنت أسكنه فرقة من الحرس لحماية المنازل والأهلين من هجمات اليهود الإرهابية. لكن رجال هذه الفرقة عمدوا إلى أعمال ضد بعض اليهود الذين كانوا يسكنون مع العرب، فقتلوا منهم عدداً وهرب الباقون

مما أثار حنق الإرهابيين من اليهود، فأخذوا يجوسون طرق القطمون بحثاً عن رجال الحرس العرب وقتلوا منهم البعض. ولم يكن رجال الحرس العرب يجرؤون على مضاهاة ذلك بل إنهم كانوا يفرون من وجه اليهود ويختبئون وراء الجدران. ونزح معظم سكان القطمون وأخليت المنازل ولا سيما بعد أن نسف اليهود فندق سميراميس في الحي، وكان هذا لا يبعد أكثر من مائتي متر عن منزلي. ولم يبق في الشارع الذي أسكنه أنا وزوجتي وأولادي سوى رجل وامرأته على بعد أمتار منا. وكثيراً ما كنا ننزل من أسرّتنا لننام على الأرض خوفاً من العيارات النارية التي كانت تتطاير حولنا. والسبب في تأخرنا في القطمون هو أننا كنا ننتظر انتهاء ابنتي سهام من امتحان المتركيوليشن الفلسطيني، وكانت تؤديه في بناء قرب المدرسة الرشيدية أعد لهذا الغرض، فكانت تنام هناك مدة الامتحان. وفي آخر يوم من أيام الامتحان في أوائل أيام نيسان من سنة ١٩٤٨ استقلينا سيارة وأخذنا من بيتنا ما خفّ حمله وتركنا البيت في رعاية امرأة من قرية المالحة كانت تعمل لدينا، وذهبنا إلى عمّان. وهناك استقبلنا سعد جمعة في مكتبه وأمّن لنا سيارة تأخذنا إلى الشام. وكان سعد جمعة مراسلاً لوكالة الأنباء العربية ومحمود الخيمي مدير الوكالة في القدس من أصدقائي. ولم يسمح لنا بمغادرة القدس إلا بإذن من اللجنة القومية، وكان مقرها عند باب العمود في المدينة القديمة. وقد ذهبت بنفسي وأبديت لهم أنني إنما أريد إبعاد زوجتي وأولادي عن الخطر فآخذهم إلى الشام ثم أعود، فقبلوا بذلك وأعطوني إذناً بالمغادرة.

اللجوء إلى سوريا

ذهبت إلى دمشق مع زوجتي وأولادي بإذن من مدير المعارف ولم يكن معي من المال سوى ثلاثمائة جنيه، فطفقت أبحث عن عمل. واتفق أن كان وزير المعارف في ذلك الزمن صديقاً، فذهبت إليه بصحبة صديقي رياض الميداني فوعد خيراً، حتى إنه قال إن الغرفة حاضرة ولكن هذا كان كلاماً، وبقي الأمر مقصوراً على الوعد فقط فيئست من المماطلة. ونصحني رياض الميداني أن

أنشئ مدرسة لتعليم الإنكليزية وكان اقتراحاً صائباً. وكنت بعد إيصال أولادي إلى دمشق عدت أنا وزوجتي إلى عمّان قاصدين القدس أملاً في أن يكون حي القطمون لا يزال في أيدي العرب ولا يزال بيتي هناك كما هو تحفظه لنا فاطمة، المرأة من قرية المالحة، ولكن الأمل في كل ذلك ضاع. وفي عمّان علمت أن حي القطمون قد سقط في أيدي اليهود وأن فاطمة التي كانت تحرس لنا البيت لم تتمكن من الوصول إليه فتركته وأخذه من أخذه بمحتوياته ومخزوناته وكتبه. وأذكر أن ابنتي سهام كان لها معطف شتوي معلق وراء الباب، وهمّت زوجتي بأخذه فقلت لها: اتركيه فالطقس دافئ وسنعود.

كان معي بعد أن يئست من العودة إلى القدس، كتاب من الإذاعة البريطانية يعرضون عليّ العمل في القسم العربي، وقد جاءني هذا العرض في أواخر سنة ١٩٤٧ وترددت في قبوله ولكنني لم أرفضه. والعرض الآخر هو العمل في الأردن مع أحمد طوقان ومصطفى الدباغ بعد أن انسد في وجهي باب العمل في دمشق. ولم تطاوعني نفسي على العمل في الأردن لأنني كنت أريد الطمأنينة على نفسي وعلى أولادي بعد الذي قاسيته في القدس من العرب أولاً ومن اليهود ثانياً نتيجة الأعمال الإرهابية. فعقدت مؤتمراً من عائلة زوجتي وأصدقائي وأخي أبي سلمى الذي كان في دمشق، وكان القرار أن أذهب إلى لندن لسنة واحدة لاختبار الوضع قبل نقل العائلة إذا قررت البقاء في لندن. لكن عمي صالح الرفاعي، والد زوجتي كان يعارض في السفر إلى لندن خوفاً على أولادي من الضياع لغة وديناً. مع ذلك كتبت إلى الإذاعة البريطانية بقبول العرض، وجاء الرد بالقبول على أن أجتاز امتحاناً في الترجمة والصوت من القاهرة. وهكذا استقليت الطائرة المصرية إلى القاهرة وكانت صغيرة لم يتجاوز عدد ركابها السبعة، وكان بينهم فتاة أجنبية جميلة، انشغل قائد الطائرة ومساعده بها. وانتابني الخوف على الطائرة وبالتالي على نفسي، ولعل هذا هو أساس الخوف الذي لا يزال يلازمني من ركوب الطائرة. نجحت في الامتحان وبقيت في القاهرة ما يقرب من الشهر، وعند عودتي إلى دمشق في الطائرة المصرية تعرضنا

لمطبات هوائية فوق شمال فلسطين، فعاد الخوف إليّ ورأيت مطران الروم الأرثودكس، وكان أحد الركاب قد أخرج الكتاب المقدس وشرع يقرأ فيه، ولم يكن لدي نسخة من القرآن الكريم لأقرأ فيها فعمدت إلى قراءة آية الكرسي. ولشدة خوفي نسيتها ولم أذكر منها إلا ﴿اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، فبقيت أكرر ذلك إلى أن وصلنا مطار المزة في دمشق. بقيت في دمشق إلى آخر شهر تموز من عام ١٩٤٨ عندما توجهت إلى لندن للالتحاق بالإذاعة البريطانية.

الفصل السادس

الإذاعة البريطانية والحياة في لندن

كان عملي مراقباً للغة ومسؤولاً عن صحتها ترجمةً وصرفاً ونحواً وإلقاءً، وهو عمل شاق في ذاته وشاق لأن المراقب لا يرضي أحداً ولا يرضى عنه أحد وأعداؤه أكثر من أصدقائه. ووجدت أن الرؤساء كلهم من الإنكليز حتى إنه كان لي رئيس إنكليزي في مراقبة اللغة وكان هو المرجع النهائي، وكانت صلتي بالإدارة العامة عن طريقه أي أنني كنت تابعاً له. ولم أجد حرجاً في أن يكون الرؤساء من الإنكليز، ولكن أن يكون مراقب اللغة العربية مرؤوساً من إنكليزي هو أمر فيه غرابة. ووجدت أن الموظفين من مذيعين ومترجمين كانوا في أكثريتهم من المصريين ما عدا ثلاثة من الفلسطينيين، هم عيسى خليل صباغ وإبراهيم رزق وفؤاد حداد. ثم انضم إلى القسم العربي عدد آخر من الفلسطينيين من خريجي الجامعات البريطانية وعلى رأسهم عبد الرحمن بشناق وعبد اللطيف الطيباوي ووليد عرفات وأنيس القاسم وأمين الطيبي. وأخذ عدد الفلسطينيين يزداد شيئاً فشيئاً حتى صاروا الأكثرية، فدب الفساد في القسم العربي وصار المصري يناوئ الفلسطيني بالإضافة إلى أن الفلسطيني كان يناوئ الفلسطيني. وتعقدت الأمور وصار العمل صعباً، ووجدت أن أكثر ما تأذيت منه كان بفعل الموظفين الفلسطينيين. ولم أكن قد أسأت وأنا في فلسطين إلى أحد منهم، وكانوا يعلمون أنني كنت في إدارة المعارف في فلسطين مفتشاً إدارياً وكانوا هم معلمين. ولكن ضياع فلسطين بالغزو الصهيوني وفقدان العرب لكل

ما لديهم من أرض ومال ومستقبل أثر فيهم، وعزَّت عليهم لقمة العيش فلا محل للإنصاف ولا حرمة لصداقة أو معرفة. وزاد الطين بلة أن المصريين اعتصبوا ضد الفلسطينيين بمن فيهم أنا، وكانوا يحاولون زعزعة ثقة الإنكليز بالفلسطينيين. من ذلك مثلاً مجلة «المستمع العربي» كانت بيد المصريين خالصة لهم تحت رئاسة محرر إنكليزي اسمه راسل، ومن المساعدين له رسام اسمه علي نور وهو مَنْ كان يرسم الصور الهزلية في المجلة. وتعين للمستر راسل الشاب الفلسطيني عبد اللطيف الطيباوي مما أثار سخط المصريين فتنكروا له وناوأوه، وتألبوا على إظهار عيوبه في الكتابة، وأخذوا يلتقطون غلطاته وينظمون فيها قوائم يرفعونها إلى المستر راسل وهذا بدوره يرفعها إلى رئيس القسم العربي، ولم يكن الإثنان من المعرفة باللغة العربية بحيث يستطيع أحد منهما أن يفصل في الأمر، ولم يشأ رئيس القسم أن يحيل الأمر إليّ فأحكم لعبد اللطيف الطيباوي. وظل الحال على تلك الصورة سنة، وكتب في أحد أعداد «المستمع العربي» مقالة افتتاحية عن الفنان، وقال إن الفنان في اللغة العربية هو الحمار وقال أشياء أخرى بهذا المعنى. وكان علي نور معروفاً بأنه فنان «المستمع العربي»، وعندما قرأ المقالة الافتتاحية جنَّ جنونه وألب جماعته على عبد اللطيف الطيباوي. واشتدت النقمة على عبد اللطيف الطيباوي فوق ذلك بسبب تقرير رفعه إلى رئيس القسم العربي يطلب فيه أن يكون المسؤول الأول في مجلة «المستمع العربي» بدلاً من المستر راسل لأن هذا لا يعرف اللغة العربية. فانتقل الصراع من الساحة المصرية الفلسطينية إلى ما بين المستر راسل وعبد اللطيف الطيباوي. وعندما اجتمعت برئيس القسم العربي وكان المستر ووترفيلد، سألني عن عبد اللطيف الطيباوي وعن مقدرته باللغة العربية والأدب، فقلت عنه خيراً وقال هو إن الأمر أصبح في حاجة ماسة

إلى حل، فأما أن يذهب المستر راسل ويبقى عبد اللطيف وإما أن يبقى المستر راسل ويذهب عبد اللطيف. ولا بد أنه في رأيي، كان قد قطع في القضية ورفع رأيه هذا إلى أصحاب الشأن، ولم أدر ماذا كان رأيه، ولعل رأيي في عبد اللطيف لم يؤخذ به أو أن رأيي رفع إلى المراجع العليا على غير حقيقته بسبب شيء من سوء الفهم. وبعد أيام ظهر أن القرار كان إنهاء عمل عبد اللطيف الطيباوي في الإذاعة وإبقاء المستر راسل. والغريب في الأمر أن عبد اللطيف عزا أمر إنهاء عمله إليّ، فتنكر لي وأخذ يهاجمني في كل محفل وفي كل مناسبة، حتى إنه شكا مني مر الشكوى إلى رئيس المركز الثقافي الإسلامي الشيخ غرابة. فكلمني الشيخ في ذلك فأنكرت أن أكون أنا السبب في إنهاء عمله في الإذاعة، فاقترح الشيخ عقد اجتماع في المركز بيني وبين عبد اللطيف لتصفية الجو فقبلت وجئت إلى المركز لكن عبد اللطيف لم يأت بل اتصل قبل الموعد بخمس دقائق واعتذر عن المجيء. ويظهر أن الشيخ غرابة استنتج من ذلك أن عبد اللطيف كان متجنياً. ولم ينفك عبد اللطيف عن حملته، فعندما عين المستر راسل رئيساً لتحرير مجلة الجمعية الأسيوية وطلب إليّ أن أراجع بعض الكتب عن الإسلام، وأخذت أنشر مراجعاتي في المجلة، شرع عبد اللطيف يكتب إلى المجلة ينتقد مراجعاتي بحجة أنني لست من المؤرخين المختصين ولا من رجال الدين الإسلامي. وبعد أن نشرت قاموسي الإنكليزي عربي «المنار» طلب من رئيس المركز الثقافي الإسلامي في ذلك الوقت، الراجا محمود آباد أن يسمح له بمراجعته في مجلة المركز فرفض محمود آباد. والسبب أن عبد اللطيف كان قد اجتمع بمحمود آباد في السابق وجعل همه في الاجتماع التشنيع علي، وفهم محمود آباد من شدة اللهجة التي كان عبد اللطيف يتكلم بها ضدي أنه كان متجنياً لغرض في نفسه. وأدرك أيضاً من اجتماعاتي به أنني غير ما يقوله

عبد اللطيف عني، وتوطدت الصداقة بيننا. لذلك عندما طلب عبد اللطيف مراجعة قاموسي «المنار»، رفض محمود آباد ورفض أن يراجعه أحد. واتفق أن عبد اللطيف نشر كتيباً عن القدس وتاريخها العربي والإسلامي، ونشرت أنا بعد ذلك بتكليف من مجلس الكنائس المسيحية، كتيباً عن قدسية فلسطين بالنسبة للمسلمين، ادعى عبد اللطيف أنني سرقت معلوماتي عن كتيبه عن القدس. وعندما أخبر محمود آباد بذلك، طلب هذا من الموظف المسؤول عن مجلة المركز الثقافي الإسلامي أن يحقق في ذلك، ففحص الموظف الكتيبين وقال إنه لا صحة لما يدعيه عبد اللطيف.

في عملي مراقباً للغة أول شيء حاولته هو توحيد المصطلحات، ثم جعل المترجم يشعر بالكلمة كوحدة قائمة بذاتها أولاً ثم بها بالنسبة إلى غيرها ثانياً. فكنت أنظم الجداول بالمصطلحات وأوزعها على المترجمين وأملي أن تكون الإذاعة الإمام في وضع المصطلحات يقتدي بها كل مترجم وكل إذاعة عربية. وكان هذا يتطلب تعاوناً من المسؤولين الإنكليز والمترجمين، وتعاون المترجمين يأتي إذا كانوا مدركين لأهمية الأمر وقادرين على الاضطلاع به، مع إتقان اللغتين الإنكليزية والعربية وتميزهم بسعة المعلومات العمومية. وهذا لم يكن متوافراً بكامله، ولذا أصبح مصدراً للخلافات والمناقشات. كما أن عدم استعداد المترجمين للتقيُّد بالإرشادات في كل وقت كان عائقاً يحول دون التوصل إلى الغاية المتوخاة. وأذكر أن أسماء الأشهر المتداولة في الإذاعة كانت تلك المستعملة في مصر مثل يناير فبراير إلخ... فأدخلت الأسماء العربية المتداولة في شمالي الجزيرة العربية وقرنتها بتلك فصار المذيع يقول مثلاً: كانون الثاني/ يناير، وشباط/فبراير، وهكذا. ولا تزال هذه الطريقة متبعة حتى الآن، وقد جرت عليها الإذاعات الأخرى الناطقة باللغة العربية.

وكانت سور القرآن تكتب بتهجئة إنكليزية فوضعت جدولاً بها في اللغة العربية حتى لايقع المذيع بالخطأ عند ذكر السورة كما حدث سابقاً لمذيع كان يقدم سورة المائدة فقال سورة المعدة.

وسعة المعلومات عند المترجم كانت ضرورية، وأذكر أن مؤتمراً كنسياً عالمياً عقد في القسطنطينية في الخمسينات واسمه بالعربية المجمع المسكوني. وجاء خبر عنه في نشرة الأخبار، ولم يعرف مترجم الأخبار ترجمة الاسم من الإنكليزية فأخبرته، وظن أن ذلك من وضعي فتردد في الامتثال لما أقوله، ولكنني أنذرته بأنني أنا المسؤول والغلط مرده عليّ، فقرأ الاسم في النشرة كما أشرت عليه. وفي اليوم التالي جاءت الجرائد العربية تحمل الخبر عن مؤتمر المجمع المسكوني.

وأذكر من جملة المخالفات أن أحد المترجمين ترجم الحديث المسمّى التعليق على الأخبار وكان موضوعه اقتصادياً، وقرأت الترجمة قبل إذاعتها فوجدتها بلغة سلسة لا بأس بها، لكن عندما عدت إلى الأصل الإنكليزي وجدت أن الترجمة في واد والأصل في واد آخر. ولما سألته عن ذلك التباين قال إنه قرأ الجملتين الأوليين من النص الإنكليزي فعرف الموضوع فكتب عنه لأنه يعرفه جيداً من دراسته في الجامعة، وأن كاتب النص الإنكليزي غير مختص في الموضوع. فقلت له: أنت مكلف بالترجمة فقط، ثم أعدنا ترجمته من جديد.

وثمة مثال آخر، فكثيراً ما كان المذيعون يخطئون في قراءة جمع الأفعال المنتهية بالياء أو الألف المقصورة ماضياً ومضارعاً. فكانوا يقولون لقَوا بدل لقوا، ويلقون بدل يلقَون بفتح القاف. فأفهمت المذيعين بالقاعدة في ذلك. وجاءني أحد المذيعين قبل نشرة الأخبار فأفهمته القاعدة: وهي أن الفعل إذا

انتهى بألف مقصورة يكون جمعه بفتح عين الفعل، أما إذا انتهى بالياء فجمعه يكون بتسكين عين الفعل. وسمعته يقرأ النشرة قائلاً: ليسَوا بدل ليسوا، وعندما ناقشته في ذلك احتد وقال أنت علمتنا القاعدة. وشكاني لمنظم القسم العربي المستر باكستون، وطبعاً هذا لم يكن باستطاعته أن يفصل في الأمر لجهله بدقائق اللغة العربية من حيث صرفها ونحوها. وما فعله هو استعمال سلطته بحكم وظيفته، فكان قراره خاطئاً وهو من قبيل حكم جاهل على عالم. وهذا ما كان يعانيه القسم العربي وغيره من الأقسام الخارجية في الإذاعة البريطانية. فكانت المشادة بين الذين يعرفون اللغة من موظفي القسم وأصحاب السلطة من الإنكليز، ومع أن الإدارة في الإذاعة أنشئت خدمة للبرامج في الأصل، أصبحت البرامج خادمة للإدارة فيما بعد.

وكنت اقترحت أن يكون المسؤول عن الإدارة في الأقسام الخارجية في الإذاعة إنكليزياً على أن يكون المسؤول عن البرامج موظفاً من البلد الذي يذاع إليه. بمعنى أن تكون في القسم العربي مشاطرة بين السلطة الإدارية والسلطة الفنية اللغوية، فيكون المسؤول عن البرامج من حيث اللغة والإلقاء والأسلوب عربياً، وأن يكون الرئيس الإنكليزي مسؤولاً عن الإدارة والسياسة وليس له التدخل في ميدان الاختصاص اللغوي. ولم يُقْبَل ذلك الاقتراح لسبب بسيط لأن السلطة يجب أن لا تتجزأ ويجب أن يكون البريطاني مسؤولاً عن كل شيء. وأذكر أن أحد المذيعين في القسم العربي تصدى لمنظم القسم، وكان المستر وايتهد ينكر عليه أن يكون الحكم في قضية متعلقة باللغة والأسلوب، لكن المنظم أصر أن يكون المسؤول عن كل شيء وعن اللغة العربية أيضاً. فسأله الموظف: وهل أنت المسؤول عن القرآن؟ فأجاب: نعم. والمستر وايتهد لم يكن يعرف اللغة العربية على الإطلاق ناهيك عن العلوم الأخرى الخاصة بالقرآن. لكن

المسؤولية الإدارية جعلته أهلاً للمسؤولية اللغوية أيضاً، ولكي يثبت لنفسه هذه المسؤولية كان يستمع معي أحياناً إلى التسجيلات من القرآن التي كانت تأتينا من القاهرة لأعرف صلاحها. وكنت أستغرب كيف أن ذلك الرجل يتظاهر إلى ذلك الحد بمعرفة اللغة العربية والقرآن ويستمع معي إلى التسجيلات وهو يعرف وأنا أعرف يقيناً أنه لا يعرف اللغة ولا قراءة القرآن. هذا ضرب من الضروب التي كان يعاني منها القسم العربي. ومن الطريف أيضاً أن اختيار المذيعين للعمل في القسم العربي كان من مسؤولياتي فكانت توصياتي مقبولة، إلى أن قامت في نفوس أصحاب الإدارة معارضة لذلك الاستقلال الذي كنت أتمتع به وتقرر أن يكون المسؤول النهائي في اختيار المذيعين بريطانياً. مع العلم بأن ذلك البريطاني لا يعرف اللغة العربية ولا يستطيع أن يقرأ أوراق الامتحان المكتوبة بالعربية ولا يعرف كيف يحكم على الصوت ولا الإلقاء.

ومما يذكر في هذا الباب أن إحدى الدول احتجت إلى وزارة الخارجية البريطانية على أمر ورد في القسم العربي، فأحيلت الشكوى إلى المسؤولين في قسم الأخبار والأحاديث ورئيسها المستر ميتشل وإلى المسؤول عن تدريب المذيعين على القراءة والإلقاء، وكلاهما لا يعرف اللغة العربية. ودعيت أنا إلى الاستماع إلى الحديث المسجَّل ومقارنته بالنص، فكنت كلما انتهى القارئ من صفحة أقلبها إلى الصفحة التالية فيقوم المسؤولان بقلب صفحة النص التي بيدهما كما لو أنهما يقرآن النص ويعرفان ما به. وأذكر أن القرآن الكريم كان ضمن قسم الأحاديث الأدبية وكان هذا تحت إشراف سيدة إنكليزية هي المسز إنغرامز، فكانت مسؤولة عن اختيار القراءات من القرآن الكريم في المناسبات المختلفة. واتفق أن القسم احتاج إلى اختيار قراءة من القرآن لمناسبة لا أذكرها، وجرى البحث في الاجتماع الأسبوعي عن ذلك وأخذ الموظفون المسلمون يقدمون

اقتراحاتهم، فأوقفهم المستر ميتشل بقوله: دعوا هذا الأمر إلى الخبيرة، ويعني بذلك المسز إنغرامز، وعدها خبيرة في القرآن الكريم.

كنت في ذلك العهد قد تخليت عن الأحاديث من ناحية لغوية وانصرفت إلى مراجعة الأخبار والأحاديث السياسية، بالإضافة إلى كتابة حديث عن البلاد العربية وشؤونها أو كنت أترجمه عن الأصل الإنكليزي وأذيعه. قمت أيضاً بتحضير وإذاعة دروس تعليم الإنكليزية مع مذيع ومذيعة إنكليزيين. وكان من واجباتي رئاسة ندوات إذاعية يشترك فيها أصحاب الفكر والرأي من العرب أمثال الشيخ حسن عبد القادر، رئيس المركز الثقافي الإسلامي في لندن، والسيد إدوارد عطية، وغيرهم ممن كانوا يفدون إلى لندن. وكنت أيضاً أجري مقابلات مع الكبار من العرب، ومنهم الأمير الحسن المغربي (الملك الحسن الثاني فيما بعد)، وبن بركة من زعماء المغرب، والحبيب بورقيبة (قبل استقلال تونس)، والملك حسين وغيرهم. وقد اجتمعت بالحبيب بورقيبة في أثناء وجوده في لندن سنة ١٩٥١عدة مرات ودعوته إلى بيتي مراراً. وأذكر أنني كتبت حديثاً عرجت فيه على الحبيب بورقيبة وقلت إنه من بين الزعماء العرب يأخذ بالواقع دون الخيال. وورد اعتراض من الإذاعة على هذه العبارة لأنها قد تسيء إلى غيره من الزعماء العرب. ثم وردني بعد شهر كتاب مطول من أحد الزعماء التونسيين شرح فيه حقيقة الحبيب بورقيبة وتاريخه وأورد حوادث واقعية تظهر بورقيبة بمظهر يختلف عن رأيي فيه. وعلمت من المسؤول عن المراسلات الخاصة بالبرامج العربية المستر مارمرستاين (وهو يهودي عراقي يعرف اللغة العربية) بوصول ذلك الكتاب وبأنه ترجمه ورفعه إلى وزارة الخارجية البريطانية. وطلبت منه الأصل لأن الكتاب موجه إليّ، فاعتذر عن ذلك قائلاً إن الكتاب الأصلي قد رفع مع الترجمة إلى الوزارة. ولم أعرف اسم

الكاتب ولم أسأل عنه ما دام أن الكتاب الأصلي قد حجز عني. ذكرت ذلك كله للحبيب بورقيبة فطلب مني اسم الكاتب، فقلت إني لا أعرفه لأنهم لم يسمحوا لي بالاطلاع على الرسالة. وخفت على مصير ذلك الكاتب فقد كنت أسمع من التونسيين أن بورقيبة يقتل خصومه السياسيين، فلم أسع جاداً لمعرفة الاسم وبقيت جاهلاً به وبذلك أقسمت أني لا أعرفه، لكن بورقيبة حقدها عليّ وافترقنا. ثم زرت تونس في سنة ١٩٥٦ وكان بورقيبة قد أصبح رئيساً للجمهورية وزرته في قصره بصحبة رئيس القسم العربي، فرحب بي وسألني عن حالي. وخرجنا من عنده ولم يدعني دعوة خاصة كما كنت أدعوه، وكان هذا آخر العهد به ولم أفكر في زيارته بعد ذلك.

كانت سنوات ١٩٤٨ و١٩٤٩ و١٩٥٠ سنوات تجربة في الإذاعة البريطانية، ولم أعزم على جلب عائلتي من دمشق إلا في أواخر سنة ١٩٤٩، ومع ذلك القرار فقد كنت أيضاً أحاول أن أجد عملاً في بلد من البلاد العربية. واتفق أن جاء إلى لندن في سنة ١٩٥١ سليمان طوقان وزير الدفاع الأردني وسليمان سكر وزير المالية وعرضا عليّ منصب مدير الإذاعة الأردنية، فقبلت بالعرض على شرط أن تمنح الحكومة الأردنية لابنتي سهام منحة مالية تمكنها من مواصلة دراستها الجامعية في لندن. وكتبت فعلاً بذلك إلى وزير المعارف الأردني وهو أحمد طوقان وكان من زملائي في إدارة المعارف الفلسطينية، وجاءني الرد بتوقيع مصطفى الدباغ وكان مفتشاً للمعارف في نابلس في فلسطين. وفي الجواب أن المنحات الدراسية قد وزعت ولم يبق إلا نصف منحة. ولم أر في ذلك الوقت أن نصف المنحة كاف، ومع ذلك فقد انتظرت أمر التعيين من الحكومة الأردنية. وجاءني الرد على لسان أنسطاس حنانيا سفير الأردن في لندن، بأن الحكومة في عمّان قررت تعيين شخص آخر للإذاعة الأردنية. وكان قد جرى

بحث التعيين في مجلس الوزراء الأردني فقال بعضهم إن حسن الكرمي لديه عمل وإن كثيراً من المستحقين ليس لهم عمل، فالأولى إعطاء المنصب لمن هو بحاجة إلى عمل.

وخطر ببالي أن أتجه إلى النشر وذلك بتأسيس شركة تتألف مني ومن طابع ومن موزع، فأنا أؤلف الكتب والطابع يطبعها والموزع يقوم بتوزيعها في البلاد العربية. فدرست أولاً بصورة موسعة تطور الخيال والفهم عند الأولاد عامة والأولاد العرب خاصة لكي تكون الكتب موافقة لذلك التطور، وقررت أن تكون تلك الكتب من نوع القصص والروايات التاريخية أو على غرارها في موضوعات مختلفة. ثم وجدت طابعاً له مطبعة عربية في شرقي لندن، وأخيراً وجدت موزعاً وهو محمد كمال وبيني وبينه قرابة، وكان قبلاً في حكومة فلسطين المراقب العربي لمكتب الأخبار والإعلام. وخططت لكل كتاب أن يكون في حدود المائة صفحة وأن لا يزيد ثمنه عن الخمسة قروش أردنية أو ما يعادلها، ووافق الطابع على ذلك ورضي بأن يكون له ثلث المرابح ورضيت أنا بالثلث وتركنا الثلث الباقي للموزع. وعقدنا اجتماعاً نحن الثلاثة وبحثنا المشروع، إلا أن محمد كمال أرجأ القرار النهائي إلى ما بعد عودته إلى بيروت لدراسة الوضع. فانتظرنا ثم عاد محمد كمال إلى لندن وقال إنه لا يستطيع الاشتراك معنا لعدم خبرته بالتوزيع، وهكذا فشل المشروع.

الفصل السابع

الترحال مندوباً عن الإذاعة

في أول سنة ١٩٥١ ذهبت إلى السودان مندوباً عن الإذاعة البريطانية لحضور الانتخابات العامة هناك. وكان السودان في ذلك الوقت على مفترق الطرق: فإما أن ينضم إلى مصر أو ينضم إلى الكومنولث أو يكون مستقلاً. وبعد قليل ضعفت جبهة الكومنولث وبقي الصراع بين دعاة الاستقلال ودعاة الانضمام إلى مصر، وانتهى الأمر إلى أن تغلب دعاة الاستقلال. واجتمعت في أثناء وجودي في السودان بجميع الزعماء مثل الإسكندري، والميرغني، ومحمد أحمد محجوب، وغيرهم، واقترحت عليهم اقتراحاً قبلوه جميعهم وساروا بموجبه. وقال لي فوزي سعد الدين، الأستاذ بجامعة الخرطوم، إنه عند كتابة تاريخ السودان الحديث سيذكر اقتراحي ذاك بأنه الاقتراح الوحيد الذي وافق الجميع عليه ومهد الطريق لإجراء الانتخابات. وتوافد على الخرطوم المراسلون من جميع البلاد، فنظمت حكومة السودان، وكانت لا تزال بريطانية، رحلة لأولئك المراسلين لزيارة البلاد بإشراف محمد علي عثمان، فزرنا الشمال والغرب ولم نتمكن من زيارة الجنوب. وبدأنا الزيارة بالأُبَيِض ثم بالنَهود والأُضَية وبلغنا جنوباً عشر درجات عن خط الاستواء. وجلب انتباهي أن أسماء الأماكن كانت عربية كالخُوَي والأُضَيَة، وأن كثيراً من أسماء الأدوات والمواعين كانت عربية، من ذلك مثلاً يقولون للمخرز إشفي وهي كلمة يمنية.

وفي النَهود دعيت إلى بيت طبيب إنكليزي للعشاء، ولعلهما ظناني انكليزياً بحكم كوني ممثلاً للإذاعة البريطانية. وكانت الزوجة هي التي تقوم بخدمة المائدة معتذرة عن عدم وجود خادم في البيت، لأن الخادم الذي كان يعمل

عندهم قد اعتنق الإسلام والإسلام يأمر بستر العورة، لذلك رفض أن يظل عارياً كما في السابق، وكانت الزوجة تصر على أن يظل عارياً تماماً في أثناء الخدمة، وهذا لم يقبله الخادم بعد إسلامه فترك البيت. وعلمت أن هذا ما يجري في السودان؛ فإن الرجل في أقصى الشمال الغربي والجنوب إذا أسلم ستر عورته والمرأة إذا أسلمت سترت جميع جسمها، وكانت في السابق تستر عورتها من الأمام والخلف فقط وتترك صدرها عارياً تماماً. ورأيت رجلاً يتحادث مع امرأة وهو عارٍ تماماً ولم ألحظ أي حرج في ذلك من قبل المرأة. ورأيت رجلاً يمشي عارياً وقد أحاط خصره بخيط فسألت عن الخيط فقيل لي على لسان الرجل إنه للسترة.

وقامت بيني وبين محمد أحمد محجوب صلة طيبة، وزرته في بيته وسجلت له مع كبير موظفي دائرة الصحة العامة جلسة أدبية. ودعاني إلى بيته ليقدم إليّ أكلة سودانية عريقة مفضلة ويسمونها الكِسرة، وتبين لي أنها البامية مع خبز الرقاق وتؤكل باليد. وقد تحدثت مع محمد أحمد محجوب وغيره من الزعماء بالتفصيل عن الوضع في السودان. وأذكر أنني اقترحت أن يكون السودان اتحاداً بين ولايات مستقلة استقلالاً داخلياً، لأن ذلك في رأيي سيحل بعض الشيء قضية الجنوب. وكانت الحكومة تريد فصل كل ولاية عن الأخرى بعدم إنشاء الطرق بينها، وعندما سألت عن السبب في أن الحكومة لم تعمل على ربط البلاد ببعضها البعض قيل لي إن السبب هو أن الطرق تجرفها مياه الأمطار إذا أنشئت، ولم أعتبر هذا سبباً صحيحاً. وكانت مشكلة الجنوب قائمة في ذلك الزمان، فقد منعت الحكومة البريطانية نشر التعليم العربي الإسلامي في الجنوب ولكنها سمحت للمبشرين المسيحيين أن يستأثروا بذلك حتى يحولوا الجنوب إلى بلد مسيحي. وعلمت في أثناء وجودي في الخرطوم أن المبشرين المسيحيين في الجنوب بلغ عددهم اثني عشر ألفاً. واجتمعت في ذلك الوقت بزعيم من زعماء الجنوب واسمه جورج، على ما أعتقد وسألته عن عدم موافقته على الانضمام إلى الشمال في دولة واحدة، فقال إنه يخاف من

العرب لأنهم كانوا يتاجرون بالعبيد. فقلت له إن هذا كان في القرون الماضية السحيقة وأن ذلك الخوف لا مبرر له الآن. وكان احتجاجه بأن العرب يتاجرون بالعبيد هو من قبيل التعذر والذريعة وأنه نفسه كان يعلم بسخافة هذا العذر.

ومن الذين اجتمعت بهم شيخ من الزعماء واسمه أحمد عبد الرحمن، دعاني لحضور حشد ليلي في الحملة الانتخابية خطب فيه عن الخيار المطروح أمام السودانيين. وأذكر أنه في معرض الكلام عن فكرة الانضمام إلى الكومنولث البريطاني، حكى حكاية عن دجاجة كانت ترعى ومعها فراخها وديك. فجاءت حدأة من سباع الطير وحامت فوق الفراخ، فلما رأها الديك أسرع واختبأ تحت جناح الدجاجة. ولما ذهبت الحدأة خرج الديك فلامته الدجاجة على جبنه، فقال لها: الحق معك، ولكني وأنا فرخ قد خفت خوفة لا تزال في عظامي. كان يقصد الشيخ أحمد عبد الرحمن أن يقول إنهم جربوا الإنكليز فكيف يجربونهم مرة ثانية.

وقد تسنى لي زيارة المهدي زعيم الأنصار والميرغني زعيم الختمية. وكنت على اتصال بعزيز عيد مدير إذاعة السودان، وكان سابقاً موظفاً في القسم العربي في الإذاعة البريطانية. وتعرفت على مساعد له اسمه الخانجي فكنت أتجول معه في بعض نواحي الخرطوم وقد حدثني كثيراً عن عادات أهل السودان... ولم أدع إلى بيوت السودانيين، ولكني دعيت من قبل الفلسطينيين المقيمين هناك منهم إحسان عباس، وأحمد سعيدان. وتمكنت بهذه الاتصالات من معرفة الوضع السياسي والحزبي في البلاد، فكنت أتحدث مع الزعماء عن علم، حتى إن الإسكندري زعيم حزب الاتحاد في ذلك الوقت قال بأني أعرف الوضع كما يعرفه الزعيم من زعماء السودان. وقد التقيت بالإسكندري في لندن بعد سنة من ذلك الوقت.

وفي زيارة لي للشمال في أرض الكبابيش وقفت على بئر هناك، وكان معي مراسل ألماني وآخر فرنسي مع زوجته، فأقبلت على البئر امرأتان في مقتبل

العمر. وجلب انتباهي أنهما تتوشحان بثوب يغطي أحد الثديين ويترك الآخر مكشوفاً. وشاهدنا جمال وجههما واعتدال قامتهما مع سمرة خفيفة وبهتنا بهذا الجمال الطبيعي فأخذنا صوراً لهما ولنا جميعاً، وقلت لو لم أكن متزوجاً لقبلت أن أتزوج من إحداهما.

وفي القاهرة بعد العودة من السودان اجتمعت بعبد الحميد شومان صاحب البنك العربي، وكان لايزال غاضباً عليّ لرفضي العمل معه مديراً لفرع عمّان. فصالحته وأخبرته بأنني أتصل به لأنني أحترمه وأعظم مقامه ومجهوده، لا لحاجة أو لتملق، وسجلت له حديثاً عن البنك العربي وفروعه، وكان يرافقه عبد المطلب الخطيب. وأذكر أنني أعدت التسجيل ثلاث مرات لأنه أصر على قول فُرعاً بضم الفاء وبعض هفوات أخرى. وكان التسجيل في الحقيقة دعاية للبنك العربي، وقد أدرك عبد الحميد شومان ذلك وعادت المياه إلى مجاريها بيني وبينه في اجتماعاتنا فيما بعد في القاهرة وفي لندن.

وفي سنة ١٩٥٥ زرت نيجيريا وغانة، وكان مدير إذاعة نيجيريا إنكليزي اسمه تشالمرز، وقد نزلت ضيفاً عنده ليومين في لاغوس العاصمة وهناك زرت سلطانها بصحبة أحد الموظفين الحكوميين. وبينما كنت أتحدث مع السلطان سمعت لغطاً من داخل المنزل، ولما سألت عن ذلك قيل لي إنه أصوات نساء السلطان وكن يزدن عن الخمسين. وفي الشمال الشرقي زرت كانو وزرت أميرها وكان يفهم اللغة العربية ولكنه لم يرد التكلم بها. وخرجت معه يوماً في مهرجان له وبصحبته وزراؤه، لكن لم يكن له ولا لوزرائه شيء من الحكم في الحقيقة لأن الحكم كان بيد الموظفين الإنكليز. ثم زرت الكلية التي كان يعلم فيها الدين الإسلامي والفقه ومديرها إنكليزي، وألقيت على الطلاب خطبة بالإنكليزية. وكان المسلمون هناك قد أبدوا امتعاضهم للقرار الذي اتخذته الحكومة المصرية في ضم المحاكم الشرعية إلى المحاكم المدنية، وكان رأي الطلاب في الكلية أن قرار الحكومة المصرية فيه انتقاص من قيمة الدين الإسلامي

ومقام الشرع. وكان الطلاب يقرأون القرآن مترجماً إلا ما كان من بعض السور القصيرة التي كانوا يحفظونها مثل سورة الفاتحة. وأذكر أن الطلاب استغربوا عندما أخبرتهم بأني مسلم، فالمسلم في رأيهم لا يلبس الملابس الأوروبية.

كان في نيجيريا سبع إمارات إسلامية ظلت مستقلة حتى سنة ١٩٠٨ عندما تمكن لوغارد من ضمها إلى دولة واحدة اتحادية نيجيرية. وقد قبل الأمراء المسلمون الانضمام إلى الاتحاد على شرط أن يترك لهم الحرية في إدارة الشؤون الدينية، وأن لا يسمح للمبشرين المسيحيين بالعمل في مناطقهم، وشذ عن ذلك أمير كتسينا الذي سمح لمطبعة تبشيرية بأن تعمل في إمارته. أما الاتفاق الذي عقد مع الأمراء المسلمين فقد كانت نتيجته تقليص نفوذهم وتعاظم نفوذ الحكومة، حتى إنه لم يبق لأي من أولئك الأمراء من السلطة إلا في الأمور الشرعية كالزواج والطلاق والميراث. ولم تقم الحكومة بإنشاء مدارس في الإمارات الإسلامية وحجتها في ذلك أن هذه الإمارات ليس لديها المعلمون من المسلمين للقيام بالتدريس، ولأنهم رفضوا المعلمين من قبائل الإيبو المسيحيين خوفاً على دين أولادهم. وسألت أحد الحكام الإنكليز في الشمال عن عدم وجود مدارس لتعليم المسلمين فقال بأن المسلمين يفضلون أن يستخدموا أولادهم في رعي الأغنام والأبقار. وفهمت من أحد المعلمين أن الغاية هي إبقاء المسلمين جهلة أو أن يقبلوا التعليم على أيدي المبشرين أو أتباعهم. وقد فهمت أن الأمير من أمراء المسلمين كان يخشى على منصبه إذا هو خالف الأوامر. ولمست ذلك حقيقة لما كنت في العاصمة لاغوس، فقد سألت مدير الإذاعة المستر تشالمرز إذا كانوا يذيعون القرآن الكريم في برامجهم، فكان رده أنهم لا يذيعون القرآن وذلك بأمر من الأمراء المسلمين. فعجبت من ذلك كثيراً ولا سيما أن المسلمين كانوا يؤلفون أكثر من ستين في المائة من السكان. وبحثت عن السر من أحد الأمراء فأخبرني أنهم منعوا تلاوة القرآن في الإذاعة اتباعاً للآية الكريمة: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٤]، وقال إن القرآن إذا أذيع فإنه

يذاع على الناس وهم في لهوهم ولعبهم وفي المقاهي والحانات وهذا يحول دون استماعهم وإنصاتهم وهو إهانة للقرآن الكريم. فقلت: ولكن الواجب هو إذاعة القرآن ومن لا يستمع أو ينصت فالذنب ذنبه وليس ذنب الدولة. فأجاب بأنهم هكذا أفهموا. ولكن من الذي أفهمهم؟ وكيف يقبل الأمراء وهم مسلمون بمنع إذاعة القرآن؟

ومن الأمور الأخرى من هذا القبيل أن الأمراء المسلمين في نيجيريا قبلوا بأن تكتب لغتهم الهوسا، وهي لغة المسلمين بصورة عامة، بالأحرف اللاتينية بدلاً من أن تبقى تكتب بالأحرف العربية أو بالعَجمي، كما يسمونها هناك. وكيف قبل الأمراء وهم مسلمون ذلك الأمر وقرآنهم مكتوب بالعربية؟ وهل كان لهم من الأمر شيء؟ وهذا أيضاً يذكرني أن اللغة الأندونيسية تكتب بالأحرف اللاتينية كما أن سوهارتو حاكم أندونيسيا رضي بالمبشرين بأن يبشروا بالدين المسيحي في الجزر الأندونيسية. وفي ماليزيا أصبحت لغتهم تكتب بالأحرف اللاتينية أيضاً. وكان النميري في السودان يغض الطرف عن النشاط المسيحي في جنوبي السودان حتى أدى ذلك إلى قيام حركة انفصالية عن الشمال الإسلامي.

وأذكر أنني في أحد أيام سنة ١٩٥٢ أو ما بعدها دعيت إلى مكتب رئيس القسم العربي المستر ووترفيلد، وكان في المكتب رجل صومالي ورجل بولندي، وكان الموضوع قضية استخدام الحروف اللاتينية في كتابة اللغة الصومالية التي لم تكن مكتوبة في ذلك الحين. وفهمت من الرجل الصومالي أن الداعي إلى استعمال الحروف اللاتينية وليس العربية هو أن في اللغة الصومالية أحرفاً لا يوجد مقابلها في اللغة العربية، وعلمت أن هذه الأحرف لا يزيد عددها عن أصابع اليد الواحدة، فاقترحت عليه أن تلك الأحرف القليلة يمكن التعبير عنها بأحرف عربية ليس لها مقابل في اللغة الصومالية، ونصحت للصومالي بعدم اتخاذ الحروف اللاتينية. وانفض الاجتماع من غير قرار حاسم وبقيت

اللغة الصومالية غير مكتوبة. وعندما تأسس القسم الصومالي في الإذاعة البريطانية كان المذيع الصومالي يذيع نشرة الأخبار غير مكتوبة على الورق بل ارتجالاً بلغته. ثم في السبعينات اعتمدت الصومال الأحرف اللاتينية في كتابة اللغة الصومالية.

وقبل عودتي من نيجيريا، وكانت نيجيريا في ذلك الزمان على وشك الاستقلال، قامت حملة واسعة لنشر الكتابة بالحروف اللاتينية وأقيمت أماكن لتعليم تلك الكتابة في طول البلاد وعرضها ليلاً ونهاراً بجهود مكثفة. وسرعان ما اختفت الكتابة العربية. وكنت أعجب في نفسي كيف ستكتب قرارات المحاكم الشرعية في البلاد، وكنت رأيتها في سوكوتو في أقصى الشمال الغربي، تكتب باللغة العربية؟ وسوكوتو هي قاعدة الإمارات الشمالية الغربية، وهي الرئيسية للإمارات الإسلامية. زرت أميرها وكان لا يعرف العربية لكن وزيره الأول الجنيد كان يعرف العربية ويكتبها. ودعاني يوماً إلى بيته في سوكوتو وأهداني نسخة من كتاب «فتوح البلدان» للواقدي وكتب عليه عبارة الإهداء باللغة العربية الصحيحة. وقد ألف كتاباً باللغة العربية عن تاريخ سوكوتو، فاقترحت عليه أن آخذه معي وأطبعه في بيروت، لكن الحوادث التي جرت في لبنان بعد سنة ١٩٥٥ لم تمكني من تنفيذ وعدي فأعدت الكتاب إلية معتذراً.

وزرت وأنا في الشمال الغربي، قبر عثمان دان فوديو مؤسس الدولة الغلامية في شمالي نيجيريا وغربها. وكان لعثمان أخ من علماء الدين الإسلامي وقد كتب كتباً باللغة العربية لتعليم الناس قواعد الدين، وحصلت على كتابين من تلك الكتب. وقيل لي إن عثمان دان فوديو جاء من الشمال ولم يكن زنجياً كما كان قومه الذين نزحوا إلى نيجيريا. فكانوا طوال الأجسام دقيقي الأعضاء بيض الوجوه نسبياً. وعندما زرت أحد الأمراء المسلمين في إمارة في الغرب وكان منهم، راعني طول جسمه ونحافته ورقة أعضائه وطول أصابع يده وبياض وجهه.

وكنت أتنقل في نيجيريا بالطائرة لبُعد المسافات، واتفق أنه كان يتنقل معي موظف أميركي كبير من وزارة الخارجية اسمه المستر ووكر. ولعله كان في مهمة سياسية وقد تكون عسكرية أيضاً. وأخبرني أنه كان في زمن الحرب العالمية الثانية في نيجيريا في معسكر أميركي في الشمال. وكنت في جولاتي مصطحباً أحد موظفي الحكومة من الإنكليز. وفي زيارة لإحدى المقاطعات في الغرب الإسلامي وكان ذلك الموظف بصحبتي، مررنا في الطريق بحي منعزل فيه بيوت متفرقة حسنة المظهر، وقد كتب على لوح على جانب الطريق بالإنكليزية كلمة «نسرايوا» أو قريب من ذلك، فسألت الإنكليزي عن معنى تلك الكلمة، فقال إنها تعني حي الإنكليز وقال إنه يعتقد أن الكلمة في الأصل من اللغة العربية، وسألني إذا كنت أعرف الأصل، فلم أعرف. ثم دار الحديث عن الطقس فقال إنه في شهر آذار يبدأ هبوب الهرمتان من الشمال، وهذه ريح تحمل رملاً دقيقاً جداً يغطي جميع البلاد. وقال إن كلمة الهرمتان هي من اللغة العربية، فقلت إني لا أعرفها ولعل كلمة الهر تعني الحر، أما متان فلا أعرف لها معنى. ثم تحدث الإنكليزي عن عادات أهل البلاد منها أن السكان يبنون بيوتهم من الرمل والطين ويعيدون بناءها كل عام لأن الأمطار متى جاءت غزيرة تحل جدران البيوت وكأنها قالب من السكر، فيعاد بناؤها من جديد بعد انقطاع الأمطار.

فكرت في معنى كلمة «نسرايوا» مدة، ثم اهتديت إلى أن المعنى هو حي النصارى، لأن المسلمين في إفريقيا يسمّون الأوربيين نصارى، مثل ما يسمّي المسلمون في المشرق العربي الأوربيين إفرنج، ولم يعهد المسلمون في أفريقيا أن رأوا نصارى من العرب. واتفق أن أسعد داغر من الجامعة العربية عندما زار المغرب، تعرض أحد الخطباء للنصارى وندد بهم، وذهب وهم أسعد داغر، وكان نصرانياً، إلى أن الخطيب كان يندد بالمسيحيين إلى أن أفهموه أنه يقصد الأوربيين.

أما كلمة «الهرمتان» فبقيت أجهلها إلى أن حان مني بعد سنتين ذكر تلك الكلمة أمام المسز إنغرامز وكانت قد زارت اليمن مدة من الزمن، فقالت إن كلمة متان في اليمن معناها الرمل. وهنا لمعت الصورة في ذهني بأن الهرمتان إذاً هي حر ورمل، فلغة أهل اليمن كانت تنتشر في مناطق عديدة من إفريقيا.

ورغبت وأنا في نيجيريا في زيارة الأحياء السورية اللبنانية في كانو ولاغوس وإبادن. وكان السوريون واللبنانيون هناك يعملون في التجارة، ومن أهمهم الحاج البحصلي وقد استضافني لبضعة أيام في لاغوس، وكانت له تجارة واسعة ويمتلك من الأراضي في لاغوس مساحات كبيرة. وأذكر أنه أخذني إلى مسبح خارج المدينة خاص بغير النيجيريين وعرفني على امرأة إنكليزية في مقتبل العمر قال إنها صاحبته وهو ينفق عليها، وذكر أن زوجته في بيروت ترفض أن تساكنه في نيجيريا. ثم أشار إلى امرأة إنكليزية أخرى مع زوجها وقال إنها خاصة ببعض الموظفين من أهل البلاد، وقال إنها جمعت ثروة كبيرة وستعود إلى بريطانيا بتلك الثروة وتعيش بها هي وزوجها في المستقبل. وتحدث عن حالات أخرى من هذا النوع.

وفي إبادن زرت الحي اللبناني ودخلت دكاناً فوقه لوحاً يحمل اسماً عربياً فسلمت بالعربية فرد صاحب الدكان رداً فاتراً، ودخلت معه في الحديث وهو غير راغب. ثم قلت له إنني مندوب عن الإذاعة البريطانية في زيارة للبلاد على حساب الإذاعة، فتغير وجه الرجل وهش لي ثم دعاني للقعود وأتاني بشراب بارد وقهوة عربية. فسألته لماذا قابلني بذلك الجفاء، فقال: يا أخي نحن لا نخلص من أصحاب الجرائد العربية في لبنان، فهم يفدون علينا بلا انقطاع ويلزمونا بالاشتراك في جرائدهم ومجلاتهم ويأتون لجمع الاشتراكات، والحالة الاقتصادية لا تكون حسنة دوماً. ثم قال بأنه يود لو يستطيع الرجوع إلى لبنان، وأعلمني بشيء من التبرم بأن ابنه الشاب تزوج من امرأة سوداء، وأخذني إلى بيته وأراني زوجة ابنه.

تركت نيجيريا إلى ساحل الذهب الذي أصبح يعرف بغانه بعد الاستقلال وذهبت بالطائرة إلى العاصمة أكرا، وقيل لي إن أصل الاسم هو إنكرا أي النملة. وكان نكروما في ذلك العهد أول رئيس للدولة، وكثير من موظفيه لا يزالون من الإنكليز. وكان مدير الإذاعة إنكليزياً عرفته في الإذاعة البريطانية من قبل. ودعيت بعد وصولي بأيام إلى بيته، وكانت زوجته من موظفات الإذاعة البريطانية أصلاً. وأذكر أن الحديث في أثناء الزيارة تعرض إلى القسم العربي وقال بأننا محظوظون لأن المستر وايتهد مدير القسم، هو اختصاصي باللغة العربية. فقلت: المستر وايتهد لا يعرف اللغة العربية. فاستغرب أشد الاستغراب وقال: إننا كبار الموظفين في الإذاعة البريطانية نعتقد بأنه مختص باللغة العربية.

وأول شيء أحببت أن أعمله في غانه هو الاجتماع بنكروما وسألت مدير الإذاعة تدبير اللقاء إذا أمكن. وجرى ذلك اللقاء فعلاً في مبنى البرلمان الغاني، وكان المستر نكروما قد انتهى من جلسة البرلمان، فجاء إلى غرفة خارج قاعة المجلس حيث كنت أنا ومدير الإذاعة في انتظاره وكان معه وزير الداخلية. وتحدثت مع نكروما عن زيارتي وعن الكلية الجديدة في غانه وعن نصيب اللغة العربية فيها، فقال بأن اللغة العربية سيكون لها نصيبها الحق في الكلية. وجرى الحديث بين نكروما ومدير الإذاعة، فتحولت أنا إلى الحديث مع وزير الداخلية الذي سألني إذا كنت مسلماً، فقلت: نعم. فسألني إذا كنت قد قرأت كتاب أحد المبشرين المسيحيين عن عمله في التبشير مدة خمسين سنة في الغرب الإفريقي، وذكر اسم الكتاب ومؤلفه، ولم أكن قد قرأته، فوعدت بشرائه عند عودتي إلى لندن. فلخص لي ما قاله المؤلف عن حركات التبشير ومدى نجاحها في الغرب الإفريقي. وقال إن المؤلف بعد قضاء خمسين سنة في التبشير، ينصح سلطات التبشير بأن تكف عن التبشير للدين المسيحي لأن ذلك لن يكتب له النجاح، فالغرب الإفريقي مصيره أن يصبح مسلماً. وقد أدخل هذا الكلام في نفسي رغبة في البحث عن حال المسلمين في غانه. فزرت ممثل المسلمين في أكرا، ويقال له المفتي، وكان هو المفتي الثاني والسبعين،

وتحدثت معه عن حالة المسلمين وعن انتشار الإسلام. فقال بأن المسلمين يشكلون خُمس سكان غانه، ولكن الناس يقبلون على الإسلام بكثرة، ورأيت في تلك الزيارة عدداً من الرجال وفدوا على المفتي لاعتناق الإسلام. وحدثني المفتي عن مناصرة المسلمين لنكروما في الانتخابات العامة بعد خروجه من السجن. وكان نكروما قد وعد المسلمين بمساعدتهم في تحسين أحوالهم ورفع الضيم الذي كانوا يتعرضون له في عهد ما قبل الاستقلال. وشكا المفتي من أن نكروما خاس بوعده ولم يفِ به.

زرت بعد ذلك الكلية الأحمدية في أكرا وكانت الكلية موقوفة على نشر الدعوة الأحمدية من خلال الدعوة إلى الإسلام. وشكا لي مدير الكلية من أن السلطات لم تعمل شيئاً تجاه تنظيف الأجواء قرب الكلية من الرائحة القبيحة المنبعثة من المجاري. وشكا من أن الحكومة الحالية تتجه اتجاهاً معادياً للإسلام.

وزارني عدد من المسلمين وحدثوني عن التبشير وعن انتشار الإسلام، وفهمت منهم أن التبشير يلاقي صعوبتين: إحداهما الاختلاف بين الفرق المسيحية من كاثوليكية وبروتستانتية ولوثرية وأنكلكانية، وغيرها. والثانية أن المبشرين يتحاشون الاقتراب من المسلمين لأن المسلم إذا اقترب منه مبشر للتبشير ضربه. تلك المعلومات كانت جانبية، فمهمتي كانت دراسة الوضع العام في البلاد من وجوه عديدة. كان نكروما في ذلك العهد يريد إدخال إصلاحات في النظام الاجتماعي عامة والقبلي خاصة، إذ كان في البلاد عدد لا يحصى من شيوخ القبائل ورؤسائها بدرجات مختلفة. وكان لهم مجلس يعقدونه مرتين في السنة، وكان أولئك الشيوخ والرؤساء قد وجدوا تشجيعاً زمن الحكم البريطاني. ورأى نكروما أن تقوية الإدارة المركزية للحكومة تقتضي إلغاء النظام القبلي وتبديد شمل ذلك العدد الجم من أولئك الشيوخ والرؤساء. وكان من بينهم الشيخ وشيخ الشيوخ بحسب المراتب، ولكل منهم حقوق مميزة، من ذلك مثلاً

أن شيخ الشيوخ كان له الحق في أن يتزوج من النساء إلى حد (٣٣٣٣) امرأة. ولما سمع الشيوخ ببرنامج نكروما الإصلاحي قامت قائمتهم واعترضوا على ذلك بشدة. وكنت في طريقي إلى بلدة كُماسي في الشمال، وهي المدينة الثانية بعد العاصمة، فأحببت أن ألتقي بأحد أولئك الشيوخ أو شيوخ الشيوخ. واتفق أن كان على جانب الطريق قصر لشيخ من الشيوخ اسمه أفوري أتا، وكان هو الزعيم بينهم والناطق باسمهم وخطيبهم، فعرجت على القصر وقلت للسائق أن يستأذن لي بالدخول، فأذنوا لي ودخلت وقابلت شيخ الشيوخ هذا وجلست معه وحدنا. وأخذ يدمدم ضد برنامج نكروما الإصلاحي، ولا سيما لأن ذلك البرنامج كان ينوي إلغاء المشيخات دفعة واحدة. وكان رأيي، كما حدثته أن إلغاء المشيخات دفعة واحدة قد يحدث شيئاً من البلبلة، والأفضل أن يأتي ذلك الإلغاء المزمع على مراحل لأن التدرج يساعد على الاندماج بحيث تتطور عناصر الأمة تدريجياً وتتلاحم من غير انتفاضات. ومثلت له على ذلك بسور القدس الذي كان قد بُني في عهد السلطان سليمان القانوني. وتأسست جمعية في عهد الانتداب مهمتها أن تفتش السور دوماً لتصلح ما خرب منه، وذلك بأن تخرج من السور كل حجر بالٍ وتضع مكانه حجراً جديداً. ومع الزمان ازداد عدد الأحجار الجديدة حتى ليصبح السور مع السنين من أحجار لم تكن هي التي بنى سليمان القانوني السور بها. ولما ذكرت له ذلك ضرب بيده على الطاولة وقال: هذا هو الحل، سأذكره لهم في مجلس الشيوخ وسنطالب بأن يكون الإصلاح على طريقة سور القدس.

نزلت في كُماسي في غرفة في أحد الفنادق وكانت غرفة شنيعة، فتضجرت من ذلك، وسمعني أحد النزلاء، وتبيّن أنه عربي لبناني، فأعطاني غرفته وأخذ غرفتي. ولم يكن في كُماسي في الحقيقة ما هو جدير بالاهتمام، ولكنني علمت بوجود جالية عربية سورية ولبنانية، وكانت الجالية في ذلك الزمن تخشى أن يقدم نكروما على مصادرة أملاكها وأموالها، إذ قامت في البلاد حركة وطنية ضد الأجانب ولا سيما ضد السوريين واللبنانيين وأحرقت لهم بعض

المتاجر. ووجدت في أكرا العاصمة أن شيئاً من العداء كان ناشباً بين السوريين واللبنانيين. وكان هناك نادٍ سوري وآخر لبناني، وأردت زيارتهما، فزرت النادي اللبناني أولاً ثم السوري، وفهمت من السوريين أن الحركة العدائية من الأهالي ضدهم أشد منها ضد اللبنانيين. وتحدثت في النادي السوري مع تجار انقضى عليهم نحو عشر سنوات أو أكثر وهم في غربة عن عائلاتهم في سوريا.

وخطر ببالي وأنا في كُماسي أن أبحث عن مخطوطات عربية، وكنت بحثت عنها في نيجيريا، إلا أنني لم أوفق في الحصول على مخطوطة واحدة. ولما سألت عن السبب قيل لي إن المخطوطات يأكلها النمل ولا حيلة في ذلك. وأكثرت من التجوال في البلدة وحولها ولفت انتباهي وضع النساء هناك، فحدثني مرافقي من الأهالي بأن النساء اللواتي يجدن حظوة عند الرجال هن ذوات الأرداف الثقيلة، لأن المرأة المنعمة في رأيهم والتي لا تعمل في الأرض تعيش في راحة مما يجعلها بدينة. وقد ذكرني ذلك بخادم لدى التاجر البحصلي في لاغوس وكان الخادم قد تزوج حديثاً، ولما سألته إذا كانت عروسه جميلة لم يفهم سؤالي. فأخذت أشرح له مفهومي عن الجمال فلم يفهم، فسألته لماذا اختارها دون غيرها؟ فقال بأنه رآها يوماً تعمل في الأرض فوجدها أقوى وأخف حركة من صواحبها فتزوجها. وهناك أدركت أن فكرة الجمال تختلف من شعب إلى آخر، ولم أجد في البلاد الإفريقية التي زرتها من يفهم معنى الجمال كما نفهمه نحن. وعندما عدت إلى لندن كتبت ثمانية أحاديث عن زيارتي إلى نيجيريا وغانه أذعتها من القسم العربي للإذاعة.

تجوال في شمالي إفريقيا

في سنة ١٩٥٩ زرت المغرب في أثناء حكم الملك محمد الخامس ونزلت في فندق في الرباط قريب من السفارة السعودية، وكان السفير في ذلك الوقت خير الدين الزركلي. وكنت أجتمع به دوماً فيحدثني عن عمله الأدبي وزياراته للمكتبة الوطنية. وكان رئيس الوزراء في تلك السنة خليل إبراهيم وهو من

الذين درسوا في مدرسة النجاح في نابلس في فلسطين. وعرفت في الرباط صديقاً اسمه عبد الحق السعداني وهو ابن عم محمد السعداني القائم بأعمال السفارة المغربية في لندن. وأذكر أن عبد الحق أخذني إلى مهرجان شعبي خارج الرباط، وهناك رأينا الملك محمد الخامس يمشي بين الناس.

أحببت وأنا في المغرب أن أزور جبال الأطلس الشمالي وفاس ومراكش والدار البيضاء. لكنني لم أتمكن من زيارة جبال الأطلس، وعندما زرت مدينة فاس وجدتها عبارة عن عدوتين بينهما واد، وهما عدوة الأندلس وعدوة القرويين. ووجدت الطرقات فيها ضيقة يزدحم فيها الناس والدواب، وهي تضيق شيئاً فشيئاً حتى تكون من الضيق بحيث لا يتسع الزقاق إلا لشخص واحد. وسألت أحدهم كيف يخرجون الميت من البيت؟ فقال يخرجونه من على أسطحة البيوت. هذا في المدينة القديمة ويقال لها فاس الفاني، أما فاس الجديدة ففيها الفنادق وشوارعها واسعة نسبياً وليس فيها ذلك الازدحام. وزرت مكناس ويقال لها مكناسة الزيتون، وفيها التقيت برجل كان في فلسطين ودمشق وكان يعرف أخي (أبو سلمى).

وبعد عودتي من فاس إلى الرباط زرت مراكش بالقطار ونزلت في فندق المأمونية الذي كان ينزل فيه تشرشل مع الكلاوي زعيم البربر. وتجولت في المدينة وزرت قبور السعديين ولاحظت أن الكتابة عليها كانت بخط غير الخط المغربي بل أقرب إلى الخط المشرقي، ولما سألت عن ذلك قيل لي بأن الذين عملوا في عمارة القبور صنّاع من دمشق. وزرت ساحة فيها جامع كبير كان يعرف في ذلك العهد باسم جامع الفنا. وفي المدينة وجدت مكتبة عامرة بالكتب العربية اشتريت منها معجم «أقرب الموارد» وكتاباً عن ابن البيطار والأعشاب. وأذكر أنني رأيت في أحد الشوارع هرة تكاد تقع من شدة الهزال، فجئت إلى لحام هناك وقلت للحام: هذه الهرة ستموت إذا لم يطعمها أحد، وناولته مبلغاً من المال لينفقه على إطعام تلك الهرة كل يوم حتى تستعيد قواها. فأخذ اللحام المال وأقسم على أن يطعم الهرة كما اتفقنا، والله أعلم.

زرت قبر يوسف بن تاشفين القائد العسكري المشهور ومؤسس مدينة مراكش، فوجدته في مكان حقير مرتفعاً عن الأرض قليلاً وليس له شاهدة. وكنت أطمع في زيارة أغادير وجبال الأطلس في الجنوب ولم يكتب لي ذلك، واكتفيت برؤية الثلوج على قمم الجبال. ورجعت إلى الرباط فزرت علال الفاسي وصديقاً عرفته في لندن في السفارة المغربية، كما مررت ببيت محمد عرفة الذي كان الفرنسيون اختاروه ملكاً بدلاً من محمد الخامس. واجتمعت بعدد من رجال الفكر والسياسة، وكان لي اجتماع بفريق منهم كان يدعو إلى إزالة الملكية. وأذكر أنهم سألوني عن رأيي في دعوتهم هذه فنصحتهم بالعدول عنها، وذكرت لهم أن المغرب في حاجة إلى ضم الصفوف لا إلى تفريقها وأن العامل الفعال في هذا الضم هو بقاء الملكية لأن جميع عناصر الشعب تدين لشخص الملك بالولاء منذ قديم الزمان. وظهر لي حينئذ أن حمى إزالة الملكية قد سرت عدواها إلى المغرب بعد أن كانت قد تمكنت في مصر والعراق وأصابت بشرها السودان وسوريا حيث أزيلت منهما سيطرة المهدي وسيطرة الكتلة الوطنية. ولا أظن أن القومة ضد الملكية والزعامة الوطنية كانت من تدبير العرب بل وقعوا في القرن العشرين في فخاخ نصبت لهم، ولم تفدهم التجربة. من ذلك ما جرى للثورة العربية بقيادة الشريف حسين في الحجاز، وما جرى في فلسطين في عهد الانتداب البريطاني من انتفاضات وأعمال إرهابية أدت إلى قيام دولة إسرائيل. ثم ما جرى في سوريا من انقلابات متعددة وما جرى مؤخراً في لبنان. وأذكر بهذه المناسبة أنني بعد أن تركت فلسطين ولجأت إلى سوريا، التقيت أنسطاس حنانيا وجرى البحث حول النكبة. فقال أنسطاس بأن العرب سيتعلمون من هذه النكبة درساً لن ينسوه، فقلت على ما أذكر: إن العرب لن يتعلموا ذلك الدرس.

وأذكر أنني أقنعت الفريق المغربي بضرر التخلي عن الملكية في المغرب من أجل أي نظام آخر. ومع ذلك بقيت الفكرة قائمة وظهرت عملياً فيما بعد في زمن الملك الحسن الثاني، وكاد هذا الملك الطيب أن يلقى حتفه مرتين على

يد المغتالين وعلى يد وزير الداخلية بصورة خاصة. ويحق للمرء أن يتساءل: هل العرب الآن أحسن حالاً بعد زوال الملكيات وزوال الشخصيات العهيدة في العصبية الوطنية والدينية؟

ودعيت إلى عشاء وأنا في الرباط، أكلت فيه الكسكس فأصبت باضطراب في الجهاز الهضمي عانيت منه شهراً أو أكثر، وعشت على أكل البقول والخضروات. وفي الجزائر بعد المغرب، وكنت لا أزال على الحمية، اقتصر طعامي على الخضروات. وكان خدم المطعم يعرفون العربية وأظنهم من القبائليين، ولمست فيهم تعصباً شديداً للدين الإسلامي. وحدث أن رأيت في وجبة العشاء طبقاً من اللحم البارد ظننته بقرياً فأكلت منه ولاحظت تهامس الخدم، وانقطعوا عن الكلام معي وفهمت فيما بعد أن اللحم البارد الذي أكلت منه كان من لحم الخنزير ولم أكن أعلم بذلك. وكان من الصعب التفاهم مع السكان في الجزائر لأنهم كانوا يتكلمون بلهجة عامية محضة بعيدة عن الأصل العربي بسبب الاحتلال الفرنسي وعزم فرنسا على جعل البلاد فرنسية ونزع الصفة الإسلامية والعربية عنها. وحاولت معرفة أحوال الناس العرب هناك فلم أتمكن لعدم إمكانية التفاهم مع أفراد الشعب. ولم تطل زيارتي للجزائر فغادرتها وذهبت إلى تونس. وهناك وجدت فرجاً لأنني تمكنت من محادثة الناس بالعربية فيفهموني وأفهمهم. وكان الموضوع السياسي المهم في تونس في ذلك العهد هو هل تونس عربية أم فينيقية؟ وكان كثيرون يعتقدون أنها فينيقية، ولعل ذلك بوحي أجنبي. واجتمعت بأحد أولئك وكان موظفاً في الإذاعة التونسية، وبحثت معه موضوع انتماء تونس إلى العرب أو الفينيقيين. فأتى في حديثه بحجج ضعيفة منها قوله إن الفينيقيين تركوا في تونس آثاراً حضارية لا تزال قائمة، وأن تونس انقطعت عن الاتصال بالعرب في العهد الأخير أكثر من قرنين أو ثلاثة ولا سيما في العهد العثماني. ونسي ذلك الرجل أن العرب تركوا لغتهم ودينهم وتركوا آثاراً أدبية وشعرية راقية وحكموا البلاد قروناً عديدة لم يحكمها أحد غيرهم حتى الفرنسيون. ومع ذلك فقد شاهدت حتى

في عهد بورقيبة ميلاً إلى تخليد ذكر الفينيقيين، ومنه تسمية بعض المواضع بأسماء فينيقية، مثل فندق ديدون. وأغرب من ذلك أنه يوجد في تونس جامع يعرف باسم هملقار، وهملقار هو قائد فينيقي.

وزرت القيروان وجامعها، وحضرت عرساً هناك واجتمعت بقاض شرعي كان يحضر العرس، وتحدثت معه في أمور عديدة وكان يحسن اللغةً العربية. وأذكر أنه جرى البحث في أمور إسلامية، واتفق أن المؤذن رفع صوته بآذان العصر فقال القاضي: إذا أذن المؤذن ولى الشيطان وله حصاصى أو صوت عال كما ورد في الحديث النبوي. ومعناه أن الشيطان يحدث تلك الأصوات حتى لا يسمع المسلمون الآذان. وحفظت هذا الحديث وتثبت من صحته.

بقيت في تونس عدة أيام أخرى وكان في الفندق الذي نزلت فيه رجل أميركي كنت التقيت به في الدار البيضاء في المغرب. وكان هذا الرجل هو أحد أفراد فريق أميركي من المهندسين الجيولوجيين كانوا يقومون بمسح الأراضي المغربية من الجو للكشف عن الثروة المعدنية. ذكر لي ذلك الرجل أن في المغرب من الكنوز المعدنية ثروة لا تنفد، ووعدني أنه عند انتهاء وضع التقرير عن ثروة المغرب المعدنية سيعطيني نسخة عنه. ولا أدري لماذا ائتمنني هو على ذلك التقرير والتقرير سري. وسافرت من المغرب قبل الحصول على تلك النسخة، والتقيت بذلك الأميركي مرة أخرى في تونس وتعارفنا من جديد وسألته عن النسخة فقال بأن التقرير يطبع الآن وسيتم طبعه قريباً. وغاب عِني ذلك الأميركي، وبعد أيام عدت إلى بريطانيا بطائرة فرنسية ولسبب ما أُخذ مني جواز السفر ولم يُسلّم إليّ إلا في الطائرة بعد مغادرة باريس، وكانت في ذلك الزمان قد وقعت حوادث من الاغتيالات من فعل الفلسطينيين واليهود.

زرت ليبيا في سنة ١٩٦٢ بصحبة موظف إنكليزي هذه المرة. وزرت بنغازي ومنها بطائرة خاصة إلى أحد حقول النفط، وقضيت يوماً هناك مع الأميركيين المشرفين على ذلك الحقل. ثم زرت الجبل الأخضر ورأيت منزل بادوليو حاكم ليبيا الإيطالي في موضع جميل بين الأشجار الخضراء. وعلمت

وأنا هناك أن الطليان غرسوا في الجبل الأخضر ما يقرب من مليوني شجرة من أشجار الفاكهة، ولكن لما غادروا البلاد جاءت جحافل الغنم ولا سيما الماعز، فأكلت تلك الأغراس جميعها في جملة ما أكلت. ونزلت في فندق في شحات ولم أعهد برداً كالذي عهدته في شحات، ولا سيما عند الغروب وكانت وسائط التدفئة غير كافية في ذلك الفندق. وتذكرت هذا البرد في مقام آخر فيما بعد، وذلك في شارع عثمان بن عفان في القاهرة في المساء بعد زيارة للدكتور موسى الحسيني. والجبل الأخضر في ليبيا شبيه بالجبل الأخضر في مسقط بسلطنة عُمان، وفيه إمكانات هائلة لزراعة أشجار الفواكه لو استُغلت لكفت العالم العربي وفاضت عن حاجته. وهذا كما في السودان، ففيها من الأراضي الزراعية مساحات شاسعة لو زُرعت بالحبوب لكفت العالم العربي والبلاد الإفريقية. وقد يتساءل المرء وهو محق: لماذا لا يستغل العرب إمكاناتهم تلك؟ كان هذا السؤال يرد على الأذهان مرة بعد مرة عند بعض المفكرين العرب، وظهر علناً بعد إنشاء السد العالي وتوافر القوة الكهربائية منه. وكنت أعرف أن مصر كانت مزمعة على إنشاء سلسلة من المصانع للاستفادة من القوة الكهربائية وبدأ العمل فعلاً في ذلك في عهد جمال عبد الناصر، ثم توقف، لماذا؟ كانت الأقوال تتضارب حول ذلك الأمر، وتضاربها بحسب الغاية والغرض. ومن المعقول أن تستفيد مصر من القوة الكهربائية، والمعقول أن يُستفاد من تلك القوة الكهربائية عن طريق المصانع، ولكن هذا المعقول لم يؤخذ به. لماذا؟ قالوا إن أميركا ودولاً غربية أقنعت مصر في عهد أنور السادات بأن إنشاء المصانع يخلق طبقة عمالية قوية، وهذه الطبقة تربة خصبة لانتشار الأفكار العمالية ومنها الماركسية والشيوعية، وينتج عن ذلك نزاع بين العمال والسلطة وتنشأ الثورات لقلب نظام الحكم القائم واستبداله بنظام يكون موادعاً للاتحاد السوفيتي، وفي هذا خطر على رئيس الدولة وخطر على المصالح الأميركية والغربية، وهو ما كان يراه اليساريون من العرب.

وحدث ما يشبه ذلك في السودان، فالحركة العمالية هناك كانت أول حركة منظمة من نوعها في العالم العربي، وكان لتلك الحركة تنظيم وتضافر وأثر، إلى أن فطن الحكام إلى الخطر فحاربوها وشلوا نشاطها ولا سيما في مدة حكم النميري. ولما ظهرت الدعوة إلى تنفيذ مشروع زراعي ضخم لزرع الأراضي السودانية بالحبوب بأموال سعودية، قيل إن السعودية لم تتحمس للمشروع كما لم يتحمس له النميري. مع أن المشروع معقول وفوائده لا تنكر وذلك خوفاً من قيام طبقة عمالية في السودان.

ولم تظهر هذه الأزمة في ليبيا، فبعد أن استقلت اعتمدت على النفط بدل الزراعة. والسكان في ليبيا في معظمهم رعاة للأغنام ولم يعملوا في الزراعة، بل انتقلوا من رعاة إلى سكان مدنيين، وكان من الصعب بعد اكتشاف النفط ترغيب السكان في الزراعة رغم المحاولات الجادة في هذا السبيل. ورأيت على امتداد الساحل الشمالي في ليبيا مزارع عديدة كان الطليان قد أنشأوها للمزارعين الإيطاليين المستعمرين، فكان في كل مزرعة بيت وبقرة حلوب وماء. ولما رحل الطليان بقيت هذه المزارع مهجورة ولم تعمر بعد الاستقلال.

قول على قول

بعد عودتي من ليبيا ابتدعت برنامجاً أدبياً أسميته أولاً «لكل مقام مقال» ثم بدلته باسم «قول على قول»، وكان قائماً على أسئلة عن أبيات من الشعر: مَنْ القائلون لها وما المناسبات التي قيلت فيها. فهذا البرنامج يقتضي من مُعِده أن يكون أولاً: على معرفة تامة بالشعر العربي من أول عهده، وثانياً: له فراسة في الشعر بعد طول الدراسة والممارسة، وثالثاً: مداوماً على المطالعة والقراءة ورابعاً: لديه مكتبة عامرة فيها أمهات الكتب في الأدب والشعر العربي والتاريخ العربي والإسلامي. وقد حاول عدد من الأدباء من العرب في عدة بلاد أن يحاكوا ذلك البرنامج، لكنهم نكصوا بعد أن أدركوا الصعوبة الهائلة التي كانت تواجههم.

وسرعان ما طارت للبرنامج شهرة واسعة، وكنت أجد في زياراتي للعالم العربي إقبالاً كبيراً على البرنامج من كافة الشعب حتى الطلاب العرب في البلاد الأجنبية. وأذكر أنني كنت في صوفيا في بلغاريا في مقهى للطلاب العرب وشاهدت الطلاب يركبون دراجاتهم ويذهبون جملة واحدة من المقهى، وقيل لي إنهم ذاهبون لسماع «قول على قول» في مساكنهم. وكان الأجانب الذين يدرسون اللغة العربية يستمعون للبرنامج، فكانت ترد عليّ أسئلة من ألمانيا وفرنسا وإيطاليا ويوغسلافيا وغيرها من سائلين غير عرب. وكان من مستمعي البرنامج من علية القوم: الملك فيصل السعودي، والملك إدريس الليبي، وأحمد حسن البكر رئيس العراق، وجمال عبد الناصر رئيس مصر. وفي زيارة لي لطرابلس في ليبيا قابلت الملك إدريس وطلب مني أن أجيب عن بيت من الشعر دون ذكر اسمه فأجبته تحت اسم مستعار. وكان أحمد حسن البكر قد وجه إليّ دعوة لزيارة بغداد في سنة ١٩٧١ ولم أتمكن من الزيارة لمرض زوجتي فجأة، ولكنه أوصى بأن أتولى الرعاية لابنه الهيثم في لندن من الناحية العربية والإسلامية. وأذكر أيضاً أن الشيخ زايد بن سلطان حاكم الإمارت العربية زار لندن واجتمعت به وطلب إليّ أن أتولى تعليم ابنه اللغة العربية والدين الإسلامي في بلدة في غرب إنكلترا. ودعاني في لندن إلى الغداء، وكان قد جرى خلاف بينه وبين أحد وزرائه حول معنى بيت من الشعر:

كأنه طرق نمل في أناملها أو   روضة رصعتها السحب بالبَرَد

فزايد بن سلطان كان يرى أن طرق النمل هو الشعر الدقيق، وكان وزيره يرى أنه الخضاب، وتركا لي الفصل في الأمر. فكتبت بذلك للأمير وكانت جائزتي ثلاثمائة جنيه.

وكنت في زيارة للقاهرة واجتمعت بالشاعر محمود حسن اسماعيل فقصَّ عليّ القصة الآتية: قال إن جمال عبد الناصر طلب من وزير الثقافة السيد عكاشة أن يسجل حلقة من برنامج «قول على قول» ويُسمع التسجيل عدداً من الأدباء والشعراء. وفعل عكاشة ذلك، وبعد الاستماع سأل المجتمعين رأيهم في

البرنامج لغوياً وإلقاءً وصوتاً، فأثنى الجميع على البرنامج من جميع الوجوه. ثم قال: أليس من العار أن يذاع هذا البرنامج من لندن ولا يذاع من مصر؟ وأعلمهم أن الرئيس من هذا الرأي ويطلب أن يذاع مثل هذا البرنامج من القاهرة. وكلف وزير الثقافة الشاعر محمود حسن اسماعيل بإيجاد من يقوم بتحضير هذا البرنامج من الأدباء المصريين وأساتذة الجامعات والأزهر، ولكن أحداً منهم لم يقبل بهذه المهمة. وأُعلم وزير الثقافة ومن ثم الرئيس جمال عبد الناصر بذلك، فتقرر صرف النظر عن المشروع.

ومن مستمعي البرنامج أيضاً الأديب الباكستاني المعروف المرحوم عبد العزيز الميمني. وأخبرني محمد السعدني سفير المغرب في إسلام آباد أن الميمني استغرب أن يكون في العالم العربي رجل يقوم بهذا المجهود وحده. ومن الطريف أن وزارة الثقافة في دمشق نشرت ترجمة لكتاب انكليزي وجعلت عنوانه «قول على قول». وذكر لي أخي المرحوم أبو سلمى أنه احتج لدى وزارة الثقافة السورية بأن عبارة قول على قول مسجلة للبرنامج الإذاعي، وهي محفوظة بحقوق الامتياز، لكنهم على حد قولهم، لم يجدوا ترجمة لعنوان الكتاب الإنكليزي أفضل منها.

زيارات للبلاد العربية

تفرغت في الإذاعة البريطانية لبرنامج «قول على قول» مع الإشراف من بعيد على اللغة. ثم زرت مصر في سنة ١٩٦٢ للإعداد لبرنامج عن الجامعات العربية ومنها الأزهر، وكان رئيسها آنذاك أحمد حسن الباقوري. واجتمعت مع شيخ جامع الأزهر، ولا أذكر اسمه الآن، وجرى الحديث حول الوضع في الشرق الأوسط، وكانت العلاقات في ذلك الزمن متوترة بين مصر وبريطانيا. وحاول الشيخ أن يقنعني بأن هذا التوتر أمر عارض وأن الأمور ستعود إلى مجاريها، واستغربت منه هذا الموقف ولعله رأى ما لم يكن واضحاً في ذلك الحين. وكان الشيخ الباقوري يستمع إلى دروس تعليم الإنكليزية التي كانت من وضعي وإلى

«قول على قول»، واعترف بأنني معلمه في اللغتين العربية والإنكليزية.

بعد ذلك زرت عمّان وهناك زرت الجامعة الأردنية وقابلت رئيسها ناصر الدين الأسد وعدداً من الأساتذة هناك. وأظهر ما رأيت في الجامعة، اختلاط الطلاب والطالبات دون حراجة ولم يكن ذلك ممكناً قبل عشرين سنة أو حتى قبل عشر سنوات. ورأيت أن أكثر الطلاب إقبالاً على التعلم هم الفلسطينيون بصورة عامة من شباب وشابات، بالإضافة إلى أنهم كانوا يتفوقون على غيرهم. وأذكر بهذه المناسبة أن طبيباً مصرياً ذكر لي أنه كان طالباً في القصر العيني وكان بين الطلاب عدد من الفلسطينيين وكانوا جميعاً في مقدمة جميع الطلاب في كل امتحان. ووقفت وأنا في الأردن وعلى غيره على موضع ضعف في التعليم الجامعي، وهو أن الطلاب كانوا يعون العلم عن طريق الحفظ لا عن طريق الفهم ولم يكونوا متدربين على القراءة المستقلة من الكتب لتوسيع معلوماتهم. وسألت قيم المكتبة في إحدى الجامعات العربية ما إذا كان الطلاب يستعيرون كتباً من المكتبة لقراءتها، فأجابني أنهم لا يستعيرون كتباً خارجة عن الكتب التي في أيديهم لأن الأساتذة يريدون من الطالب أن يلتزم بالكتاب المقرر ليسهل عليهم فحص الطالب وتقدير علاماته. وهذا ما أدى بالطلاب إلى الحفظ، ففقدوا بذلك ملكة الفهم عن طريق القراءة المستقلة.

ولمست هذا في معظم البلدان العربية، فقد سألت صاحب مكتبة في دمشق كانت تبيع الكتب الإنكليزية، عن تقلص أعدادها لديه فأخبرني أنه لم يعد يستورد منها شيئاً لقلة الإقبال على شرائها. واتفق وجود أستاذ الأدب الفرنسي في الجامعة السورية معنا في المكتبة، فكان تبريره لعدم إقبال الطلاب على القراءة خارج كتبهم المقررة هو تلهيهم بالسينما والنزهات والزيارات مما لا يوفر لهم الوقت للقراءة. فقلت إن هذا موجود في البلدان الغربية على نطاق واسع ولكنه لم يمنع الطلاب من القراءة الخارجية. فقلت لعل السبب هو أن الطلاب لم يعتادوا

على القراءة المستقلة فلم يعودوا يفهموا ما يقرأون والسر هو أنهم نشأوا على نظام الحفظ لا على أصول التفكير. وكان هذا الرأي مني جديداً على ذلك الأستاذ الجامعي. ولعل الغرض من نظام الحفظ هو تعويد الطلاب على عدم التفكير المستقل بل على السلبية في التفكير وتدريبهم على تلقي الأفكار من الغير بدل الإتيان بها من أنفسهم. وهذا يجعل من الطلاب أدوات طيعة مستعدة لتقبل الأوامر والعمل بموجبها عن خنوع.

فهل يوجد في اللغة العربية كتب صالحة تعوّد الطلاب على التفكير والفهم؟ هذه هي المشكلة في العالم العربي، وهي ذات شقين: الأول لغوي والثاني موضوعي. والكلام في هذا الأمر طويل متشابك قد يخرجنا عن القصد إذا خضنا فيه. وكنت آمل في أن يكون «قول على قول» وسيلة حسنة تؤدي بالناس عامة وبالطلاب خاصة إلى تعرّف اللغة العربية وأساليب التعبير بها، وذلك عن طريق ذكر الأشعار والأقوال في مناسباتها. فمناسبة القول في بيت من الشعر عون على فهم معناه وعلى فهم معنى كلماته بالتحديد. وكنت آمل أن يكون الكتاب من «قول على قول» إذا طبع مصدراً لقراءة مستقلة للطلاب يستفيدون منه لغة وأدباً وتاريخاً، فيتعلمون منه تفاعل الآراء ويوسع معلوماتهم في تاريخ الأدب العربي. ولكن ذلك الأمل لم يتحقق لأن القائمين على إدارة التعليم والمعارف في البلاد العربية لم يروا في «قول على قول» إلا كتاب للتسلية لا غير أو برنامج إذاعي ينتهي مع الأيام. وكنت قد اتصلت بوزارة المعارف السعودية وطلبت منها أن تقرر كتاب «قول على قول» كتاباً للقراءة المستقلة للطلاب، ولكن وزارة المعارف أجابت باقتضاب قائلة إنه لاحاجة لها بذلك الكتاب. وعلمت من مصدر غير رسمي أن من جملة الأسباب لذلك الرفض أو السبب الوحيد له هو ذكر الخمر في بعض الأشعار المتضمنة.

وأذكر أنني لما التقيت بالملك فيصل السعودي في لندن ذكر لي أنه يستمع بلا انقطاع لبرنامج «قول على قول» لأنه ممتع أولاً ولأنه يكشف عن تاريخ الأمة العربية. فقامت في نفسي فكرة كتابة سلسلة من الكتب عن الإسلام وتاريخ المسلمين في القرن الأول الهجري باللغة الإنكليزية. وظلت تلك الفكرة تراودني إلى أن اجتمعت بسفير المملكة السعودية في لندن وعرضت عليه الفكرة فشجعني ونصحني بالكتابة إلى الملك فيصل رأساً عن طريق السفارة. فكتبت وشرحت الفكرة، فجاء جواب الملك بتوقيعه يثني على الفكرة ويعد بتمويلها. وقال السفير السعودي بأن جواب الملك بتلك السرعة وبتوقيعه نادر الحدوث. وضعت الكتاب الأول من السلسلة وأرسلته بالحقيبة الدبلوماسية إلى الملك، لكنني لم أسمع منه بعد ذلك.

الفصل الثامن

ما بعد التقاعد

كنت قد بدأت بوضع معجم إنكليزي عربي في أثناء وجودي في فلسطين، وساعدني عملي مراقباً للغة في إتمامه. وأذكر أن رئيس القسم العربي كتب عني في تقريره السنوي أنني أهتم بالمعجم أكثرمن اهتمامي بالعمل الإذاعي، وقد ذكر لي ذلك المشرف العام عندما قابلته لكنه ذكر أن وضع المعجم عمل مفيد وأنه هو نفسه قد وضع معجماً من الألمانية إلى الإنكليزية في أثناء عمله في الإذاعة.

تقاعدت من العمل في الإذاعة البريطانية في نهاية سنة ١٩٦٨، وكان التقاعد فرجاً عظيماً. وأنعمت عليّ الملكة إليزابث بوسام تقديراً للعمل الفني الذي قمت به في القسم العربي. وكان ذلك في حفل في قصر باكنغهام. كنت قبيل التقاعد مشغولاً في إتمام العمل بقاموس «المنار» إنكليزي /عربي. وخرج القاموس مطبوعاً سنة ١٩٧٠، وخرج أيضاً في تلك السنة أول جزء مطبوع من «قول على قول». وتلته فيما بعد الأجزاء الأخرى، وقد لاقت إقبالاً منقطع النظير من قبل الناس كما لاقى البرنامج الإذاعي من قبل.

أصبح همّي بعد التقاعد جمع الكتب العربية المهمة ثم المعاجم العربية والأجنبية في اللغات كافة وفي العلوم المختلفة. واقتنيت أمهات المعاجم العربية «كلسان العرب»، و«تاج العروس»، و«الصحاح»، و«محيط المحيط»، و«أقرب الموارد»، و«البستان»، وغيرها. وبعد صدور «المنار» بسنتين عكفت على وضع قاموس جديد بأسلوب حديث أسميته «المغني»، وعرضته على دار نشر هي مكتبة لبنان فاقترحوا أن أزيد كلماته إلى (٦٠) ألف كلمة ففعلت وأسمينا ذلك القاموس «المغني الكبير». ثم عادوا وطلبوا زيادة الكلمات إلى (٨٠) ألف كلمة،

وبهذا أصبح لدينا قاموساً موسعاً أسميناه «المغني الأكبر». ومع الأيام زاد عدد قواميس المغني بأحجام وأشكال مختلفة حتى بلغ ثمانية، وزدت عليها قاموساً آخر هو «المغني» عربي/إنكليزي.

أكثرت من زيارة البلاد العربية ولا سيما مصر وسوريا ولبنان، وكانت الغاية جمع الكتب العربية والاجتماع بعلماء العربية وأدبائها. وأذكر أنني في زيارة للقاهرة سنة ١٩٧٢ التقيت بالدكتور مدكور في مقر مجمع اللغة العربية وذكرت له أنني منشغل في إعداد معجم عربي على أصول مُحسَّنة، فقال لي الدكتور مدكور إن المجمع على استعداد للمساعدة في ذلك. وأثرت مع الدكتور مدكور مسألة إحياء التراث العربي بنشر أمهات الكتب العربية، على أن يكون ذلك على أساس صحيح وذلك بنشر كتب مبسطة تكون مداخل لفهم نواحي النشاط الفكري العربي والإسلامي في العصور المختلفة. وأن يرافق ذلك نشر أمهات الكتب العربية بشروح وافية وتفسيرات لغوية واسعة مع مقدمات وتهميشات، وذلك لأن لغة تلك الكتب أصبحت غير مألوفة. فوافق على ذلك لكنه اعتبر نشر كتب لمعرفة الفكر العربي والإسلامي هو من واجب مركز البحوث الإسلامية. وكنت سابقاً قد التقيت بأحمد شيت خطاب في بيت صالح بو مصير، أحد الزعماء الليبيين وذلك بعد انتهاء الملكية في ليبيا، فسألني رأيي في مشروع كان يفكر فيه، وقال إن لديه مبلغ مليون جنيه يريد أن ينفقها في إحياء التراث العربي. ومع أنني وافقت على الفكرة لكنني تساءلت ما إذا كان هناك قراء لكتب التراث العربي. وعجب هو من سؤالي فبينت له أن المحاولة نفسها جرت في مصر قبل الثورة وبعدها وفي الكويت ثم في سوريا، لكن الإقبال على تلك الكتب كان ضئيلاً. فتلك الكتب كان يجب أن تكون سائغة للقارئ العربي مقربة إلى الأفهام لغوياً وفكرياً بالشروح والمقدمات، يكتبها أصحاب المعرفة بلغة بسيطة، وإلا فإن نشرها كما هي لا فائدة منه بل يكون مضيعة للمال والجهد. وعلمت فيما بعد أن المشروع لم يتم.

وكان الشيخ أحمد الباقوري يزور لندن كل سنة للمعالجة فكنت أجتمع به وتجري بيننا بحوث لغوية مختلفة، ومن أهمها مسألة إصلاح المعجم العربي من وجوه عديدة. وأخبرني أن مجمع اللغة العربية في القاهرة يعد الآن معجماً للغة العربية لعله الضالة المنشودة. وذكرت له اهتمامي بإصلاح المعجم العربي وبأن لدي المفتاح لذلك الإصلاح. ولما عاد الشيخ الباقوري إلى القاهرة، ذكر في اجتماع لمجمع اللغة العربية هناك عن اهتمامي بالمعجم العربي وبالأمور المؤدية إلى إصلاحه. فكتب إليّ الدكتور مدكور يطلب مني إرسال ما لديّ من مواد عن المعجم العربي لأن مجمع القاهرة دائب العمل على إصدار معجم جديد وقد تكون تلك المواد عوناً على الإصلاح فيجري إدراجها في القاموس. وكنت في ذلك الوقت منهمكاً في الإعداد لقاموس للغة العربية فلم يكن من السهل عليّ تزويد المجمع بما يحتاجه لإصلاح المعجم الذي يعدونه.

صعوبات الترجمة

ثم جاءني بعد ذلك الشيخ عوض رئيس جامعة الأزهر حينئذ، وكان قبل سنة ١٩٧٠ رئيساً للمركز الثقافي الإسلامي في لندن، وعرض عليّ منصب أستاذ للترجمة في الأزهر. فقبلت العرض لمدة شهر فقط، لكن الشيخ عاد فسحب عرضه، ولعل السبب راجع إلى أن منصباً كهذا كان يجب أن يعطى لمصري. ولا أدري ما حدا بالشيخ عوض إلى أن يعرض ذلك المنصب علي، ولم أستأ من ذلك فكان لدي من العمل ما يشغلني.

وقد اطلعت على مجلد جامع للأحاديث التي ألقيت في مركز البحوث الإسلامية في القاهرة من مختلف علماء المسلمين وترجمتها، ووجدت أن الترجمة سخيفة. وتحدثت عن ذلك إلى الشيخ الباقوري وذكرت أن ذلك النوع من الترجمات يسيء إلى العمل من أصله ولا يؤدي إلى النتيجة المرجوة. ولاحظت أن ترجمة الكتب الإسلامية إلى الإنكليزية أصبحت عند الكثيرين ولا سيما عند الباكستانيين صنعة للتكسب، ولا عبرة في أن تكون الترجمة صحيحة. وتصدى

للترجمة من الإنكليزية إلى العربية خلق كثير، ولم يكن بين القراء أحد يفرق بين الغث والسمين. والتقطت يوماً ترجمة لكتاب «الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية» إلى العربية، وكنت أعرف الكتاب في أصله الإنكليزي وأعرف عن المؤلف كثرة التعقيد في عباراته. فقرأت الترجمة فلم أفهم منها شيئاً وأعدت قراءتها مرة ثانية وثالثة ولم أفهم من الكتاب شيئاً. وعجبت من ذلك المترجم كيف يقدم على ترجمة كتاب موضوعه ليس من اختصاصه، وكيف يترجم كتاباً دون أن يعرف هل في اللغة العربية تعابير تطابق التعابير في اللغة الإنكليزية من حيث المدلول. فكتبت في الحال مقالاً أرسلته إلى جريدة «المساء» في القاهرة قلت فيه إن الكتب قسمان: قسم يترجم وقسم لا يترجم وشرحت السبب في ذلك التقسيم من الوجهة اللغوية. وهذا يذكرني بكتاب «الحب والحياة» لمؤلفه الألماني إميل لودفيك وكان قد ترجم إلى الفرنسية وترجمه أحدهم من الترجمة الفرنسية إلى العربية. وقد قرأ هذه الترجمة صديق لي ولم يفهم من الكتاب شيئاً، فاستغربت وأخذت الكتاب وقرأته فلم أفهم أو وجدت دون الفهم عقبات وعقبات. وتبين أن اللغة العربية ليس لديها من الكلمات والمصطلحات ما يفي بالمعاني والصور الفكرية لذلك المؤلف الألماني العظيم، زد على ذلك أن المترجم العربي كان يتزمت في اختيار الكلمات العربية.

ومن العقبات في وجه الترجمة الصحيحة من اللغات الأوربية إلى العربية عدم وجود معاجم أوربية عربية تفي بالغرض، وذلك لأن الذين وضعوا تلك المعاجم من العرب كانت تعوزهم المعرفة الكافية باللغة الأصلية. ولا يزال الميدان خالياً من معجم، على سبيل المثال إنكليزي/ عربي يعطي الكلمات والمصطلحات الإنكليزية حقها من الدقة والتعبير الصحيح. وأحسن شيء يعمل لنيل ذلك الغرض هو استعمال الكلمات الإنكليزية في جمل تعطي صورة عملية أمام الذهن لمعنى كل كلمة. وهذه الطريقة حديثة ولم تصل بعد إلى متناول واضعي المعاجم من الإنكليزية إلى العربية إلا في المدة الأخيرة، وقد استعملتها في وضع معجم «المغني».

وكنت قد قرأت جميع ما ترجم من العربية إلى الإنكليزية من شعر وتاريخ وأدب، من ذلك «مقامات الحريري»، و«ألف ليلة وليلة»، و«المعلقات»، و«أشعار الجاهلية»، و«لزوم ما يلزم»، وغيرها. كما اطلعت على المعاجم العربية الإنكليزية والعربية الفرنسية، ورأيت أن بين هذه المعاجم تفاوتاً من حيث الدقة، ولاحظت أن نيكلسون هو أدق المؤلفين في هذا الباب، ووجدت أيضاً أن الفرنسيين أصح معرفة باللغة العربية. وقد استفدت من ترجمات القرآن الكريم المختلفة، وأصلحها في نظري ترجمة رودول وترجمة محمد أسد الأخيرة، ولم أستحسن ترجمة يوسف علي. وحاولت ترجمة بعض الكتب العربية إلى الإنكليزية ككتاب «البخلاء» للجاحظ وبعض المعاجم العربية كمعجم المطران جرمانوس فرحات، و«معجم الطالب» لجرجس همام، وهذا ما شجعني على وضع معجم عربي إنكليزي في سلسلة قواميس «المغني».

كان لا بد لي من زيارات للبلاد العربية لمعرفة ما يجري فيها من تأليفات في اللغة والمعاجم، ولجمع الكتب التي أحتاج إليها لبرنامج «قول على قول». وبدا لي من هذه الزيارات أن إدراك الناس للغة العربية كان متدنياً، وأصبح الميدان متروكاً للمتطفلين فدخل اللغة استعمالات غريبة عن طريق الترجمة الحرفية عن اللغات الأجنبية. مثال ذلك أن المترجمين قالوا عن جوزة الحلق أو القردحة، تفاحة آدم، وهي ترجمة حرفية للتعبير الإنكليزي. وقد ترجموا الكلمة الإنكليزية "Ellipse" بالقطع الناقص، وهذا صحيح، ولكنهم ترجموا كلمة "Elliptical" فقالوا عنها ناقصي ولم يدركوا أن هناك تعبيراً عربياً صحيحاً هو إهليلجي. ولاحظت أيضاً أن للمسؤولين عن إصلاح اللغة وإرشاد المترجمين، هم الذين يفسدونها. فمثلاً لم أجد في نشرات أولئك المسؤولين من عرف الكلمة العربية للحجر النفيس "Pearl" في اللغة الإنكليزية ويطلقون عليه نفس الاسم الأجنبي، مع أنه في الحقيقة الزبرجد. ولاحظت أيضاً أن عدم الدقة في فهم معاني الكلمات العربية أدى إلى وضع مصطلحات سياسية وعلمية غير صحيحة أوعامية المنشأ. وكنت أقول للمسؤولين إن الترجمة الملهوجة أضر من

عدم الترجمة، ففهم اللغة العربية على حقيقتها فهماً كاملاً فضلاً عن إتقان اللغة التي يترجم منها هو المفتاح لعمل الترجمة. ولا يجوز ترك الأمر لرجال لا يعرفون اللغة العربية من بواطنها.

هذا القصور في استعمال اللغة العربية استعمالاً سليماً هو الذي دعاني إلى انتقاد المعجم العربي والحض على إصلاحه بالطرق العلمية، حتى يعرف الإنسان ما يقول وماذا يعني بقوله. وفي محاضرة ألقيتها في مجمع اللغة العربية الأردني، شرحت الفكرة في إصلاح المعجم العربي وأسباب ذلك وشرحت كيفية الإصلاح بالأمثلة والشواهد. وأظن أن هذه الدعوة طنت في الآذان مدة ثم ما لبثت أن خمدت. والذي لم يعانِ الترجمة ولم يعمل في وضع المعاجم لا يدرك الحاجة الملحّة لإصلاح المعجم العربي.

الفصل التاسع

في السنين الأخيرة

توقفت عن إذاعة برنامج «قول على قول» سنة ١٩٨٧ بعد (٣٣) عاماً من البدء فيه، ولم يكن من السهل عليّ ذلك لأن البرنامج كان عزيزاً عليّ وأعز من ذلك على المستمعين. ولكنني بعد إصابتي بحالة في القلب ثم بالحاجة إلى إجراء عملية في العينين لإزالة الماء، قررت أن الوقت قد حان للتوقف عن إعداد هذا البرنامج لا سيما أنه كان يتطلب مني جهداً وعناية كبيرة.

وحيث أنه لم يعد لدي ما يستدعي بقائي في لندن فقررت الانتقال وزوجتي للسكنى في عمّان. ونزلنا في فندق ريثما نجد البيت المناسب. وبعد أشهر تعرضت زوجتي لكسر في الورك مما استدعى إجراء عملية جراحية لها. لكنها لم تتعافى تماماً بالرغم من العناية التي تلقتها في المستشفى والعلاج الطبيعي لمساعدتها على إعادة قدرتها على المشي، وتدهورت صحتها تدريجياً. وفي شهر تشرين الأول من عام ١٩٩١ انتقلنا إلى شقة كنت قد اشتريتها وأثثتها. وبعد سبعة عشر يوماً في ٢٦ تشرين الأول من ذلك العام توفيت زوجتي رحمها الله رحمة واسعة. وقد شقّ عليّ فراقها وبكيت عليها مر البكاء. وعند دفنها وقفت أبكي عليها وعجبت من الحكمة في هذا الوجود كيف يقضي على سيدة عاشت معي ستين سنة وتدفن في التراب كأنها لم تكن. وبعد وفاتها رفضت العودة إلى لندن لأن كل شيء في بيتي وكل شارع كانت تمر فيه هناك وكل إنسان كانت تعرفه ويعرفها، كل هذه الأشياء ستذكرني بها. ولم أترك شيئاً في البيت من آثارها صغيراً أو كبيراً إلا وزعته. ولم أدخل الغرفة التي توفيت فيها مدة طويلة، وإذا اضطررت إلى الدخول كنت أحول نظري عن مكان سريرها.

وهكذا أصبحت وحيداً بعد ستين سنة برفقة زوجتي وكانت وحدة قاتلة. وكنت شرعت قبل قدومي إلى عمّان في تأليف قاموس عربي/إنكليزي فقررت إتمامه، وكان أفضل تسلية لي في وحدتي. وتم القاموس بعون الله ونشر من قبل مكتبة لبنان. وكانت اتصالاتي بالناس تقتصر على الأقارب وبعض الأصدقاء ويدور الحديث في هذه الاجتماعات على الحوادث المحلية وسرد القصص والحكايات. أما الحديث عن الأمور العقلية والفكرية فكان ضئيلاً والذين يهتمون بالحديث عن ذلك قلة. ولم أجد من ينجد عند الحاجة إلى بحث عن أمر فيه تعميق نظر أو دقة في المعلومات، ولاحظت أن الأغلبية علمها سطحي.

لاحظت أن المواطن يقوم بثلاثة أضعاف عمل الموظف في أي دائرة حكومية. فإذا قصد المواطن دائرة حكومية للحصول على تصريح ما سواء كان جواز سفر أو ترخيص سيارة أو أي مستند، يظل هذا المواطن يجري من مكتب إلى آخر وأحياناً من بناء إلى آخر لإتمام معاملته، مع أن هذه المعاملة يمكن أن يقوم بها موظف واحد لو حاول القيام بعمله بأمانة ونشاط. ولا عبرة في أن يكون هذا المواطن شاباً أو شيخاً أو امرأة عجوز.

كنت أحضر جلسات مجمع اللغة العربية الأردني بوصفي عضو شرف فيه. ولاحظت أن المجمع يضم أعضاءً لا يشترط فيهم معرفة اللغة العربية معرفة جيدة وبعضهم لا يجيد أي لغة أجنبية. وكان جل عمل المجمع هو وضع مصطلحات عربية لما يقابلها في الإنكليزية دون الاهتمام بما وضعته البلاد العربية الأخرى كما لا يأبهون بالمصطلحات العربية إذا وجدت من قبل. ولاحظت الكثير من الأغلاط في أسماء شوارع عمّان، من ذلك شارع باسم العالم اللغوي العربي ابن السِكّيت وقد كتبت ابن السُكَيت، وشارع القاضي عَيّاض وكتبت القاضي عِياض. ومن هذا كثير، فمن المسؤول عن هذه الأخطاء في بلد عربي فيه مجمع للغة العربية؟

وكنت في بعض جلسات المجمع أصرّ على أمرين: الأول أن المجمع هو المرجع النهائي لضبط اللغة، والثاني أن على المجمع توخي الدقة في وضع المصطلحات. ولم أجد أنه كان يعمل بأيهما. وفي جميع جلسات المجمع التي حضرتها لم أجد أن موضوعاً يخص اللغة العربية ومشكلاتها قد جرى بحثه بما يستحقه من الجد والاهتمام. وذكرت في إحدى جلسات المجمع أن اللغة العربية في محنة لأن اللهجات المختلفة لكل بلد عربي قد تترسخ وينتج من ذلك قوميات كما جرى في اللغة اللاتينية حين انقسمت اللهجات إلى لغات كالإيطالية، والفرنسية، والإسبانية، والبرتغالية. قلت هذا وحذرت من أن يكون مصير اللغة العربية مثل ذلك المصير. ودعوت إلى تشديد الجهود ليعتاد الناس في جميع الأقطار العربية على التحدث بلغة سليمة يفهمها الجميع.

دعوت كثيراً إلى إصلاح المعجم العربي وبالتالي إصلاح التفكير بطريقة غير مباشرة، لأن الفكر لغة صامتة وأداة الفكر هي اللغة، فإذا صلحت الأداة صلح الفكر. ثم إن تحديد المعاني للكلمات يساعد على دقة الترجمة ويساعد على وضع مصطلحات دقيقة. والتشويش الذي نراه في المصطلحات العلمية مرده أولاً: عدم دقة المعاني في المعجم العربي، وثانياً: أن الذين وضعوا المصطلحات في مختلف العلوم والفنون لم يكونوا لغويين فنشأ من ذلك الخطأ والخلط. والسبب الأصلي في ذلك أن مجامع اللغة العربية تظن أن صاحب الاختصاص في علم من العلوم يستطيع وضع المصطلحات العربية لذلك العلم. الصواب هو أن العالم فضلاً عن معرفته بذلك العلم يجب أن يكون فقيهاً باللغة العربية.

سكنت في عمّان وحدي بعد وفاة زوجتي وأحضرت خادمة تقوم بالأعمال المنزلية. كنت أمضي وقتي في النهار بين القراءة والتأليف. وبعد إتمام المعاجم التي ألفتها وصدر منها البعض والبعض الآخر هو قيد الطبع، بقي عليّ إتمام

معجم للطلاب على أساس ما يعرف بالمعاجم للقراءة التي تخدم غرضين: الأول شرح معاني الكلمة بوضوح ودقة، والثاني جعل هذا الشرح شائقاً بما يتخلله من أمثلة وشواهد طريفة تستهوي الطالب وتغريه على قراءة المادة. واشتغلت أيضاً في إعداد سلسلة للقراءة على أجزاء قوامها قطع أدبية من شعر ونثر وقطع من تاريخ العرب وقطع فيها أفكار لإيقاظ الذهن والحث على التأمل. ولكل قطعة شرح لغوي وتاريخي وأدبي مع أسئلة يراد الجواب عنها لشحذ الفكر وتقوية المعرفة باللغة وقواعدها. والسلسلة معدة للقارئ من الطلاب وغير الطلاب لترغيبهم بالقراءة وتعويدهم عليها. وآمل أن أتم هذين المشروعين بعون الله.

الفصل العاشر

حـــبّ القـــراءة

القراءة صفة من صفات الإنسان المتمدن، فالإنسان البدائي لا يقرأ. ومقياس الفهم عند كل إنسان يكون بقدرته على القراءة. وقد يُقبل إنسان على القراءة حتى وإن لم يكن من الأذكياء اللامعين إذا عاش في بيئة حضارية أو في محيط عائلي اتسم بحب العلم وبحب القراءة.

لا أذكر كيف بدأت القراءة ولا متى، لكنني عشت في بيت كان أبناؤه يقرأون. فوالدي كان عالماً في اللغة شاعراً أديباً، وكان من إخوتي شعراء وأدباء وذوي معرفة جيدة باللغة العربية. ولعل هذا كان الموقظ في نفسي لقريحة موجودة في الأصل وهي الرغبة في العلم عن طريق القراءة. وأذكر أنني كنت أشتري الكتب بنقود أقتصدها من النفقة القليلة التي كانت تُعطى لي. وكان يغيظني في الكتب العربية عدم وجود فهارس مفصلة يستعين بها القارئ في الرجوع إلى الكتاب عند الشك في أمر من الأمور. وأول ما فعلته وأنا في الصف السابع في مكتب عنبر في دمشق هو أنني بدأت بجمع الفهارس بنفسي. وبدأت بكتاب «نور اليقين» عن حياة الرسول ﷺ، فوضعت فهرساً للأشخاص وفهرساً للأماكن وآخر للقبائل.

والامتحانات العديدة التي اجتزتها بعد دخولي الكلية الإنكليزية في القدس، غرست في نفسي عادة الرجوع إلى كتبٍ إضافة إلى ما هو مقرر منها

وقراءة الأبحاث من مصادر مختلفة. منذ ذلك الزمان وجدت في نفسي ميلاً شديداً للقراءة وأخذت أجمع الكتب للقراءة وللمراجعة عند الحاجة، وهكذا كونت لنفسي مكتبة خاصة في اللغة والرياضيات والعلوم والفلسفة والأدب والدين.

شعرت من قراءة كتب الفلسفة وكتب الأديان أن الدين الإسلامي أقل حظاً في طريقة عرضه على العالم ووجدت أن ذلك يعود إلى تقصير المسلمين أنفسهم، وما كتبه علماء المسلمين عن الإسلام لا يرتقي إلى المستوى العلمي لا من حيث المضمون ولا من حيث الأسلوب، وكان ما كتبه أولئك العلماء لا يتجاوز أصابع اليد. وسرت من هنا إلى الاهتمام بتاريخ المسلمين في أزمان محنتهم في الشرق والغرب وفي مدنيتهم الزاهرة في الأندلس وصقلية، وكيف أن الدول المسيحية في ذلك الوقت بالاشتراك مع البابوية قضت على تلك المدنية وحتى على معظم المصادر التاريخية عن فضل تلك المدنية على العالم المسيحي. ورأيت أن كل ما كان يمت إلى العرب والمسلمين في إسبانيا وصقلية وإيطاليا أصبح مجالاً للشك في المحافل المسيحية. وقام كتاب نشطون يدحضون أي فكرة يستشم منها أن العرب والمسلمين كان لهم فضل في أي إنجاز ثقافي أو فني. بل إن هؤلاء الكتاب وضعوا نظرية خطرة مفادها أن العرب في مدنيتهم لم يكونوا إلا سداً حجز استمرار سير المدنية الغربية، فقطع اتصال تلك المدنية ببعضها إلى أن زال سلطان العرب وزال معه ذلك الحاجز وعادت المياه إلى مجاريها، فاتصلت المدنية الإغريقية والرومانية بالنهضة الأوربية. والخطورة في تلك النظرية أنها تجحد فضل العرب في نقل المدنية القديمة وإيصالها إلى أوربا. ولم أجد كتاباً عربياً واحداً يدحض تلك النظرية ويدافع عن فضل العرب. بل إن العديد من الكتاب العرب ابتلعوا كثيراً من النظريات المعادية للعرب وصدقوها دون تحقيق. من ذلك نظرية حرق مكتبة الاسكندرية في زمن عمر بن الخطاب، وظلت هذه النظرية مقبولة إلى أن فندها وأبطلها

علماء ومحققون من غير المسلمين. ثم وجدت أن دراسة القرآن الكريم عند المسلمين لم تكن دراسة علمية ولم يهتموا في دراستهم بأمور مهمة جداً تجعل من الدين الإسلامي ديناً فريداً. فالدين الإسلامي كان ديناً ودنيا من حيث المال والمجتمع، وأول دين اعترف بالعلة والمعلول، وحاول إفهام الناس عظمة الخالق عن طريق التفكير في خلق السموات والأرض، وأول دين حث على العلم وأوجد العائلة. وفي تاريخ الدولة الإسلامية ثلاث ظواهر ليس لها مثيل **أولها**: كيف تمكن النبي ﷺ من إخضاع الجزيرة العربية بكاملها وتوحيدها في سنين معدودة؟ **وثانيها**: كيف تمكن العرب من إنشاء دولة على أنقاض دولة الفرس ودولة البيزنطيين في مدة وجيزة؟ وأخيراً: كيف تمكن العرب من إنشاء حضارة باهرة في زمن لا يزيد على مائة وخمسين سنة؟

دفعني التفكير في مثل هذه القضايا إلى دراسة فلسفة الدين والتاريخ. واستنتجت من ذلك أن المؤرخين العرب وعلماء الدين المسلمين على العموم كانوا يفتقرون إلى صفة عقلية يقال لها التجريد، ثم إلى الطريقة العلمية في البحث من أجل استخلاص الحقائق من خضم التفاصيل. وأظن أن الحاجة تدعو بإلحاح إلى وجود كتب بالعربية يقرأها الناس عن الطريقة العلمية والتفكير الصحيح تكون مبسطة. ومن الأمثلة على أن الباحثين العرب والمسلمين في معظمهم قاصرون في مجال البحث العلمي، أنني وقعت على مجهود بُذل في أحد البلاد الإسلامية لوضع التعليم على أسس إسلامية. ولم أجد أحداً في هذا البحث ذكر بالتحديد ما هي تلك الأسس الإسلامية التي يجب أن يبنى التعليم عليها.

وظهرت في الزمن الأخير نقيصة أخرى في البحث. فقد عكف كثير من المستشرقين في الغرب على دراسة الأدب والشعر العربي وأعملوا الفكر في تنظيم الدراسة وفي ضبط الكلمات والأسماء. وطبعوا من أمهات الكتب العربية

ودواوين الشعر الشيء الكثير، وامتازت تلك المطبوعات بالدقة والتحقيق العلمي. وقد وجد الباحثون العرب أن هذه الكتب جديرة بالاهتمام فاعتمدوا عليها اعتماداً كلياً فأراحهم ذلك من بذل الجهد وإعمال الفكر.

وانتباهي إلى دراسة الدين عامة حدا بي إلى دراسة اليهودية والمسيحية ثم البابوية ومحاكم التفتيش ومنها إلى ما جرى للمسلمين في الأندلس بعد سقوط غرناطة. وساقني ذلك إلى البحث عن مصير العرب المسلمين في إسبانيا فلم أجد من الكتب العربية ما يعطي المطلوب، فاهتديت إلى مؤلَف من أربعة مجلدات لكاتب إنكليزي عن محاكم التفتيش وأعمالها ضد المسلمين في إسبانيا، وعن تنصيرهم وطردهم منها، وهو من الكتب النادرة جداً. وحفزني ذلك على ترجمة فصل طويل عن خروج العرب من إسبانيا بعد سقوط غرناطة. وهذا أدى بي إلى متابعة مصير أولئك المسلمين في المغرب العربي. ثم امتد بي الاهتمام إلى الاطلاع على الوضع في الشرق العربي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ولا سيما في مصر وسوريا وفلسطين. وجمعت الكثير من الكتب عن ذلك، وهي كتب أصبحت الآن نادرة جداً ويسعى عملاء إسرائيل سعياً حثيثاً لجمع هذه الكتب بانتزاعها من أيدي أصحابها

والقراءة حتى تكون مفيدة لا بد أن يكون القارئ على معرفة تامة بلغة الكتاب الذي يقرؤه، وأن تكون له قدرة عقلية تستطيع استيعاب المقروء وفهمه. ولعل عدم اهتمام الناس بالقراءة حتى بين طلاب الجامعات مرجعه إلى عدم تدربهم على القراءة منذ الصغر، ولأن القارئ العربي بالذات لا يجد في الكتب العربية ما هو موضوع وضعاً منتظماً في الترابط ومزوداً بالفهارس والتعليقات التفصيلية.

وعدم التدرب على القراءة بفهم واستخلاص المعلومات ببذل شيء من الجهد العقلي، حرم المتعلمين العرب من البحث والاستقصاء سواء بمطالعة

الكتب العربية أو غير العربية. فليس هناك الآن من يهتم بدراسة كتب التراث العربي دراسة علمية وتقديمها بقالب مبسط مع التعليقات. وليس هناك ميل عند القلة من القائمين على إحياء التراث العربي إلى مراجعة هذه الكتب، بل يفضلون الرجوع إلى الكتب الأجنبية حتى فيما يتعلق بالموضوعات التي هي أشد مساساً بالعرب والمسلمين وبتاريخهم ودينهم. وأذكر في هذا السبيل أن أحد كبار الكتاب المسلمين كتب سيرة النبي ﷺ، معتمداً في ذلك على سيرة بالفرنسية وضعها الكاتب ديرمنغهام. وإذا وضع أحدهم كتاباً عن الأدب العربي عامة أو عن أديب عربي كالمعري مثلاً، استشهد بكتاب نيكلسون الإنكليزي أو دي ساسي الفرنسي. وقد ظلت «مقامات الحريري» التي نشرها دي ساسي مع تعليقاته مدة طويلة مرجعاً للطالب العربي ولا تزال، بفضل شروحها وفهارسها. وترجمة «رسائل أبي العلاء» إلى الإنكليزية سهلة التناول واضحة المعاني. كذلك ترجمة الإنكليزيان لين وبيرتون «لألف ليلة وليلة» تفتح الذهن إلى حقيقة الأوضاع في ذلك المجتمع وإلى نواح مهمة في عالم ذلك الزمان بفضل التعليقات والشروح. وقد كتب إنكليزي آخر كتاباً عن المجتمع الإسلامي بناه على كتاب ألف ليلة وليلة. أقول هذا إشارة إلى أن الكتاب العرب ليس لهم ميل إلى إتعاب أنفسهم في البحث وقراءة الكتب القديمة وفهم لغتها. والعقبة في سبيل البحث والاستقصاء عموماً هي عدم اعتياد الباحثين على التنقيب واستخلاص الحقائق، وهي أيضاً كون الذين يعهد إليهم هذا العمل لم تتسع لهم الفرصة للتدرب على الطريقة العلمية في البحث وليس لديهم القدرة على التجريد.

فالقراءة حتى تكون مجدية يجب أن تستند إلى صفات معينة في القارئ، وأهم تلك الصفات هي الاستعداد الطبيعي للدراسة مع الصبر، ثم قدرة عقلية على الفهم. ولكن المشكلة التي ما زالت تعاودني هي كيف يمكن للقارئ أن

يستوعب ويفهم ما يقرأ؟ وكيف يمكنه أن يكون منطقياً في تفكيره وقابلاً لفهم ما هو منطقي؟ أي كيف يكون صحيح التفكير. وهكذا عمدت إلى دراسة الكتب التي تعالج قضية التفكير السليم وكتب العلاقات بين الفكر والكلام، ثم كتب تدريب النشئ على التفكير السليم في كلامهم. وقادني هذا إلى أن أتعمق في أسباب التخلف الفكري لدى القارئ العربي، واهتديت إلى أن اللغة وهي أداة التفكير، التي يتكلم بها العربي لغة مجازية أكثر منها حقيقية وأنها تصلح للشعر والخيال العام ولا تصلح لوصف الحقيقة. لذلك كثيراً ما اختلطت معاني الكلمات لعدم توافر ضابط منطقي لها. الأدب العربي في مجال الرواية أو القصة القصيرة حديث النشاط، وقد يكون السبب في ذلك بصورة عامة عدم الاهتمام بالفكرة من وراء الأشياء. فالرواية في العربية تقوم على التفاعل بين الشخص والأشياء أو بينه وبين الأشخاص، والأديب إن تكلم عن الإخلاص والغدر والحب والبخل وغيرها من أسماء المعاني، فإنما يتكلم عنها من حيث علاقتها بالأشخاص أو بالأشياء، أي من حيث إخلاص فلان لفلان أو غدر فلان بفلان وهكذا، من غير أن يكون في الذهن صورة مجردة للإخلاص أو الغدر أو الحب... إلخ، وقد يفسر لنا هذا أن جميع ما وصل إلينا من قصص وروايات قائم على التفاعل بين الأعمال أو الأشخاص وليس بين الأفكار.

وثمة ظاهرة أخرى في معظم الكتب الأدبية العربية التي بين أيدينا وهي الاهتمام بالحوادث والوقائع على انفراد دون الاهتمام بالروابط أو الجامع بينها أو تعليل الأسباب فيها. فالكاتب يسرد الحوادث ويذكر الأشخاص وتحركاتهم كأنها خالية من المغزى وليس من ورائها معنى. ولا يوجد في جميع ما ألفه العرب تاريخ اجتماعي يتحدث عن تطورات المجتمع وظروفه في أي عصر من العصور. وإذا أراد أحد أن يعرف من الشعر العربي أحوال المجتمع في زمن من الأزمان فإنه لا يفوز بطائل. وأهم ما يركز عليه الكاتب من الشعر هو تفسير

الكلمات بحسب المعاجم دون الاهتمام بالكشف عن أي فكرة قد تنطوي عليها أبيات القصيدة.

والاهتمام على هذا الطرز يجعل الوضع عبارة عن سلسلة متتابعة من الحوادث على منوال واحد، أي أن التفكير هو على خط واحد وليس متفرعاً على خطوط عدة تهتم بالملابسات. مثال ذلك القول إن فلاناً لا يمكن أن يكون عاش في سنة كذا لأنه لم يشهد الحادث الفلاني الذي وقع في تلك السنة. وأهم من ذلك أن التجريد المعنوي يكاد يكون معدوماً في معظم الكتب العربية، والأفكار التي قد تنطوي عليها الحوادث تنطمس في غمرة تلك الحوادث. وقد يكون من أسباب الخلاف بين الناس هو عدم اتفاقهم على المبادئ الفكرية العامة التي تنطبق على كل حالة. مثال ذلك المعادلة الرياضية العامة التي يمكن أن تطبق عليها أي حالة.

القراءة المفيدة

على القارئ أن يخصص وقتاً كافياً لكل مرة يقرأ فيها، لأن صرف وقت طويل في القراءة يضمن للقارئ تكوين فكرة عما قرأه وهضم هذه الفكرة. وفي رأيي أن اختيار الوقت للقراءة مهم، ووجدت أن أفضل الأوقات لذلك هو في الليل أو بعد الظهر حينما يكون الذهن صافياً. وتكون القراءة على منزلتين: الأولى قراءة الكتاب بأجمعه كما تقرأ الرواية، والثانية قراءة الكتاب على مراحل، لا ينتقل القارئ من مرحلة إلى غيرها إلا بعد فهمها واستيعابها. وهذه الطريقة تستلزم من القارئ أن يتوقف ويفكر كلما اعترضته عبارة شيقة ذات مغزى. ولما كان الكتاب بحكم الضرورة منقسماً إلى فصول فقد يعمد القارئ بعد كل فصل إلى تدوين ما علق بذهنه من أفكار حول موضوع ذلك الفصل. أو قد يشير إلى ما ورد في كتاب آخر عن آراء مشابهة أو مخالفة. وهذا التفاعل الفكري في ذهن

القارئ من المقابلة والمقايسة بين كتاب وآخر وبين نظرية وأخرى مفيد جداً في تكوين الملكة العقلية في النقد والفحص لقبول الآراء أو رفضها. وأذكر أنني اهتممت مرة بفكرة ابن رشد المعروفة بالنظرية ذات الشقين، وأدى بي البحث إلى جامعة باريس ومنها إلى أن تلك النظرية كانت أساس النهضة العلمية في أوروبا. وهذا أمر جدير بالعناية من قبل المهتمين بالمدنية الغربية.

واللغة العربية في موضوعات الفلسفة قاصرة إلى حد ما، ولا سيما في الفلسفة الحديثة والنظريات الاجتماعية المتأخرة. ووضع كتب عربية في هذه الموضوعات هو من المشقة والعناء بمكان لعدم وجود كلمات محددة المعنى تشير كل منها إلى شيء فارز لا يختلط بغيره. واللغة العربية لم تخرج بعد كلمات للتعبير عن آراء وصور عقلية حديثة. ولا أرى أن قراءة الكتب تؤتي أكلها وتتمخض عن فائدة إلا إذا كانت عن ذهن متفتح لا يفهم المقروء فحسب وإنما يستخلص منه فوق ذلك أفكاراً جديدة ومعلومات إضافية، وتكون فائدة تلك المعلومات صالحة للاستعمال في مناسبات مماثلة. كما أن الذاكرة الواعية هي خير عون للقارئ في تفهمه الأفكار وربط بعضها ببعض ومعرفة مكان هذه الأفكار إذا أراد القارئ الرجوع إليها في الكتب المختلفة. ويُقال إن العالم والأديب لا بد له من ذاكرة واعية لا تترك شيئاً إلا أحصته ولا تضيع معلومة إلا حفظتها. ومع أن التدوين والتسجيل قد يفيان ببعض الغرض في التذكر إلا أن التذكر بكامله لا بد له من التعويل على ذاكرة واعية. وقد توجد هذه أو لا توجد، وعلى قدر وجودها يتوقف نجاح القارئ في تقصي الحقائق وفي الإحاطة بآراء المؤلفين والباحثين.

وثمة عون آخر على القراءة هو الجلد والصبر، وقليل من القراء من يطيق المثابرة على القراءة مدة طويلة حتى وإن كان موضوع القراءة مشوقاً. والجلد

ليس مقصوراً على المثابرة وحدها وإنما يشمل التفكير في أثناء القراءة، وهذا جهد شاق أحياناً. وبسبب هذه المشقة التفكيرية يعزف الكثيرون عن قراءة الكتب العلمية والفلسفية، لأنهم لم يتدربوا على قراءتها في أول عهدهم. وهذا نقص يكاد يكون عاماً في معظم بلاد العالم، لذلك شرعت بعض البلدان لتلافي هذا العجز في القراء عن طريق وضع كتب للأولاد تتضمن حكايات مرغبة مع أسئلة وتوجيهات تفتح ذهن الولد وتأخذ بيده إلى استنتاج المعلومات وتعوّده على الاستنباط.

والقراءة كما هو معروف تزيد من معلومات القارئ لكنها لا تزيد من فهمه لتلك المعلومات ولا من ربط بعضها ببعض، لأن ذلك يحتاج إلى صفة عقلية خاصة في القارئ لا تتوافر في الكثيرين. فالكثير من القراء هم من السرديين الذين يحفظون ما يقرأون دون فهم أو اقتناع ويقبلون هذه الأفكار من غير تمحيص. وقد تكون هذه الآراء مدسوسة فيأخذونها على علاتها ويرددونها كأنها حقائق واقعية. وفي العالم اليوم مجلات وصحف ومؤلفات همّها الأول إدخال الأفكار الفاسدة في الأذهان وتشويش العقول وتجهيل الناس بالحقائق.

وثمة نوع آخر من القراء، وهم قلة، الذين يستقون الأفكار من قراءاتهم ويمحصونها فيقبلون السائغ منها ويطرحون الباطل وذلك بإعمال الفكر والمنطق. وقلة هم الذين يستمعون إلى أصحاب الفكر كسقراط أو ابن رشد أو غاليليو. وأظن أن برنارد شو الفيلسوف والكاتب البريطاني المعروف، أدرك أن الناس قد ينفرون من الفكرة إذا كانت معقدة بعيدة الغور ولو كانت منطقية صحيحة. ورأى أن إدخال الأفكار إلى عقول الناس يجب أن يكون بالتدريج على مدة طويلة دون استعمال قوالب فلسفية ونظرية لهذه الأفكار. والناس قد يعادون الفكرة، ولو كانت صائبة، لأنهم لم يفهموها. وقد قيل: الناس أعداء لما

جهلوا. وقد أُمرنا في الإسلام أن نخاطب الناس على قدر عقولهم. ومما يذكر بهذه المناسبة أن عمر بن الخطاب ﷺ عزل يزيد ابن أبي سفيان وكان عاملاً له. فجاءه يزيد وسأله عن سبب عزله: هل كان العزل بسبب خيانة في المال أو سوء تصرف مع الرجال؟ فنفى ذلك عمر وقال: إنما عزلتك لأني خشيت فضل عقلك على الناس. والمعنى أن يزيداً لما كان فوق مستوى الناس عقلياً كان لا بد أن يكون حديثه فوق مستواهم الفكري فيؤدي ذلك إلى كرههم لآرائه وأقواله ثم إلى التنكر له والعصيان.

وقراءة كتب الفلسفة عموماً تهيء للقارئ أسلوباً للنظر منطقياً في المشكلات التي تعرض له. وأول ما يتعلمه القارئ هو الشك في كل شيء إلى أن يزول ذلك الشك باليقين، ثم أن يقدم الأهم على المهم والأصل على الفرع، وأخيراً أن يتوقف عن الأخذ بحكم أو رأي دون التحقق بالنظر العلمي. والدين الإسلامي في مقدمة الأديان من حيث الحث على القراءة لأنها باب العلم والفهم. وفي قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (سورة العلق: ١-٥).

أرشيف الصور

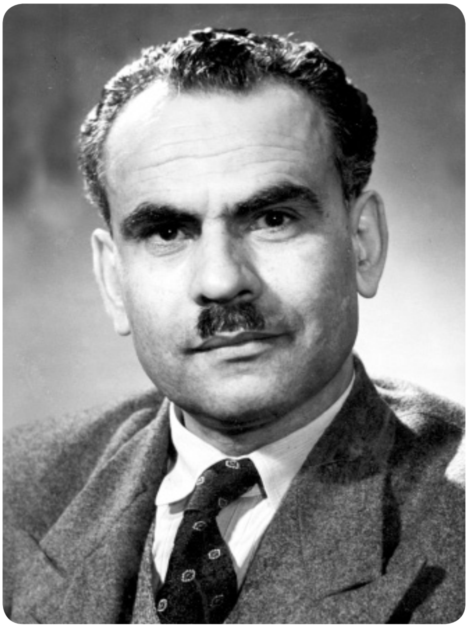

في لندن بالإذاعة البريطانية ١٩٥٠

والد صاحب المذكرات الشيخ سعيد الكرمي

(١٨٥٢ - ١٩٣٨)

شقيقه الشاعر عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى)

(١٩٠٧ - ١٩٨٠)

في الكلية العربية في القدس وهو الثالث من اليسار في الصف الأول ١٩٣٦

مع زوجته وشقيقها محمد طالب في أوائل الثلاثينيات

مع أخيه «أبو سلمى» وابنته سهام في أوائل الثلاثينيات

مع زوجته وأولاده سهام وزياد وغادة في القدس ١٩٤٥

مع زوجته في لندن ١٩٥٠

الكرمي يجري مقابلة للإذاعة البريطانية مع أمير الكويت الشيخ صباح السالم الصباح ١٩٥٥

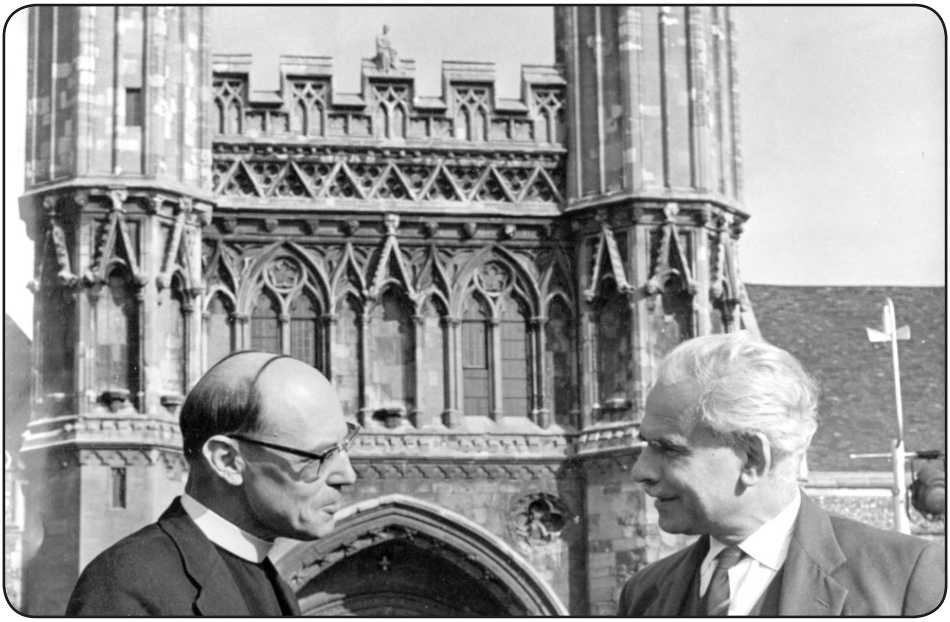

الكرمي مع القس كراغ في كلية القديس أوغسطين في كانتربري ١٩٦٤

يجري مقابلة مع كمال جنبلاط في الإذاعة البريطانية

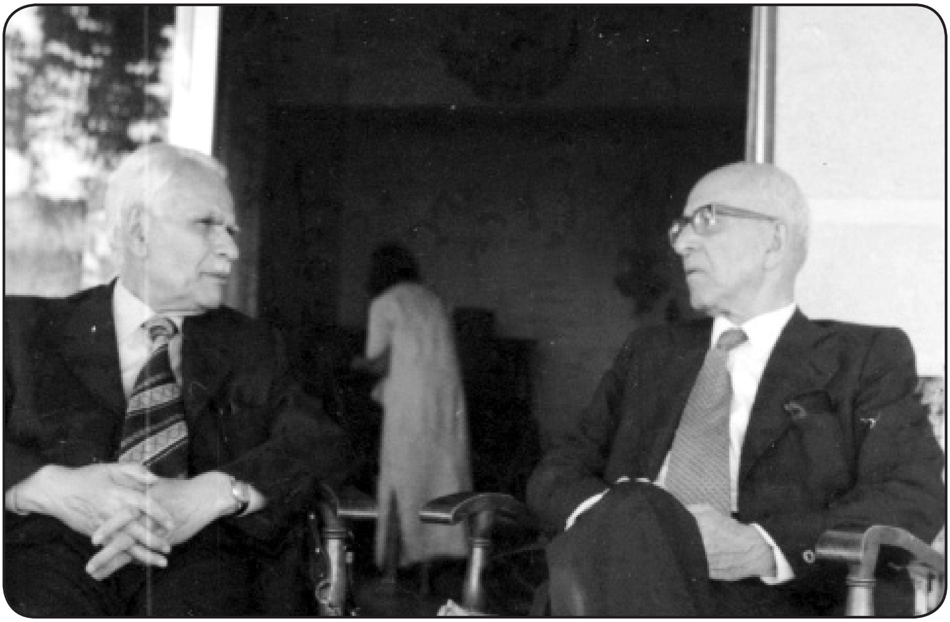

مع أخيه «أبو سلمى» في دمشق ١٩٧٤

مع أخيه «أبو سلمى» في دمشق ١٩٧٥

مع ابنه زياد وابنته غادة ١٩٨٣

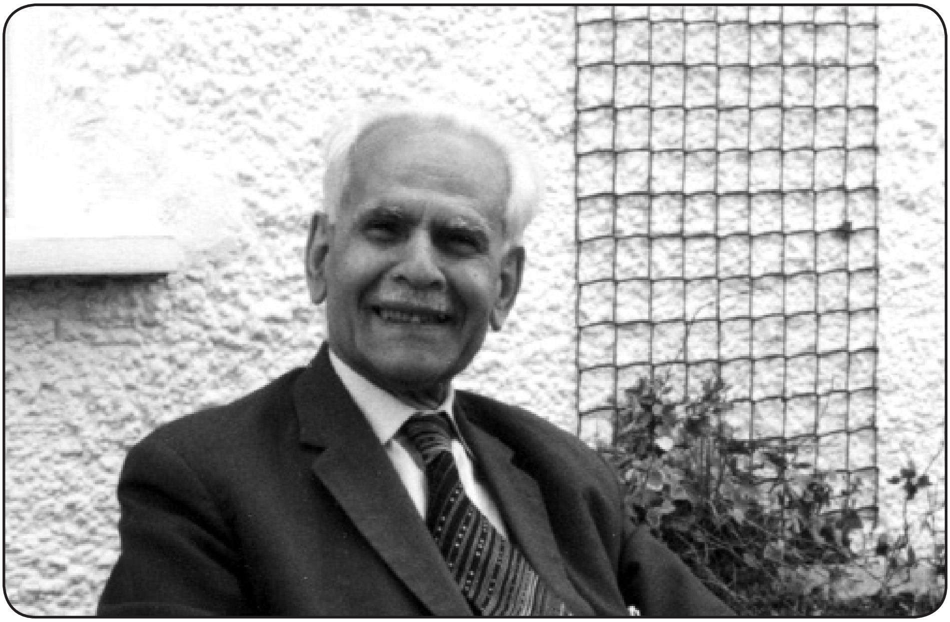

في لندن ١٩٨٤

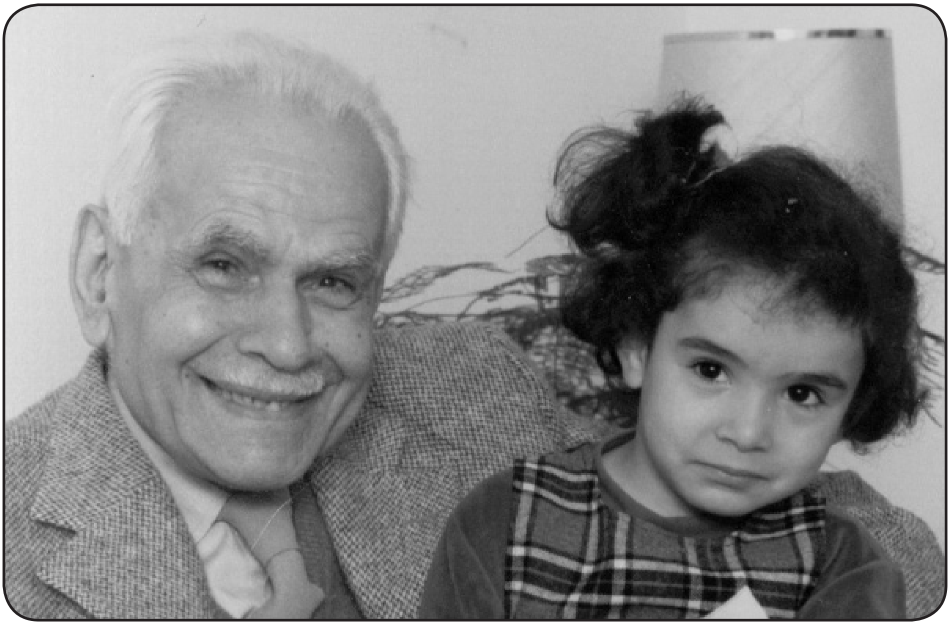

مع حفيدته سلمى ١٩٨٤

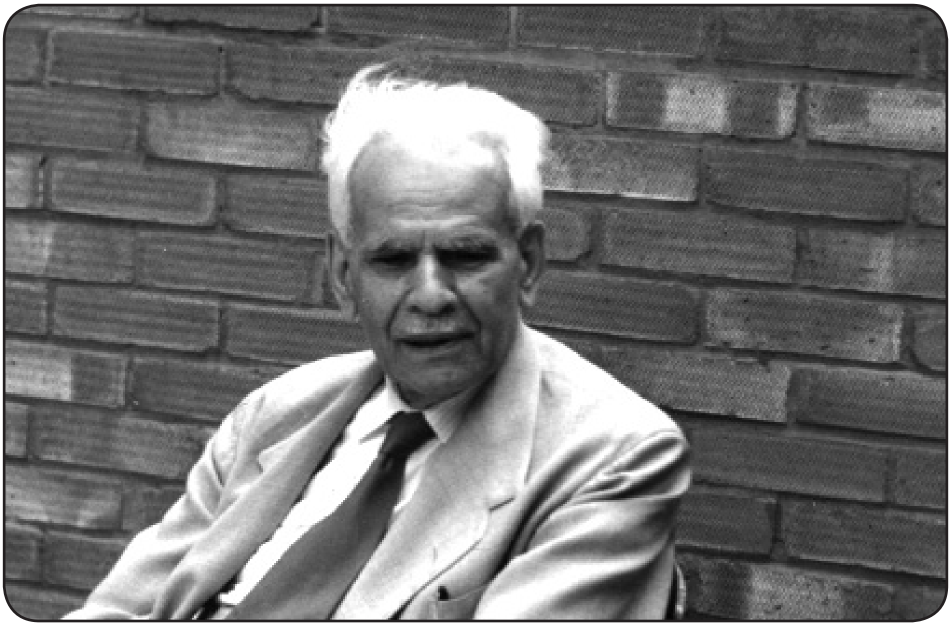

في لندن ١٩٨٦

في حفل تقليده وسام فلسطين من قبل الرئيس ياسر عرفات ١٩٩٠

مع قدامى خريجي الكلية العربية ١٦/٨/١٩٩٤

في احتفال منتدى الشباب العربي مع سمو الأمير الحسن بن طلال وفيصل الحسيني ١٩٩٤

في جامعة اليرموك ١٩٩٤

مع أساتذة الكلية العربية وخريجيها في عمّان ١٩٩٤

مع ابنه زياد في مطعم البوادي بعمّان ١٩٩٤

مع ابنتيه سهام وغادة وابنه زياد ١٩٩٥

مع ابنه زياد وزوجته في عمّان ١٩٩٥

في منتدى الشباب العربي مع د. سعد ابو دية وعبد الله كنعان وبهجت التلهوني

في احتفال يوم القدس بعمّان

مع الأديبة العراقية مي شبر في عيد ميلاده المئة ٢٠٠٥

القسم الثاني

سيرة حسن الكرمي وآثاره

في مرآة المفكّرين والأدباء

(كلمات وشهادات ودراسات)

حســـــن الكـــرمي

ملفّ مجلة «أفكار» الأردنيّة*

وزارة الثقافة

(العدد ٢٢٩، كانون الأوّل/ديسمبر ٢٠٠٧)

إعداد وتقديم: مجدولين أبو الرب**

رحل الأديب والإعلامي حسن الكرمي، بعد حياة انشغل فيها بقضايا اللغة العربية، وقدّم لنا كنوزاً من الكتب والأبحاث القيّمة. فكانت اللغة العربية شغّفه وهمّه، فعمل على تطوير المعجمية العربية، والترجمة. ويمكننا القول إن شغفه باللغة العربية كان سبباً في شهرته الإعلاميّة، حيث اشتهر الكرمي ببرنامجه المعروف «قول على قول» الذي استمر في تقديمه، من هيئة الإذاعة البريطانية، على مدى ثلاثين عاماً، ونُشر في اثني عشر مجلداً.

نستهل هذا الملف، عن الأديب والإعلامي حسن الكرمي، بكلمة سمو الأمير **الحسن بن طلال**، التي جاءت في حفل تأبين الراحل حسن الكرمي في مجمع اللغة العربية الأردني، يوم السبت ١٦ حزيران ٢٠٠٧، بعنوان «حسن الكرمي: العلاّمة المعلم، الإعلامي». يقول سمو الأمير في كلمته عن الكرمي: «عرفته معلّماً ومربّياً وإنساناً كبيراً، يؤمن بقوة الفكر وقدرته على إحداث التغيير المبدع. فجاءت مساهمته في مجال الإعلام تجسيداً لإيمانه بأن الإعلامي العالِم الحكيم إنما ينهض بدور المعلّم والمربّي وناقل الخبر الصادق الصدوق». فحسَن الكرمي «لم يتوقف عن طلب العلم والعمل بذكائه المتوقّد وذاكرته الحاضرة وجلده المعهود؛ فكان إنتاجه بارزاً شامخاً في مجال العمل المعجميّ». ويؤكد سموّه في ختام كلمته

** ننشر الكلمات والموادّ الذي اشتمل عليها هذا الملفّ بإذن خاص من وزارة الثقافة.

* كاتبة أردنية، ومديرة تحرير مجلة «أفكار».

أن ذكرى أبي زياد، ويقصد الكرمي، ستبقى حيّة عطرة في قلوبنا وعقولنا. وستبقى أعماله اللغوية والمعجمية منارة لنا جميعاً.

ولا عجب في اهتمام سموّه بهذا العالم الجليل، فكما قال أ.د. همام غصيب، في تقديمه لكلمة صاحب السموّ: «ولكم سمعته ويقصد سموّه، يشيد بفضائل أساتذته وأفضالهم؛ خصوصاً الأساتذة الثلاثة الذين علّموه العربية: الأستاذ حسن الكرمي، والشيخ إبراهيم القطّان، والشيخ نديم الملاّح».

في ملفنا هذا، يقدّم أ.د. **عبد الكريم غرايبة** مقالة تحدّث فيها بإسهاب عن نشأة الراحل حسن الكرمي. واللافت أن أغلب المواد في هذا الملف كانت تتضمن حديثاً عن نشأة الكرمي، لما في ذلك من أهمية في صياغة شخصيته وتوجهاته واهتماماته الأدبية، وجاءت المعلومات الواردة في الملف مكمّلة لبعضها البعض وأضاءت جوانب مختلفة من هذه النشأة.

استهلّ أ.د. غرايبة موضوعه بأبيات من الشعر لوالد حسن الكرمي، الشيخ سعيد الكرمي الذي ولد في مدينة طولكرم عام ١٨٥٢، والتحق بالأزهر واتصل بجمال الدين الأفغاني، ولازم الشيخ محمد عبده، وعاد إلى بلده مفتشاً للمعارف ثم مفتياً. ومن المفارقات الطريفة أن مجمع اللغة العربية الأردني منح العالم الجليل حسن الكرمي عضوية الشرف، في ١٩٧٨/٩/١٢، تقديراً للخدمات الجليلة التي قدّمها للغة العربية، بينما كان والده المرحوم سعيد الكرمي أحد الثمانية الذين تألف منهم المجمع العلمي العربي في الدولة السورية عام ١٩١٩، وأصبح نائباً لرئيس المجمع، ثم غادر دمشق، بعد الاحتلال الفرنسي، وانضم إلى الأمير عبدالله بن الحسين، الملك المؤسس، في العام ١٩٢٢. وأسس سموه مجمعاً علمياً لغوياً عام ١٩٢٤، وجعل الشيخ سعيد رئيساً له. ومما يفيدنا به أ.د. عبد الكريم غرايبة عن نشأة حسن الكرمي، أن الشيخ أحسن تربية أولاده فبرزوا بالفقه والأدب والشعر، وكان أبرز أولاده أحمد شاكر بن سعيد، وعبد الكريم المشهور

بأبي سلمى، وحسن. ويتوقف د. غرايبة عند كل من هؤلاء الأبناء، ليعطي نبذة عن سيرة كل منهم. وعندما يتحدّث عن الشيخ العلاّمة حسن الكرمي فإنه يمزج العام بالتجارب الشخصية التي جمعته والشيخ، إن كان ذلك في مجمع اللغة العربية الأردني، أم في زياراته للقسم العربي لهيئة الإذاعة البريطانية.

أ.د. **عبد الكريم خليفة**، رئيس مجمع اللغة العربية الأردني، استهل كلمته بالحديث عن العائلة الكريمة التي نشأ فيها الراحل، مهتماً بما شكلته العربية من بيئة ثقافية وفكرية ولغوية، فكان والده الشيخ سعيد أول من تولى منصب قاضي القضاة ووكيل الأمور الشرعية لدى قيام الحكومة العربية في شرقي الأردن، تحت اسم إمارة الشرق العربي، وكان من أعمال الشيخ سعيد الكرمي في خدمة اللغة العربية تعيينه رئيساً للمجمع العلمي في شرقي الأردن عشرينيات القرن الماضي، كما أسلفنا.

يتوقف أ.د. عبد الكريم خليفة عند محطات مهمّة في مسيرة الراحل حسن الكرمي» مؤلفاته، وجهوده اللغوية، ومنها جهوده المعجمية، والدراسات اللغوية، وما قدّمه من بحوث أغنت مجلة مجمع اللغة العربية الأردني. كذلك دور الكرمي في مجال التعريب في الوطن العربي، وانتقاده أساليب الترجمة ومناهجها الحديثة نقداً علمياً.

وعن البرنامج الإذاعي الشهير «قول على قول» يقول د. خليفة: «بالإشارة إلى المجلدات الاثني عشر التي نشرت من برنامجه الإذاعي المشهور «قول على قول»، وكنت أحد المعجبين بسماعها من الإذاعة البريطانية بإلقائه الجميل، ونبرات صوته المؤثرة. وقد ذكر - ويقصد الكرمي - أن فكرة البرنامج تنبع من محاولته لإيجاد وسيلة تؤدي بالناس عامة، وبالطلاب خاصة، إلى التعرف على اللغة العربية، وأساليب التعبير عنها، وذلك عن طريق الأشعار والأقوال في مناسباتها».

ومما يتضمنه هذا الملف، دراسة قيّمة للأستاذ الناقد **فخري صالح** بعنوان «حسن الكرمي وإنجازه المعجمي والثقافي»، يتناول فيها بالبحث والتحليل المنجز الثقافي للعلاّمة الراحل: العمل المعجمي، نظرية الكرمي اللغوية، قول على قول، وإنجازه للترجمة. يقول أ. فخري صالح: «لا أحد يشبه في منجزه الثقافي العلامة الراحل حسن الكرمي، فقد كان مؤسسة في رجل؛ ألّف معاجم وكتباً تضطلع بها مؤسسات كبيرة وتعمل على إنجازها فرق من الباحثين والمتابعين والمتخصصين». ويبيّن أ. فخري صالح الرؤية العصرية لدور المعجم أو القاموس عند الكرمي، الذي «كان يرى أن تحوّل العرب إلى نقلة عن الحضارة الغربية يجعل ترجمتهم للمصطلحات والتعابير الجديدة، التي لا مقابل لها في العربية، غائماً بعيداً عن المعنى الذي تدل عليه تلك التعابير. ومن ثم فإن على مَنْ يؤلّفون القواميس، ويسعون إلى ترجمة المصطلحات، أن يحفروا عميقاً في ذاكرة اللغة العربية لكي يوجدوا مقابلات دقيقة لا تختلط بغيرها من المعاني العمومية الشائعة في اللغة». كذلك، يتناول أ. فخري بالدراسة مؤلفات الكرمي في العمل المعجمي، ويقدم الشروحات حولها ويبدي ملاحظات استنتاجية مهمة. ويوضّح أن نظرية الكرمي اللغوية قامت على ممارسته المعجمية، ونبعت من عمله المعجمي الذي امتد على مدار نصف قرن، وهو ما أكّده الكرمي في كتابه: «اللغة: نشأتها وتطورها في الفكر والاستعمال» الذي مثّل خلاصة تفكيره باللغة ونظرته إلى كيفية نموها وتطورها (أنظر مواد الملف).

ويتناول أ. فخري إنجازات الكرمي في الترجمة، حيث ترجم كتابين عن الإنجليزية هما: «التفكير المستقيم والتفكير الأعوج»، وكتاب «العرب والمسلمون في الأندلس بعد سقوط غرناطة»، ويرصد أ. فخري صالح ملاحظة أوردها الكرمي في مقدمة الكتاب الثاني، تكشف جانباً مهماً في فكر الكرمي وأخلاقه، وهي «تدل على تسامحه وصفاء بصيرته، وقدرته على محاكمة التاريخ بعين معاصرة رحيمة لا تجعل من التمييز العرقي أو الديني الذي مارسه الإسبان بعد سقوط غرناطة ضد المسلمين أن يؤثر على التسامح الديني الذي ميّز العرب والمسلمين في الأندلس».

في الشهادة التي يقدمها د. **سمير مطاوع**، يتجاوز صورة الراحل في عيون الكثيرين رائداً في خدمة اللغة العربية والشعر العربي والثقافة الإسلامية، فالكرمي كان بالنسبة له أكثر من ذلك بكثير: أستاذاً ومعلماً وقدوةً، ومنطلق تجارب شخصية في علاقة عمر امتدت نحو ثلاثة وأربعين عاماً، جعل الدكتور سمير مطاوع يستحضر الكثير من صفات الكرمي، ويقدم إضاءات مهمّة حول شخصيته. جاء ذلك عبر حديث يفيض حميمية ووفاء واعتراف بالجميل، قلّ نظيره في هذه الأيام. ومما يذكر د. سمير مطاوع أن الكرمي كان دافعاً وسبباً مكّنه من دخول عالم الـ "BBC" الذي كان حلم كل شاب يتطلع إلى أن ينهل من تجربة العالمية في حقل الإعلام، حيث عمل في العام ١٩٦٤ في القسم العربي في هيئة الإذاعة البريطانية، وكان ذلك وراء اختراقه عالم التلفزيون الأرقى في العالم من أوسع أبوابه، عندما تم اختياره ليكون أول مذيع أجنبي يذيع من تلفزيون هيئة الإذاعة البريطانية. كما كان الكرمي هو من رشّحه للعمل في تلفزيون الأردن المنتظر في العام ١٩٦٦.

وفي هذا الملف قراءة في كتاب الراحل حسن الكرمي المعنون: «اللغة.. نشأتها وتطورها في الفكر والاستعمال» الذي صدر عن وزارة الثقافة الأردنية ضمن سلسلة كتاب الشهر في العام ٢٠٠٢، وفي هذا الكتاب، ترى الأديبة هيا صالح أن العلاّمة الراحل حسن الكرمي يحاول في كتابه هذا أن يدلّل على أنه مثلما أن اللهجات ترجع إلى أصل واحد، فكذلك اللغات السامية أو اللغات الهندية الأوروبية، إذ ترجع إلى أصل واحد أيضاً، كما أن اللغات العالمية كلها ترجع إلى أصل واحد، ويستند الكرمي في فرضه هذا إلى دراسته لأصوات اللغة وأحرفها ومواطن نطقها المفردات التي تتقارب لفظاً ومعنى بين اللغات المختلفة، واللهجات التي يمكن إرجاعها إلى أصل واحد، وغيرها. وتتوقف هيا صالح عند أهم المحاور التي تناولها الكرمي في كتابه، وهي: أصل اللغات، تطوّر اللغة، الجانب العاطفي للّغة، القياس في اللغة العربية، مقارنة بين لغة العلم ولغة الشعر، كذلك موضوع التخيّر والأسماء والصفات، وهو موضوع لا يقلّ جدّةً وطرافةً عن موضوع أصل اللغات.

ومن المحاور التي توقفت عندها هذه القراءة العلاقة بين اللغة والفكر، وهل الفكر بحاجة إلى اللغة؟ وهل اللغة بحاجة إلى الفكر؟، المعاجم العربية: الخلافات في المعنى بين المعاجم، وتشخيص الكرمي لهذه الخلافات والإبهام في بعض المعاني، وفي السياق نفسه تعرض هيا صالح لخطة الكرمي في نهاية الكتاب، وهي خطة تأسيسية للمعاجم ترمي إلى وضع أساس للمعاجم يتبين منه كيفية معالجة الكلمات، ليكون الحديث أو الكتابة على أساس دقيق.

وفي هذا الملف مقال للدكتور مصطفى الفار بعنوان: «حسن الكرمي.. سيرة وعطاء»، يقدّم فيه حديثاً راوح بين السيرة والشهادة الشخصية، يقول د. الفار في مقاله «حياة حسن الكرمي كشخصيته؛ حياة حافلة، صنعها بفكره وقلبه، وسخّرها لنفع وطنه وأمته، وأعماله وفيرة لا تتسع الصحائف الكثيرة لاستقصائها، ولو مضينا نستقصي مجالات عطائه وإبداعه لما اتسع المجال؛ فحسن الكرمي أديب ذوّاق، وكاتب بليغ، وباحث مدقق، لذلك جاءت دراساته مثلاً للنقاء الفكري، وأسلوبه في كتاباته أسلوب سلس واضح العبارة ومأنوس الألفاظ، يمتاز بعذوبة وخفّة تجعله لا يبحث عن الكلمات، بل تنساب بيسر وسهولة على سنّ يراعه، وألفاظه مفصّلة على قدر معانيه دون حشو أو تكرار».

وبعد، فإن في رحيل الأديب الإعلامي حسن الكرمي خسارة للأمة، لا يعوّضها إلا ذلك الإرث القيّم الذي تركه لنا، فكان رحمه الله شخصية تكرارها صعباً، لكن ليس مستحيلاً.

كلمة صاحب السمو الملكي الأمير الحسن بن طلال

حسن الكرمي: العلّامة؛ المعلم؛ الإعلامي*

أ.د. هُمام غصيب**

شرفني صاحب السمو الملكي الحسن بن طلال - حفظه الله ورعاه - بأن ندبني لألقي كلمته في هذا الحفل المهيب؛ وهو الذي اقترح إقامته أصلاً وحرّك الأمر وفاءً لأستاذه.

فسموّه أوفى الأوفياء؛ والوفاء رأس الفضائل. ولكم سمعته يشيد بفضائل أساتذته وأفضالهم؛ خصوصاً الأساتذة الثلاثة الذين علمُوه العربية: الأستاذ حسن الكرمي والشيخ إبراهيم القطّان والشيخ نديم الملاّح، رحمهم الله جميعاً وأسكنهم فسيح جنانه.

كما كان يزور أباً زياد في بيته بين الآونة والأخرى، ولولا التزاماتٌ طارئة، لكان سموه في مقدمتنا: يؤبن ويرثي ويترحّم.

رحم الله أستاذنا الكبير أبا زياد، وألهمنا جميعاً الصبر وحسن السلوان.

---

* نصّ كلمة سموّ الأمير الحسن بن طلال في حفل تأبين الراحل حسن الكرمي، الذي نظّمه مجمع اللغة العربيّة الأردني في مقرّه بعمّان يوم السبت الموافق ١٦ /٦/ ٢٠٠٧.

** الأمين العام الأسبق لمنتدى الفكر العربي.

بسم اللهِ الرّحمن الرّحيم

والصّلاةُ والسّلام على نبيّه الأمين

وعلى آلهِ وصَحبهِ ومَن والاهُ أجمعين

السّلام عليكم ورحمةُ الله وبركاتُه

نجتمعُ في هذه الأمسيةِ الحانية الرقراقة لنتذكّرَ بكلِّ محبّةٍ واعتزاز علَماً من أعلام اللغة والإعلام: أُستاذي حسن الكرمي (أبا زياد) الذي لا يُبارى في شغفه بلغةِ الضاد، ولا يُجَارى في ولَعِه بالمُعجم العربيّ.

لقد كان العلْمُ لديْه تماماً كما قال الإمام عليّ (كرّم الله وجْهَه) دينٌ يُدانُ به؛ به يكسبُ الإنسانُ الطاعةَ في حياتِه وجميلَ الأُحدوثَةِ بعد وفاتِه؛ والعِلمُ حاكِمٌ والمالُ محكومٌ عليه.

عرفتُه معلّماً ومربّياً وإنساناً كبيراً يؤمنُ بقوّةِ الفكر وقدرته على إحداثِ التغيير المبدع. فجاءت مساهمتُه في مجال الإعلام تجسيداً لإيمانه بأنّ الإعلام العالِمَ الحكيم إنما ينهضُ بدوْر المعلّم والمربّي وناقلِ الخبَر الصادق الصدوق. فمن منّا لا يذكرُ بحنين ودفء برنامج «قول على قول» الذي أمتعَ الملايين من المستمعينَ العرب على امتداد ثلاث وثلاثين سنة، وجُمع في تلك المجلّدات القَشيبة التي ستبقى مَعيناً لا ينضب لمحبّي ديوان شعرنا المَهيب؟ ولعلّ قوْلَ الجاحظ في هذْين البيتيْن يصوّر التلاقي الذي جمعَ دوْماً بين حسن الكرمي ومستمعيه وَقرائه، إذْ يقول:

يَطيبُ العيْشُ أنْ تلْقى حَكيماً	غَذّاهُ العلْمُ والفَهْمُ المُصيبُ
فَيَكْشِفَ عنْكَ حَيْرةَ كُلّ جَهْلٍ	وفَضْلُ العِلْمِ يَعْرِفُهُ اللّبيبُ

الأخواتُ والإخوة:

يقول الإمام علي (كرّم الله وجهَه): «كلُّ إناءٍ يَضيقُ بما جُعِلَ فيه إلاّ وِعاء العلْمِ فإنّه يتّسعُ». وهذا حال فقيدنا الغالي، صاحب «المنار» و«المُغني» و«الهادي»، الذي «لمْ يتوقفْ عن طلبِ العلم والعمل بذكائه المتوقّد وذاكرتِه الحاضرة وجَلَده المعهود؛ فكان إنتاجُه بارزاً شامخاً في مجالِ العمل المعجميّ.

أختمُ حديثي عن علاّمتِنا الجليلِ بهذهِ الأبيات للإمام علي (كرّم الله وجهَه):

ما الفخْرُ إلاّ لأهْل العلْم إنّهُمُ	عَلى الهُدى لِمَنِ اسْتَهْدى أدِلاَّءُ
وقَدْرُ كُلِّ امْرِئٍ ما كانَ يُحْسِنُهُ	والجاهلونَ لأهْلِ العلْمِ أعداءُ
فَفُزْ بعِلْمٍ تَعِشْ حيّاً بِهِ أبداً	النّاسُ موْتى وأهْلُ العِلْمِ أحياءُ

ستبقى ذكرى أبي زياد حيّةً عطرة في قلوبنا وعقولِنا وستبقى أعمالُهُ اللغويّة والمعجميّة منارةً لنا جميعاً.

رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيحَ جنانه مَعَ الأبرار والأولياء. وسلام عليك يا أبا زياد؛ سلام عليك يا أُستاذي العزيزَ الجليل.

أحيّيكمْ؛ وأسلِّمُ عليْكم.

حسن الكرمي ... العلّامة اللغوي

أ.د. عبد الكريم غرايبة*

إنمـا حيّــر فـكري عجبـا كونهـم جرموا مثلي بريء
والـذي لفـــق عني كــذبـا صـلبـــوه مذ رواه مفتري
وترى الظالم مهما استكبرا يأتــه المــوت بـأدنى سبب
ظلمـوا واللـه فيمـا حكموا حين ألقـوني بسجن أبدي

هذه أبيات من موشح طويل لوالد حسن الكرمي نشرها عيسى اسكندر المعلوف في «الهلال» في آذار ١٩٢٠. والعائلة غريبة. ولد أفرادها في دمشق لا في فلسطين. وحسن هو الذي أمضى قرابة نصف عمره في لندن. وتبدو لي صلتهم بدمشق طبيعية. فأهل منطقة طولكرم - قبطية - جماعيل وصلوا إلى دمشق حوالي عام ١١٠٠ ميلادية هاربين من الإفرنج قائلين إنهم هربوا بدينهم «وهو أغلى ما نملك» لأننا قوم صالحون، فرحب أهل دمشق بهم وسمّوا حياً باسمهم «الصالحية»، والصالحية ومنطقة جماعيل أو جماعين هما المنطقتان الوحيدتان في بلاد الشام اللتان ينشر فيهما المذهب الحنبلي.

* شيخ المؤرخين الأردنيين، كان أستاذ شرف في الجامعة الأردنيّة، وعضواً في مجلس الأعيان ٢٠٠٥ - ٢٠٠٧. انتقل إلى رحمة الله تعالى عام ٢٠١٤.

الشيخ سعيد الكرمي، ناظم الأبيات، هو والد حسن الكرمي. وكلاهما وباقي الأولاد درسوا في مكتب عنبر وبعضهم التحق بالأزهر. وأنا أفهم صلة الارتباط بالشام- الشام الله يعمرها هي البلد الوحيد التي ينسى الإنسان فيها غربته ويشعر فيها أنه مواطن عادي مثل الآخرين حرية أو عبودية. ولد الشيخ سعيد في طولكرم عام ١٢٦٧هـ/١٨٥٢م، والتحق بالأزهر واتصل بجمال الدين الأفغاني ولازم الشيخ محمد عبده. وتعلم منهما موقفاً معيناً من السلطة ليس فيه مغالاة في الولاء أو المعارضة. وعاد الشيخ إلى بلده مفتشاً لمعارف قضاء بني صعب، ثم مفتياً لطولكرم. وقام بنشاط سياسي، وانضم إلى حزب اللامركزية، ولما بدأ جمال باشا محاكماته سيق الشيخ إلى المجلس العرفي الذي حكم عليه بالإعدام واستبدله بالسجن مراعاة لكبر سنّه. وقضى في السجن في دمشق عامين ونصف إلى أن صدر العفو عنه في شباط ١٩١٨.

واستقر في دمشق ليصبح أحد الثمانية الذين تألف منهم المجمع العلمي العربي الذي ترأسه محمد كرد علي وأصبح الشيخ سعيد نائباً له. كانت الدولة السورية قد واجهت بحزم ونشاط مشكلة التعريب وإقامة دولة عربية. وألفت لجنة للترجمة والتأليف في ٢٨ تشرين الثاني ١٩١٨، أي بعد شهر من قيام الدولة. وانقسمت اللجنة إلى لجنتين، واحدة للمعارف، وأخرى لإصلاح اللغة العربية. بتاريخ الثامن من حزيران ١٩١٩ سمّي المجمع العلمي. وعقد المجمع أولى جلساته في مقره الرسمي في المدرسة العادلية في الثلاثين من تموز. وضم المجمع السادة محمد كرد علي رئيساً وأمين سويد وأنيس سلوم وسعيد الكرمي ومتري قندلفت وعيسى إسكندر معلوف وعبد القادر المغربي وعز الدين علم الدين ثم طاهر الجزائري. ويلاحظ انتفاء النزعة الدينية والعرقية والإقليمية من المجموعة. وعقد المجمع خمساً وخمسين جلسة خلال أربعة أشهر ثم توقف عن العمل بسبب نفاذ المخصصات. ولكن هذا النشاط كان كافياً لإعطاء البلاد صبغة عربية عجز الفرنسيون خلال ربع قرن عن تغييرها. أصبحت الدولة

عربية رغم أنف الانتداب. واختارت شعاراً لها يجهله أعضاء مجمع دمشق اليوم، وهو بيت شعر للفرزدق:

وحبي لكم ساق الهوى من بلاده إلى منبت الزيتون من منبت النخل

وجاء الاحتلال الفرنسي ليتوقف النشاط مؤقتاً ويعطي المجمع لاحقاً ثوباً إقليمياً أكثر وضوحاً. وغادر الشيخ سعيد دمشق إلى عمّان لينضم إلى الأمير عبد اللّه بن الحسين - الملك المؤسس - عام ١٩٢٢. وكان الأمير الملك المؤسس قد قام بعمل جليل لم يفهمه الناس إلا بعد زمن طويل. فقد أقام دولة بحدود فلكية اعتمدت التقاء دوائر عرض مع خطوط طول والتزمت أضلاعاً ومثلثات وأشكالاً هندسية تميزت بطول مفرط جعلها أطول البلاد العربية حدوداً بمعدل عشرين كيلو متراً لكل ألف كم مربع من المساحة؛ أي ضعف نسبة سوريا وثمانية أمثال الجزائر أو السودان أو ليبيا أو مصر. كان الكيان العربي الوحيد الذي لم يطالب أهله بإقامته. ولو طالب به أردني عام ١٩٢٠ لاتهم بالخيانة.

وجاء الأمير واتجاهاته وحدوية تماثل عواطف الناس. واعتبر الكيان الأردني خطوة لبناء وحدة وقاعدة لها. كان هدف الإنجليز مناقضاً لهدفه. أراد الإنجليز من رعاية الكيان جعله محمية بشرية لإيواء النازحين عند قيام الدولة الشريرة. ولكن عبد اللّه كان يعي بأن والده هو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي جعل لقبه ملك البلاد العربية «ملك كل العرب» وكان الحسين أول قائد لحركة ثورية نهضوية سنية لا يدعي قائدها الإمامة رغم هاشميته. وجعل عبد اللّه اسم البلد بالإنجليزية مسبوقاً بحرف تعريف The Jordan التي أسقطت بعد وفاته بإصرار من السفير البريطاني.

ورحب الأمير بالشيخ سعيد وجعله قاضياً للقضاة ووكيلاً للأمور الشرعية ورئيساً لمجلس المعارف. وحاول الأمير أن يؤسس مجمعاً علمياً لغوياً عام ١٩٢٤

يكون الشيخ سعيد رئيساً له. وضم المجمع كلا من رضا توفيق ومصطفى الغلاييني ورشيد بقدونس ومحمد بك الشريقي اللاذقاني مدير جريدة «الشرق العربي». ولكن عمل المجمع لم يتواصل وبدأ الأعضاء بمغادرة الأردن للعودة إلى مواطنهم. واعتزل الشيخ سعيد العمل مثلهم وعاد إلى طولكرم عام ١٩٢٦. ومات الشيخ في بلده يوم الأحد الخامس من ذي القعدة ١٣٥٥هـ/١٨ آذار ١٩٣٨م. ورثته مجلة مجمع دمشق بمقال طويل كتبه الدكتور عدنان الخطيب قرابة عشر صفحات.

وأحسن الشيخ تربية أولاده فبرزوا بالفقه والأدب والشعر. وكان أبرز أولاده أحمد شاكر بن سعيد وعبد الكريم المشهور بأبي سلمى وحسن. عاشوا في دمشق لم يشعروا فيها بغربة وبدت لهم مثل طولكرم أو أقرب إلى قلوبهم. وعاشوا فيها فترات هادئة قصيرة تتسلل فيما بين الثورات والنكبات. وواجهوا محاولتين غير محببتين هما الحداد الدائم وسعي المبشرين لتغريب النصرانية وتنصير العربية. أما الحداد الدائم فقد مثله سيطرة رجال الدين المسلمين والمسيحيين على اللغة والأدب فكسوها بالحزن والثياب السوداء. ونحن نشاهد اليوم محنة الحداد الذي تعيشه لبنان بعد مقتل الحريري. وقد قتل الملك المؤسس واثنان من رؤساء الوزارات فلم نعلن الحزن.

وشارك أحمد شاكر بن سعيد بقوة في الأدب والشعر والفكر. كان يتوقد شباباً لكن مشاركته كانت كالشعلة، أومضت ولكن لم تهيأ لها الأسباب لاستمرارها، فانتقل إلى رحمة الله وهو في الخامسة والثلاثين من عمره. عمل بالصحافة محرراً في «الكوكب» المصري و«القبلة» الحجازية و«الفيحاء» الدمشقية. وجاء الشام ليؤسس الرابطة الأدبية برئاسة الشاعر خليل مردم بك وعضوية محمد الشريقي. وأصدرت الرابطة مجلة باسم «الرابطة» نشر فيها ما ترجمه عن الإنجليزية والفرنسية ووقع مقالاته باسم قدامة. وأصدر «الميزان» في الأدب والسياسة. واعتبره أهل زمانه مازني الشام وعقاده. ونشر مجموعة

قصص «الكرميات» في مصر عام ١٩٢١، و«مي» في دمشق عام ١٩٢٢ مترجمة عن الإنجليزية، و«الوردة الحمراء» لأوسكار وايلد، وتحدث طويلاً عن الترجمة واتهم كتاب زمانه بأنهم يترجمون عن لغات لا يعرفونها. ومع ذلك كتب في رثاء المنفلوطي الذي اشتهر بترجمة رواية «في سبيل التاج» عن الفرنسية التي لا يعرفها، بإغراء من «المقطم» الناطقة باسم الاحتلال.

ويعرف الناس الأخ الآخر أبا سلمى، عبد الكريم بن سعيد (١٩٠٧-١٩٨٠) وله ديوان «المشرد» المطبوع في دمشق ١٩٥٣ المهدى إلى «أخي الفلسطيني المنشّر تحت كل كوكب» ولو عاش أيامنا هذه لوجب عليه أن يهديه أيضاً إلى أخيه العراقي واللبناني، وشعر أبو سلمى الموصوف بوحدة الهدف مع كل ثائر على الظلم والجهل وأراد الحرية لنفسه وللآخرين وخاطبهم بقوله أينما كنتم فنحن رفاق.

وقيل لنا في مجمع اللغة العربية الأردني إن الشيخ العلامة حسن الكرمي قد ترك لندن واستقر في عمّان. واعتبرنا أن ضمّه لمجمعنا مكسب كبير، وتذكرت شيخنا عندما ذهبت إلى القسم العربي لهيئة الإذاعة البريطانية لأعرض ما كتبته عن مشروع بيفردج للضمان الاجتماعي الذي افتخرت به بريطانيا العمالية آنذاك. وأنا لم أقر ذلك التقرير بمقالتي، وأذعته، وفرح أهلي بسماعه، واشتريت أول راديو في حياتي، وطمعت فكتبت مقالاً عن موضوع اعتقدت أني أعرفه أكثر من أي إنسان آخر وهو موضوع الشركات المنظمة Regulated Companies، فلم يجد المقال قبولاً، واضطررت إلى تعديله مراراً كي يصبح مقبولاً. واعتبرت الأمرين نكتة، وضحكت وقبضت. وكسبنا الشيخ عضواً في المجمع، وجلس معنا وشرفنا وجوده وأغنانا وأمتعنا، ثم أثارنا بتعليقاته الجريئة والصائبة غالباً. وقال لنا أمراً لم يقره أكثر الأعضاء حول الإعراب فغضب وقاطعنا، وأخطأنا إذ لم نحاول استعادته بصورة جدية.

أرسل الأستاذ الدكتور رئيس المجمع بتاريخ ١٩٧٨/٩/١٢م رسالة إلى الأستاذ حسن سعيد الكرمي يخبره بأنه استناداً إلى الفقرة ج من المادة ٩ من قانون مجمع اللغة العربية رقم ٤٠ لسنة ١٩٧٦، قد تقرر منحه عضوية شرف في مجمع اللغة العربية الأردني «تقديراً لما قدمتموه للغة العربية وثقافتها ولتاريخ العرب وحضارتهم من خدمات جليلة هي أهل لكل تقدير».

وكان المرحوم قد قدم كشفاً ذاتياً ذكر أنه ولد في ١٩٠٥/١٢/٣١ في طولكرم، وأنه درس في المكتب السلطاني الثانوي أي مكتب عنبر في دمشق ثم في القدس ولندن، وذكر أسماء بعض مؤلفاته المنشورة وهي خمسة أجزاء من «قول على قول» التي يتوقع وصول عددها إلى عشرة وقاموس «المنار» والقاموس «المغني» والكبير والأكبر إنجليزي/ عربي، وعربي/ إنجليزي.

واستوقفني في هذه السيرة أمور بارزة:

أولاً: أن العائلة رغم فلسطينيتها هي شامية أيضاً، والشام هي المدينة الوحيدة التي لا يشعر العربي فيها أنه غريب - الله يعمرها.

ثانياً: أنه درس في مكتب عنبر الذي كان المدرسة الثانوية الوحيدة في بلاد الشام، وعنبر هو يهودي غني بنى داراً جميلة قرب قصر العظم التاريخي وتفوق عليه، وأنفق على البناء حتى أفلس فوضعت الدولة يدها على البناء وجعلته مدرسة، وقد زرته قبل ثلث قرن وفوجئت بأن أحداً من الطلاب خلال قرن لم يحفر اسمه أو شيئاً على «رحالي» أو مقاعد الدراسة وهذا أمر نادر وغريب.

كانت عنبر جميلة كما كانت قبل زيارتي بقرن، وهو ما لا تجده في أي صف مدرسي أو جامعي، كانت مدرسة داخلية وحّدت عواطف واتجاهات طلاب من الشمال إلى الجنوب، وأخذت نسخة صورة للشيخ مصطفى الزرقاء وهو يتحدث بود شديد إلى خالد بكداش - رحمهما الله - إذ كانا زميلين في صف واحد، وأدرك المرحوم أبو خلدون/ساطع الحصري أهمية المدارس الداخلية في توحيد أبناء الوطن الواحد فطبقها في العراق.

حسن الكرمي وريادة الإصلاح اللغوي

أ.د. عبد الكريم خليفة*

أيها السيدات والسادة:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فقد تفضل صاحب السمو الأمير الحسين بن طلال، بما عرف عنه من رعاية للعلم ورجال الفكر، برعاية تأبين الأديب اللغوي، والمعجمي، والإعلامي المعروف، العالم الجليل الأستاذ حسن الكرمي رحمه الله.

فقد ولد فقيدنا الكبير في عائلة كريمة ذات حسب ونسب، وفي بيت علم وفضل في مدينة طولكرم بفلسطين في ١٩٠٥/١٢/٣١م، على وفق ما سجَّله في ترجمة حياته. وكان والده المرحوم الشيخ سعيد بن علي الكرمي، قد ولد في طولكرم عام ١٢٦٧هـ الموافق عام ١٨٥٢م، في أسرة فلسطينية، جدُّها الأول انتقل إلى فلسطين من مصر، من إقليم «محافظة الشرقية»، ويعيد نسبة الأعلى كما يروي، إلى اليمن، قادمين مجاهدين في جيوش الفتح الإسلامي.

---

* أستاذ الأدب العربي ورئيس الجامعة الأردنية الأسبق؛ ورئيس مجمع اللغة العربية الأردني السابق.

وقد تلقى سعيد الكرمي تعليمه الأول في طولكرم، ثم بعثه والده إلى مصر للالتحاق بالجامع الأزهر، وبعد تخرجه فيه، عاد الشيخ سعيد إلى بلده في فلسطين، فانتسب إلى سلك التعليم، ثم عُيِّن مفتشاً للمعارف في قضاء بني صعب، ثم تولى منصب الإفتاء في قضاء طولكرم... في أثناء ذلك، كانت طلائع النهضة العربية المعاصرة بدأت بالتحرك. فالتحق الشيخ سعيد الكرمي برجالها مُنتسباً إلى جمعية «حزب اللامركزية العثماني». وعشية اندلاع نار الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م، كان الشيخ سعيد الكرمي في عداد من سيق أمام المجلس العرفي في عالية (لبنان) عام ١٩١٥م، وكان اسمه مع من حكم عليهم بالإعدام غير أنه، نجا من الموت الذي لاقاه رفاقه الأحرار، بفضل سنّه التي كانت قد تجاوزت الرابعة والستين.

ولما قامت في دمشق، الدولة العربية، بزعامة المغفور له الملك فيصل الأول ابن الحسين، اختارت الحكومة الشيخ سعيداً الكرمي عضواً في الشعبة الأولى للترجمة والتأليف «نواة المجمع العربي» بدمشق. وبعد اجتياح الجيوش الفرنسية الدولة العربية، واحتلال سورية لبَّى الشيخ سعيد دعوة الحكومة العربية، بزعامة المغفور له الأمير عبد الله بن الحسين، التي قامت في شرقي الأردن، وتحت اسم «إمارة الشرق العربي»، وغادر دمشق في أوائل شهر أيار عام ١٩٢٢م، إلى عمَّان، وفيها أسندت إليه الحكومة منصب قاضي القضاة ووكيل الأمور الشرعية.

وكان من أعمال الشيخ سعيد الكرمي المجمعية في خدمة اللغة العربية، لغة العروبة والإسلام، في مطلع إقامته بعمّان، تعيينه رئيساً «للمجمع العلمي» بعمّان. فبتاريخ ٤ ذي لحجة عام ١٣٤١ هـ الموافق ١٧ تموز عام ١٩٢٣م، تلقى رئيس الحكومة الأردنية من رئيس الديوان الأميري، بعمّان، الكتاب ذا الرقم (٨٠٥) ومما جاء فيه نصاً:

«...فقد صدرت إرادة سيدي ومولاي صاحب السمو الملكي المعظم، بتأسيس «مجمع علمي»، بحماية سموه العالي، يكون رئيساً له سماحة الأستاذ وكيل الأمور الشرعية، الشيخ سعيد الكرمي، وأعضاؤه: الفيلسوف العلامة رضا توفيق بك، والأستاذ اللغوي المفضال الشيخ مصطفى الغلاييني، والأستاذ الفاضل السيد رشيد بقدونس، ومدير الجريدة الأديب السيد محمد الشريقي، ليكونوا أعضاء عاملين، ينتخبون إخوانهم من الأعضاء الفخريين في الأقاليم العربية كافة على الطريقة التي يقررونها...».

وتروي لنا الوثائق التي بين أيدينا، أن هذا المجمع العلمي، بدأ أعماله في عمّان، وعقد أعضاؤه العاملون برئاسة الشيخ سعيد عدداً من الجلسات، قرر فيها جملة من المقررات المتعلقة باللغة العربية والمصطلحات الإدارية، إلا أن عوامل عديدة، أدت بعد فترة من الزمن إلى توقف أعماله ثم إلغائه. وظل الشيخ سعيد الكرمي يشغل منصب وكيل الأمور الشرعية (قاضي القضاة)، في حكومة «الشرق العربي» التي أصبحت تسمى فيما بعد حكومة «شرقي الأردن». وفي عام ١٩٢٦م، اعتزل الشيخ سعيد الكرمي، المناصب الحكومية، وعاد إلى مدينته طولكرم، وعاش بقية حياته فيها، حتى انتقل، رحمة الله، إلى جوار ربه يوم الأحد في (٥) ذي القعدة عام ١٣٥٥هـ الموافق (١٨) آذار عام ١٩٣٥م، ودفن في ثراها. وكان من أبنائه، فقيدنا الكبير أبو زياد.

نشأ الأستاذ حسن بن الشيخ سعيد الكرمي في هذه البيئة الثقافية والفكرية واللغوية، حيث كان والده شيخه الأول. وتلقى تعليمه الابتدائي في طولكرم، ثم في دمشق (في المكتب السلطاني الثانوي)، ثم في القدس، ثم في لندن. وقد عمل -رحمه الله- معلماً للغة الإنجليزية في مدارس حكومة فلسطين وفي الكلية العربية بالقدس، ومساعداً للمفتش في إدارة المعارف لحكومة فلسطين عام ١٩٣٩م، ثم

مفتشاً، ولما انتهى الانتداب البريطاني على فلسطين عام ١٩٤٨م، وحلَّت النكبة لجأ إلى دمشق، ولم يمكث بها إلا قليلاً، والتحق بالقسم العربي في هيئة الإذاعة البريطانية مراقباً للغة العربي، واشتهر ببرنامجه المعروف: «قول على قول»، الذي استمر في تقديمه ثلاثين عاماً متتالية، ونشر في اثني عشر مجلداً.

وبتاريخ ٨ شوال عام ١٣٩٨ هـ الموافق ٩ أيلول عام ١٩٧٨م، منح عالمنا الكبير عضوية الشرف في مجمع اللغة العربي الأردني، اعترافاً بعلمه وفضله وبما قدَّمه من أعمال لغوية جليلة، ومعاجم ضخمة ومهمة، أحادية اللغة وثنائياتها، أغنت الخزانة العربية، ومن مؤلفاته المنشورة، رحمه اللّٰه:

١- «**قول على قول**» الذي أشرنا إليه سابقاً.

٢- «**الصلاة والعبادة في الإسلام**» (باللغة الإنجليزية، لندن، عام ١٩٦٩م).

٣- «**قداسة فلسطين عند المسلمين**» (باللغة الإنجليزية)، لندن، عام ١٩٧٠م.

٤- «**المنار**»، قاموس إنجليزي- عربي، بيروت- لبنان عام ١٩٨١، (٩٠٣ صفحة).

٥- «**المغني الأكبر**»: معجم اللغة الإنجليزية الكلاسيكية والمعاصرة الحديثة، بيروت- لبنان، عام ١٩٨٧، (١٧١٠ صفحة).

٦- «**الهادي إلى لغة العرب**»: قاموس عربي- عربي، بيروت- لبنان، عام ١٩٩١م، (أربعة مجلدات).

٧- «**المغني زائد**»: قاموس تدريس فعَّال في تعليم الإنجليزية، بيروت- لبنان، عام ١٩٩٤، (٧٢٢ صفحة).

٨- «**المغني الوسيط**»: قاموس عربي- إنجليزي، بيروت- لبنان، عام ١٩٩٩، (٨٣٧ صفحة).

٩- «**اللغة: نشأتها وتطورها في الفكر والاستعمال**».

١٠- «**سيرة قط**».

وله من الكتب المترجمة كتاب: «**التفكير المستقيم والتفكير الأعوج**»، تأليف روبرت هـ. ثاولس.

وقد شارك المرحوم الأستاذ حسن الكرمي في الموسم الثقافي الأول لمجمع اللغة العربية الأردني، الذي استمر من (٢) نيسان إلى ٢٨ أيار عام ١٩٨٣م، وكان عنوان بحثه: «**المعجم العربي والتعريب**». وقد نشر في كتاب «الموسم الثقافي الأول» (٢ نيسان- ٢٨ أيار عام ١٩٨٣)، وقد أغنى- رحمه الله- مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، بعددٍ من البحوث والتعقيبات المهمة منها:

١- **أبو العلاء المعري في** «**سقط الزند واللزوميات**» (العدد: ٢٢-٢١).

٢- **تساؤلات** (١)، (٢)، (٣) (الأعداد: ٢٣-٢٤، ٢٧، ٣٠).

٣- حول كتاب «**التفاضل والتكامل**»، (العدد: ٧-٨).

٤- حول كتاب «**المقنع في الفلاحة**»، لابن حجاج الأشبيلي (العدد ١٩-٢٠).

وله مصنفات أخرى غيرها ما زالت مخطوطة، وستكون هذه المصنفات المهمة، موضوعات لدراسات لغوية وفكرية متعمقة وجادة، تبيّن جهوده اللغوية الثرَّة، في إصلاح المعاجم العربية، وتلقي ضوءاً على آرائه في الإصلاح اللغوي، وموقفه من اللغة العربية الفصيحة واللغة المحكية واللهجات العامية..

وفي مجال اعتزازه - رحمه الله - بالتراث وباللغة العربية، سأكتفي في هذه الكلمة التأبينية، بالإشارة إلى المجلدات الاثنتي عشرة التي نشرت من برنامجه الإذاعي المشهور «**قول على قول**»، وكنتُ أحد المعجبين بسماعها من الإذاعة البريطانية بإلقائه الجميل ونبرات صوته المؤثرة، وقد ذكر أن فكرة البرنامج تنبع من محاولته لإيجاد وسيلة تؤدي بالناس عامة، وبالطلاب خاصة،

إلى التعرف على اللغة العربية، وأساليب التعبير عنها، وذلك عن طريق الأشعار والأقوال في مناسباتها، لأن مناسبة القول في بيت الشعر عون على فهم معناه بالتحديد. وقد جاء في «الإهداء» الذي زيَّن به المجلد الأول من هذا الشعر الجليل قوله: «إلى إخواني العرب الذين يحرصون على حفظ تراثهم وتمجيد تاريخهم، والإبقاء على آدابهم ولغتهم، أقدِّم هذا الكتاب».

وفي مجال المعجمي والمجمعي، في مجمع اللغة العربية الأردني، أود أن أتوقف عند محاضرته المهمة التي ألقاها، في الموسم الثقافي الأول، كما أشرنا سابقاً، تحت عنوان: «**المعجم العربي والتعريب**».

استهل العالم الجليل - رحمه الله - محاضرته بقوله: «المعجم العربي والتعريب موضوع خطير، كما ستسمعون قريباً، وما كنت لأجرؤ على الوقوف أمامكم، أتحدث إليكم عنه، لولا أنني وجدت في نفسي شيئاً من الصلاحية لذلك...». وبعد أن يمزج تواضع العلماء، بخبراته العميقة وممارسته الطويلة اللغوية والمعجمية، وما عاناه في تحقيق معاني الكلمات ومعاني المترادفات، عندما كان يترجم، وما خلص إليه فكره في حال المعاجم العربية التي بين أيدينا، يقول: «إن المعاجم العربية التي بين أيدينا، تحتاج إلى وضع جديد، فيه تصحيح وتنقيح وتوضيح، حتى تكون وافية بالغرض، ويستفاد منها، وهي في حالتها الحاضرة عاجزة عن الوصول بنا إلى الهدف، وقاصرة عن الوفاء بما يراد منها من صحة ودقةٍ وجلاء، بحيث يستطاع استخدامها في استنباط، أو وضع مصطلحات حديثة، فارزة قاطعة، إزاء المصطلحات الطارئة وغير الطارئة في العلوم والصناعات والفنون والآداب، وبقاء هذه المعاجم على ما هي عليه من الخلط والتشويش، هو من أعظم الأسباب في عدم التوفُّق إلى حدٍ كبير

في مصطلحاتنا في العصر الحديث. وأقول: إن عدم الدقة في معاني الكلمات أو الخلط بين معنى وآخر، وسوء الفهم، أورثت فينا تشويشاً في الفكر وعدم الدقة في التفكير فلا غرابة في أن يكون شعبٌ ما فقيراً في تفكيره، إذا كانت لغته تفتقر إلى الصحة، أو كان مشوش الفكر والتفكير، بعامل التشويش في لغته...».

ويخلص الأستاذ الكرمي - رحمه الله - إلى القول: «فلا بدَّ إذاً من معجم عربي يتفادى هذه العيوب والنقائض، فيأتي بالمفردات مرتبة ترتيباً سهلاً، ويشرحها شرحاً يميّز كل مفردة عن غيرها، ويتركها جلية المعنى، ليس في ذلك لَبْس ولا إبهام، حتى إذا ذكرت المفردة أو الكلمة، قامت بالذهن صورة واضحة المعالم لمدلولها، كأنها شيء ملموس أو محسوس، فلا يتطرق الشك إلى معناها، ولا الخلاف حول دلالتها...».

ويؤكد الأستاذ الكرمي نهجه في لغة الشرح بأن تكون مأنوسة، متصلة بالحياة العامة، وأن تكون صور المعاني واضحة ومألوفة، مع ذكر الأمثلة الكثيرة للشرح والتوضيح...

وأُجمل الأسباب التي من أجلها قصّر المعجم العربي، وجعلها في ثلاثة عشر بنداً، كانت مدار نقاشٍ وأثارت أحياناً جدلاً حاداً...

كان - رحمه الله - في ذلك كله يردم إصلاح المعجم العربي... واستدرك على بعض المفاهيم الواردة في بحثه أنه كان يقصد بها «وضع المعجم التاريخي للغة العربية» الوسيلة الأساسية للإصلاح المعجمي، فاللغة هي الأساس والمنطلق إلى تنظيم الفكر وتصحيح المفهومات... وربما مزج النقد بالسخرية اللاذعة، مثال ذلك، ما أسماه «عمل من أراد الإصلاح فأفسد». إذ يقول: «ومن أعمال الإفساد في العالم العربي، إرغام الناس، ولا سيما في الجزيرة العربية والخليج

العربي على استعمال أسماء الأشهر الإفرنجية، مثل: يناير، فبراير، ويونيو، ويوليو، واكتوبر، ونوفمبر... إلخ. بدلاً من الأسماء المعرَّبة الأخرى مثل: كانون الثاني، وشباط، وحزيران، وتموز، وتشرين الأول، وتشرين الثاني...» ويواصل القول: «والغريب أن الذين يحضون على استعمال هذه الأشهر الإفرنجية يتعصبون لها ضد الأشهر المعرَّبة الأخرى، مع أن الأب أنستاس ماري الكرملي، قال: إن أسماء الأشهر الإفرنجية هي آخر ما تبقى من الاستعمار في مصر...».

ويتحدث فقيدنا عن العالم اللغوي الذي يتقن على حدٍّ قوله، اللغة الإنجليزية، ويكتب بها كما يكتب بالعربية، عن حال الترجمة إلى العربية ومنها وعن حال التعريب في الوطن العربي، وينقد أساليبها ومناهجها الحديثة نقداً علمياً، ولم تفته روح النكتة الساخرة، عندما صوَّر حال الترجمة والمترجمين...!! وأنهى حديثه فيما يتعلق بتكوين المترجمين الثقافي واللغوي والعلمي، بما عرف عنه من سخرية، يلفُّها كثير من التشاؤم، فيقول: «وفي العالم العربي الآن اختلط الحابل بالنابل، وضاعت المقاييس والمعايير في الشعر والأدب واللغة، حتى صحَّ أن يقال: يستشهد ببيت من الشعر)...!!

كان تطوير المعجمية العربية شغله الشاغل وهمه اليومي، فأنجز المعاجم العربية الثنائية منها والأحادية في مجلدات ضخمة، فقدَّم سلسلة معاجم ابتدأ بـ «المنار» عام ١٩٧٠م، وختاماً، أستذكر حياة هذا العالم الجليل، التي وقفها على خدمة اللغة العربية وتراثها العظيم. وأسأله تعالى أن يتقبله بواسع رحمته.

حسن الكرمي وإنجازه المعجمي والثقافي

فخري صالح*

لا أحد يشبه في منجزه الثقافي العلامة الراحل حسن الكرمي، فقد كان مؤسسة في رجل؛ ألف معاجم وكتباً تضطلع بها مؤسسات كبيرة وتعمل على إنجازها فرق من الباحثين والمتابعين والمتخصصين. لكنه في غياب المؤسسات وتخليها عن أدوراها الحقيقية في العالم العربي، آلى على نفسه أن ينجز عدداً من القواميس الفريدة التي تفتح اللغة العربية على العصر، وتجعل هذه اللغة العظيمة مطواعة للأفكار والمنجزات الجديدة التي تعبر عنها الكلمات الإنجليزية.

لقد كان يرى أن تحول العرب إلى نَقَلة عن الحضارة الغربية يجعل ترجمتهم للمصطلحات والتعابير الجديدة، التي لا مقابل لها في العربية، غائماً بعيداً عن المعنى الذي تدل عليه تلك التعابير. ومن ثمّ فإن على من يؤلفون القواميس ويسعون إلى ترجمة المصطلحات أن يحفروا عميقاً في ذاكرة اللغة العربية لكي يوجدوا مقابلات دقيقة لا تختلط بغيرها من المعاني العمومية الشائعة في اللغة.

هذه الرؤية العصرية لدور المعجم أو القاموس هي ما يميز «المنار» و«المغني الكبير» و«المغني الأكبر»، وعدداً آخر من المعاجم التي أنجزها الكرمي؛ فالرجل أراد أن يفتح اللغة العربية على الحضارة الحديثة، وأن يجعل اللغة العربية

---

* ناقد ومترجم أردني.

قابلة للتطور واللحاق باللغات الحديثة القادرة على استيعاب منجزات العصر واختراعاته وأفكاره المستحدثة.

ومع أنه كان عالماً بالتراث، متبحراً فيه، حافظاً لمئات بل آلاف من عيون القصائد في هذا التراث، إلا أن معرفته بالتراث لم تقطعه عن العصر، ولم تدفعه لكي يكون متزمتاً مغلقاً على ذلك التراث. كان برنامجه «قول على قول» عيناً على التراث ولم يكن دعوة إلى إدارة الظهر لما يحدث حولنا في عالم اليوم من تطور وتجدد وخلق وإبداع؛ وما شاهده في الحياة الغربية الحديثة في أثناء إقامته اللندنية دفعه لكي يكون أداة وصل بين حضارتين وثقافتين وعالمين آمن بإمكانية لقائهما، مخالفاً بذلك الشاعر الإنجليزي الشهير روديارد كيبلنغ الذي قال بأن «الشرق شرق والغرب غرب، ولن يلتقيا». رؤية حسن الكرمي للعلاقة بين الحضارات تمحورت حول إمكانية الحوار والتفاعل والتهجين والإخصاب المتبادل.

كان حسن الكرمي إذاً صلة وصل بين ثقافتين رأى أن كلاً منهما تمتلك سماتها الأصيلة وأزمنتها الحضارية الضاربة في عمق التاريخ، رغم انقلاب الترتيبات واندفاع الحضارة الغربية إلى المقدمة في العصور الحديثة وتراجع الحضارة العربية في الزمان نفسه. ولعل التأليف المعجمي الذي نذر الرجل نفسه له أن يكون أداته التي فحص من خلالها أشكال الاتصال، والانفصال بين الثقافات، فالثقافات تتشكل في اللغة وباللغة، ولا كاشف عن أعماقها يفوق القاموس الذي يضع اللغات مقابل بعضها بعضاً موضحاً نقاط اللقاء والافتراق. وقد كان حسن الكرمي، الذي عمل في صمت خلال قرن من الزمان، ولم يسع إلى منصب ولم يطلب الغنى في هذه الدنيا الفانية، واحداً من رسل الثقافة الإنسانية، الثقافة التي تجمع البشر ولا تفرقهم، تقيم جسوراً من التواصل فيما بينهم بدلاً من دفعهم إلى الصراع والتقاتل على الحدود والتخوم. تلك كانت رسالته التي قدمها للثقافتين الإنجليزية والعربية.

البيئة المحفّزة

ولد حسن الكرمي في نهاية حزيران أو بداية تموز من عام ١٩٠٥ لأب من رجالات فلسطين الذين برزوا في ميدان الفقه والأدب واللغة، فقد كان الشيخ سعيد الكرمي (١٨٥٢-١٩٣٨) تلميذاً لكل من جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده. واللافت أن سعيد الكرمي أنجب عدداً من الأبناء الذين غذوا السير على خطى أبيهم فكونوا حلقة الكرميين الكبار: الناقد والمترجم والصحفي أحمد شاكر الكرمي (١٨٩٥-١٩٢٧)، وحسن الكرمي، والشاعر الفلسطيني الكبير عبد الكريم الكرمي المعروف بـ «أبو سلمى» (١٩٠٧-١٩٨٠).

تلقى حسن الكرمي تعليمه الابتدائي في طولكرم، ثم انتقل إلى دمشق ليكمل تعليمه الثانوي فيها، حيث التحق بعدها بالكلية الإنجليزية في القدس عام ١٩٢٥. وقد عمل الكرمي مدرساً للغة الإنجليزية والرياضيات في مدينة الرملة وبدأ عام ١٩٣٤ يدرس في الكلية العربية في القدس التي تخرج منها معظم كتاب فلسطين ومثقفيها في تلك السنوات. تخصص الكرمي في أصول التربية والتعليم وعلم الإحصاء التربوي خلال العامين ١٩٣٧-١٩٣٨ متخرجاً في جامعة لندن. وعند عودته إلى القدس انتقل إلى إدارة معارف فلسطين برتبة مساعد مفتش. وبعد سقوط فلسطين بأيدي العصابات الصهيونية هاجر الكرمي إلى بريطانيا ملتحقاً بالقسم العربي في هيئة الإذاعة البريطانية مراقباً للغة فيها، وفي تلك الأثناء أعد سلسلة تعليم الإنجليزية بالراديو، كما أعد برنامجه المعروف «قول على قول». في عام ١٩٦٩ قلدته الملكة إليزابيث (ملكة بريطانيا) وساماً لخدماته في العمل الإذاعي، وفي عام ١٩٨٣ منح لقب عضو شرف في مجمع اللغة العربية الأردني. وقد توفي في الخامس من أيار ٢٠٠٧.

العمل المعجمي

ألف حسن الكرمي معجم «المنار» إنجليزي – عربي (١٩٧٠)، ثم أتبعه بسلسلة معاجم «المغني» ثنائية اللغة (إنجليزي- عربي)، وهي: «المغني»، و«المغني الكبير»، و«المغني الأكبر»، و«المغني زائد»، و«الوسيط، و«الوجيز». وقد كانت هذه المعاجم، التي يسند بعضها بعضاً، ويلبي كل واحد منها حاجة فئة معينة من المستعملين، نتاج عمل شخص فرد نذر حياته لفتح آفاق اللغة العربية على الإنجليزية، وتوسيع الثروة اللغوية للعرب من خلال وضع المعاجم بخاصة والترجمة بعامة.

من الواضح أن العمل المعجمي يتطلب طرازاً خاصاً فريداً من البشر، إذ عليهم أن يتمتعوا بالملاحظة الدقيقة والدأب الدائم، والقدرة على تنظيم معرفتهم اللغوية بطريقة تمكنهم من النظر إلى دخول كلمات وتعبيرات جديدة إلى اللغة، وضرورة إيجاد معادلات لغوية دقيقة لتلك الكلمات.

انطلاقاً من هذا التصور الخاص بالعمل المعجميّ فإن حسن الكرمي يرى أن «صناعة المعجم» هي أكثر صعوبة ودقة من علم الرياضيات، لأن دقائق تلك الصناعة ورهافتها، ووجود ظلال كثيرة للمعنى الذي نعطيه لأية كلمة عندما نترجمها إلى لغة أخرى، تتطلب عقلاً صافياً مدرباً على البحث، كما تتطلب معرفة بروح اللغتين التي يترجم عنها المرء أو يترجم إليها. ويشرح الكرمي طريقته في العمل المعجمي قائلاً إن «أول شيء يقوم في ذهن واضع المعجم هو قصده من وضع معجمه، وهل هو معجم ابتدائي أو متوسط أو جامعي، وهل هو لعلم من العلوم كالطب أو الكيمياء أو هل هو جامع يشتمل على عدد أكبر من الكلمات، وهل هو لتفسير معاني الكلمات بالأمثلة والشواهد أم لتعليم لغة أجنبية عن طريق الاستعمال».

يطرح الكرمي هذه المقاصد على المعاجم التي اشتغل عليها فيرى أن معجم «المنار» وهو إنجليزي- عربي (١٩٧٠) قصد منه أن يكون معجماً ابتدائياً، «فلم يكن عدد كلماته كبيراً، وكانت المعاني محصورة في المعاني الأكثر شيوعاً»، ولم يكن الاهتمام كبيراً بالمصطلحات العلمية، ولا بالاستعمالات المجازية إلا ما كان منها ضرورياً. وقد كان ذلك المعجم الأول فاتحة لسلسلة من المعاجم التي اشتغل عليها الكرمي فيما بعد، وهي: «المغني»، و«المغني الكبير» و«المغني الأكبر»، والأخير معجم موسوعي يمتاز باشتماله على وفرة من المصطلحات العلمية والأدبية والفنية. أما «المغني الكبير» فهو كما يصفه الكرمي، «صلة الوصل» بين المعجمين، «المغني» و«المغني الأكبر»، فهو يهتم بشرح المصطلحات الأدبية أكثر من اهتمامه بشرح مصطلحات العلوم، فيما يعمل الكرمي في «المغني الأكبر» على التشديد على مصطلحات العلوم وإيجاد مقابل لها في العربية وشرحها شرحاً وافياً يوضح معناها لقراء المعجم.

يتسم أسلوب الكرمي في معاجمه بالتدرج في شرح المعاني، فهو في «المغني الكبير» يشرح الكلمة الإنجليزية في أول الباب، ثم تأتي المعاني الاصطلاحية والمجازية في جمل إنجليزية ملحقة مترجمة ترجمة دقيقة. ويهدف واضع المعجم إلى إعطاء المعاني الصحيحة للكلمات الإنجليزية، التي تعد ستين ألفاً في «المغني الكبير»، كما يهدف إلى تعليم الإنجليزية عن طريق استعمالها في جمل مختارة، ومن ضمن ذلك استعمالات الأفعال مع أحرف الجر والظروف. ويرى الكرمي أنه، بطريقته في شرح الكلمات الإنجليزية، يعلم اللغة العربية بطريق غير مباشر موفراً معرفة غير مباشرة باللغتين العربية والإنجليزية اللتين يرى أنهما تختلفان عن بعضهما بغلبة الفعل في العربية، وغلبة الاسم بالإنجليزية.

ويمكن في هذا السياق ملاحظة الأمور التالية بخصوص طريقة الكرمي في ترتيب مادة معاجمه:

١- إن ما يلفت الانتباه في عمل الكرمي المعجمي هو البساطة التي تسم طريقة إعطاء المعنى وسهولة التناول والقدرة على تقريب المعاني، وعدم التداخل بين معاني الكلمات ومشتقاتها، في معاجمه الكثيرة التي ألفها؛ فهو في «المغني الأكبر» مثلاً، يرتب الكلمات ترتيباً ألفبائياً alphabetical، دون أن يلجأ إلى إدراج مشتقات الكلمة (أو الكلمة الرأسية Headword) ضمن المدخل نفسه، معطياً كل مشتق مدخلاً خاصاً به، وينبع هذا الترتيب لمادة المعجم من تصور عملي للعلاقة التي تقوم بين مستعمل المعجم والمعجم، فمن يستعمل المعجم يسعى إلى الحصول على معنى الكلمات التي يبحث عنها، وتعقيد البحث عن معاني الكلمات بإدراجها ضمن معاني أصولها الاشتقاقية يتعب مستعمل المعجم ويزهده في قراءته. ومن الواضح أن خبرة الكرمي في تعليم اللغة الإنجليزية، من خلال برامج تعليم الإنجليزية بالراديو في محطة الإذاعة البريطانية، قد نبهته إلى ضرورة فصل عملية تعليم اللغة عن طريقة تقديم معاني الكلمات في المعجم. إن المعجم يعلم اللغة بصورة غير مباشرة، كما يرى صاحب «المغني»، لكن وظيفته تتمثل في القدرة على إيصال الباحثين إلى معانيه بأيسر السبل. وهو يخالف بذلك عدداً كبيراً من المعاجم الإنجليزية-الإنجليزية، مثل معجم أكسفورد الميسر The Concise Oxford Dictionary، التي تعنى بأن تدرج معاني المشتقات ضمن الباب الذي تحدده للكلمة المشتق منها. وهو الأمر نفسه الذي تفعله بعض المعاجم الإنجليزية-العربية، ما يصعب عملية البحث في تلك المعاجم ويطيل فترة البحث عن المعاني بالنسبة للمستعملين. لكن الكرمي يستثني من ذلك الفعل ومشتقاته وأفعل التفضيل Comparative and superlative adjectives، حيث يدرجها في الحالتين تحت الكلمة الرأسية نفسها، ربطاً لها بأصولها الاشتقاقية، وتسهيلاً على مستعمل القاموس في الوقت نفسه.

٢- ثمة وفرة هائلة في العبارات أو أشباه الجمل، والاصطلاحات والأعراف اللغوية idioms، والأمثلة الشارحة، ما يجعل المعجم يمثل تمثيلاً واضحاً التطورات اللغوية والنمو المضطرد للغة الإنجليزية، ويولد في الوقت نفسه

تعبيرات موازية، ومعاني ظلية مشابهة في اللغة العربية التي ينقل إليها مؤلف المعجم الظلال اللغوية الدقيقة المتحققة في اللغة الأخرى. وقد أشار الكرمي أكثر من مرة إلى أن مشكلة اللغة العربية تتمثل في صعوبة تلك المعاني الدقيقة للمخترعات والأفكار الجديدة التي تولدت في اللغات الأوروبية، ويصعب إيجاد معادلات دقيقة لتلك الأفكار والمعاني وأسماء المخترعات. لكن الكرمي يغوص في الميراث العربي اللغوي، أو يصك معاني موازية، ليقرب المعاني الإنجليزية إلى العربية، ما أمكنه ذلك. ويورد الكرمي في معجمه (وأنا أتكلم هنا عن معاجم «المغني» التي تعد خلاصة عمل الكرمي المعجمي وقمة نضجه في ترتيب مادته المعجمية) تلك المادة اللغوية في مداخل فرعية تالياً للكلمة الرأسية. كما أنه يوفر في المعجم ظلال المعنى الدقيقة والحافة بالمعاني الأساسية والمتداولة للكلمات، وأفعال أشباه الجمل phrasal verbs التي يقوم بإدراجها بعد الكلمة الرأسية، إضافة إلى الاستعمالات اللغوية الاصطلاحية للكلمة idiomatic usages، حيث يستطيع مستعمل المعجم النظر سريعاً إلى المداخل الفرعية للكلمة متوصلاً في الحال إلى الكلمة التي يبحث عنها دون الحاجة إلى البحث عنها في سياقاتها اللغوية الأصلية المعقدة في كثير من الأحيان.

٣- مما يعد نهوضاً باللغة العربية المعاصرة، ودفعاً لها باتجاه رأب الصدع بين اللغة الفصيحة وموازياتها في اللهجات والعاميات العربية، أن الكرمي لا يكتفي حين يضع المعاني العربية للكلمات الإنجليزية بالمعاني العربية الفصيحة، بل يضيف إليها الاستعمالات الدارجة، أو العامية، لكي يبسط المعنى ويقرب الكلمات الإنجليزية الحديثة إلى الكلمات العربية الدارجة في الاستعمال اليومي. وهو بذلك يطبق نظريته اللغوية حول العربية في الزمان الحديث، وضرورة تبسيطها والتقريب بين اللهجات والعاميات العربية من جهة واللغة الفصيحة من جهة أخرى. وينطلق الكرمي في نظريته من تخلف اللغة العربية عن اللحاق بالتطور الهائل في ميادين العلم والتكنولوجيا، ما يرتب استخدام ألفاظ جديدة للتعبير عما يجد في هذه الميادين. ويرى الكرمي أن التشتت اللغوي بين الفصيحة والعاميات يضعف اللغة

العربية ويجعلها غير قادرة على التعبير بدقة عما يجب في العالم من مخترعات ومصطلحات ومعاني جديدة.

٤- يهتم الكرمي بظلال معاني الكلمات، أي بمعانيها ودلالاتها الفارقة الدقيقة، موفراً عدداً من المترادفات لكي يختار مستعمل القاموس ما يناسبه من ظلال المعنى وما يتفق ودلالة الكلمة التي يبحث عن معناها السياقي. وبهذا المعنى فإن المعجم الثنائي اللغة يوفر ما يوفره قاموس المترادفات Thesaurus، إضافة إلى المعاني التي يهدف المعجم إلى توفيرها. ولعل هذا ما يجعل معجم «المغني»، و«المغني الكبير» و«المغني الأكبر»، مفيداً لطلبة اللغة ومدرسيها والباحثين والمتخصصين في العلوم الطبيعية والإنسانية، والمترجمين الذين يجدون في «المغني» فضاءً من المعاني وظلال المعنى التي تسهل عليهم نقل معاني اللغة الإنجليزية بصورة أكثر يسراً وأكثر قدرة على نقل معاني الدقيقة لما يترجمونه.

٥- يشكو الكرمي من صعوبة إيجاد معادلات لغوية للمصطلحات العلمية والتقنية بالإنجليزية، ويعزو هذه الصعوبة إلى عدم اتفاق الدول العربية على معاني محددة لتلك المصطلحات، ما يؤدي، من وجهة نظره، إلى جعل المعادل العربي لتلك المصطلحات غائماً غير واضح. ويضيف الكرمي سبباً آخر إلى تلك الصعوبة يتمثل في السرعة الهائلة التي تنمو بها تلك المصطلحات وعدم القدرة على اللحاق بالتطور العلمي والتقني المتسارع في العالم. ولحل هذه المعضلة يورد المعاني المختلفة لتلك المصطلحات في البيئات العلمية العربية المتعددة، أو أنه يضطر إلى صك مصطلحات مقابلة لتلك الإنجليزية، في محاولة منه لإيجاد معادل عربي مقنع لها، كما أنه يوفر في الوقت نفسه شرحاً لتلك المصطلحات المعربة ليتمكن مستعمل المعجم من التعرف على المعنى الخاص بتلك المصطلحات. وهو بذلك يوفر لقارئ معجمه وفرة من المعاني والدلالات والمعاني الدقيقة والظلية التي تجعل للكلمات حياة بين دفتي القاموس.

نظرية الكرمي اللغوية

تقوم نظرية الكرمي اللغوية على ممارسته المعجمية ومعظم الملاحظات الخاصة باللغة، وطبيعة اللغتين الإنجليزية والعربية، وتتبع من عمله المعجمي الذي امتد على مدار نصف قرن. وهو في كتابه «اللغة: نشأتها وتطورها في الفكر والاستعمال» (٢٠٠٢)، الذي يمثل خلاصة تفكيره باللغة ونظرته إلى كيفية نموها وتطورها، يرى أن الأصل في اللغة هو الاستعمال، وهي ملاحظة جديرة بأن تصدر عن معجمي يهمه من اللغة تداولها بين الناس. كما أنه يفتتح كتابه بالقول إن: «اللغة في الأصل أصوات استعملها الإنسان في عهد الفكرة ليعبر بها عن حاجاته وإحساسه. وهذه الحاجات والإحساسات تكاد تكون واحدة أو متشابهة عند الإنسان البدائي في كل مكان فهو يبرد ويجوع وبعطش ويتعب ويفرح ويغضب ويتألم كغيره من البشر». (ص:٢) وهو يقول في موضع آخر أن اللغة هي «أصوات تلفظ ورموز تكتب وتقرأ بغرض الإعراب عن رغبة المتكلم أو الكاتب وإفهام تلك الرغبة إلى المخاطب»». (ص: ٧). ويستنتج الكرمي تقارب أصول اللغات من تشابه ما يسميه أصوات المحاكاة onomatopoeia فيما بينها، مثل البلبلة والجلجلة والخرخرة والصرصرة والقعقعة والنهنهة والقوقأة والقرقرة.. إلخ، وهو يورد مقابلات إنجليزية لأصوات الحكاية العربية ليدلل على نظريته اللغوية. وعلى الرغم من صعوبة التحقق علمياً من صحة هذه النظرية في نشوء اللغة، فإن الكرمي يشدد على أن «اللغة عند الإنسان الأول كانت واحدة ثم تفرعت مع رقي العقل البشري واختلاف مجتمعاته كما اختلفت اللهجات في اللغة الواحدة.» (ص: ٦).

يقود الاستنتاج السابق، الذي يورد الكرمي ما يضحضه في كلام عالم اللغة الشهير ماكس مولر عن كون تلك النظرية لا تصلح إلا «لقوقأة الدجاج وبطبطة البط» (ص: ٢١)، إلى أن «الكلام لفظاً أو كتابة عبارة عن مجموعة من الرموز اخترعها الإنسان في زمانه للدلالة على الأشياء، ولولا هذه الملكة الموجودة في الإنسان دون الحيوان تمكنه من استعمال الرموز لما كانت لغة في الوجود». (ص: ٨١)، ويورد

الكرمي، في هذا السياق، رأيين متعاكسين بخصوص علاقة اللغة بالأفكار، دون أن يتبنى أحدهما دون الآخر. فهو يقول في البداية إنه لما كانت اللغة هي قوالب للأفكار، فكلما ازدادت هذه القوالب زادت معها المفردات، كما أن الأفكار والصور الذهنية وليدة الحاجة (ص: ١٩)، ويبنى على هذا الرأي تصوراً يفيد أن كل لغة هي وليدة الحاجة، والحاجة يمليها المحيط أو الثقافة الخاصة لكل أمة وشعب. وأما الرأي المخالف لهذا الرأي فيتمثل في نظرية سابير وورف التي تقول إن اللغة هي التي تضع الأفكار وتشكلها لأن هذه اللغة هي وليدة الحاجة أو الثقافة الخاصة. وهو الفهم الذي يواصله الفيلسوف لودفيغ فتجنشتاين الذي يتحدث عما يسميه فتنة اللغة Language bewitchment، فالكلمات إذا قيلت فإنها تسد مسد مدلولاتها. وهو قول قريب من اعتباطية العلامة اللغوية التي قال بها عالم اللغة السويسري الشهير فردينان دي سوسير.

المشكلة أن الكرمي لا يتخذ موقفاً واضحاً من هاتين النظريتين حول علاقة اللغة بالفكر؛ لا يتبنى واحدة منهما، ولا ينفي الأخرى، بل يوردهما جنباً إلى جنب وكأنه حائر بينهما لا يعرف أيهما يأخذ وأيهما يترك. لكن ما يهم الكرمي في نظرته اللغوية هو أن اللغة بنت الحاجة، وهي تتطور وتنمو نتيجة الاستعمال. وهذا، كما قلنا من قبل، موقف ينبع من كون الكرمي معجمياً تهمه الطبيعة التداولية للغة في علاقتها مع الأشياء. ومن هنا فإنه يشدد كثيراً على غنى اللغة الإنجليزية، بسبب وفرة الاستعمال والحاجة اللغويين، في مقابل ضعف اللغة العربية بسبب قلة الحاجة وضعف النشاط اللغويين. وهذه بالطبع نظرة داروينية للغة، تتعامل مع اللغة بوصفها كائناً ينمو ويتطور، وترى أن اللغات تضعف، وقد تنقرض، إذ ما قلت الحاجة إليها وتلاشى الاستعمال.

قول على قول

على مدار ثلاثين عاماً وأكثر ظل حسن الكرمي يبث من القسم العربي لهيئة الإذاعة البريطانية برنامجه «قول على قول»، الذي كان يبدؤه بعبارته الشهيرة»: «وسألني سائل مَنْ القائل وما المناسبة؟» وقد ظل البرنامج يذاع حتى عام ١٩٨٩، أي حتى عودة حسن الكرمي إلى عمّان، وانقطاعه عن العمل في الإذاعة البريطانية، وتفرغه للكتابة وتأليف معاجمه الشهيرة. ولقد استقطب البرنامج ملايين المستمعين، وتلقى معد البرنامج آلاف الأسئلة. وقد ساعدت الكرمي معرفته الواسعة بالتراث وحفظه لآلاف الأبيات من الشعر العربي لكي يستطيع الإجابة على أسئلة المستمعين. وعلى الرغم من توقف البرنامج فإن برنامجاً ثقافياً آخر لم يلق الشهرة التي لقيها، كما أن فصاحة اللسان التي كان يتمتع بها حسن الكرمي والقدرة الفذة على الإلقاء قد دفعت المستمعين العرب في كل مكان لكي يتابعوا برنامجه الذي كان يمثل ثروة لغوية وشعرية تضاهي ما كتبه الموسوعيون العرب في التراث من أمثال أبي الفرج الأصفهاني في كتابه «الأغاني» وابن عبد ربه في «العقد الفريد»، وغيرهما ممن أنفقوا أعمارهم في شرح أشعار العرب وأقوالهم وحفظها للأجيال.

ومع أن الكرمي سبق أن قدم برامج أخرى في القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية، مثل «نقل الأديب»، و«لكل سؤال جواب» و«تعليم اللغة الإنجليزية بالراديو»، إلا أن «قول على قول» ظل علامة على مسيرة الكرمي الثقافية، وإنجازه الكبير في حقل آخر غير حقل تأليف المعاجم. ولهذا السبب تحول هذا البرنامج إلى موسوعة في التراث بلغ ما هو منشور منها حتى الآن اثني عشر جزءاً، وهناك جزء ثالث عشر لم ينشر حتى هذه اللحظة. وقد ترك المؤلف الأسئلة والأجوبة دون تغيير، مع بعض الإضافات القليلة، وذكر مع كل سؤال اسم السائل، كما يقول، في مقدمة تلك الكتب، «إثباتاً لصحة السؤال». ويعلق في المقدمة أيضاً قائلاً إنه لم «يقصد بأجوبته في ذلك البرنامج أن تكون دراسة أدبية ولغوية مستقصاه». وإنما أراد أن تكون تلك الأجوبة «للإمتاع والتسلية

والتعريف بشيء من ذخائر الأدب العربي وطرائفه». لكننا إذ نراجع أجزاء «قول على قول» الاثني عشر سندهش للمعرفة الواسعة، والدقة في إيراد الحجج المختلفة للرواة وجامعي ذخائر العرب. إنه يذكر اسم قائل البيت ثم يشرح البيت، ويورد مناسبته؛ وإذا كان هناك رواية أخرى أو شك باسم القائل، وذكر لغيره، فإنه يذكر الرواية الأخرى، ويشرح البيت بحسب مناسبته، ويفند حجج الرواة، ثم يخلص في النهاية إلى الرأي الأصوب إذا كان ذلك ممكناً.

إنجازه في الترجمة

أنجز حسن الكرمي ترجمة لكتابين عن الإنجليزية أولهما كتاب روبرت هـ. ثاولس «التفكير المستقيم والتفكير الأعوج»، وقد نشرته سلسلة عالم المعرفة في عدد آب ١٩٧٩ بمراجعة من صدقي عبد الله حطاب؛ أما الثاني فهو كتاب «العرب والمسلمون في الأندلس بعد سقوط غرناطة» لهنري تشارلس لي، ونشرته دار لبنان للطباعة والنشر عام ١٩٨٨.

يندرج كتاب «التفكير المستقيم والتفكير الأعوج» Straight and Crooked Thinking، المنشور بالإنجليزية عام ١٩٧٤ لمؤلفه روبرت ثاولس Robert H. Thouless، في سياق المؤلفات التي تعالج علم المنطق واستعمالاته، وطرق الحِجاج المنطقي المختلفة التي يستعملها المفكرون والعلماء، وكذلك رجال السياسة والقادة الاجتماعيون. إنه بمعنى من المعاني يتخذ من طرق استخدام اللغة موضوعاً له، معالجاً أشكال الجدل والمغالطات المنطقية وعلاقة الكلمات والحقائق، وعلم المعاني، وعادات التفكير، والتحيز، ومزالق القياس، والتبسيط المسرف في التفكير، وهو لذلك يندرج ضمن اهتمامات حسن الكرمي، ويقترب من مشروعه، الممتد على مدار عمره، والذي تركز على تأليف المعاجم والتفكير باللغة العربية، وكيفية تنميتها وتطويرها. ويمكن أن نفهم مقدمة الكرمي القصيرة في هذا السياق المخصوص من اهتماماته، فهو يذكر صعوبة ترجمة الكتاب لتعذر «إيجاد العبارة الملائمة للغة العربية من جهة وللقراء العرب من

جهة ثانية. فإن اللغة العربية قد ابتعدت زمناً طويلاً عن معالجة القضايا التفكيرية المنطقية حتى فقدت المفردات المناسبة لها في الاستعمال». ويضيف الكرمي: «وقد حاولت في ترجمتي لهذا الكتاب أن أفهم القارئ ما يريد المؤلف أن يقوله، وذلك مع المحافظة على الأصل».

ومن الواضح أن غاية الكرمي، في الترجمة، كما هي في تأليف المعاجم، تتمثل في التواصل وإفهام القارئ، وتوسيع آفاق معرفته اللغوية، وهي لا تتحقق إلا من خلال إيجاد معادلات في التعبير اللغوي العربي اللسان لما ينقله المترجم، أو مؤلف المعجم، عن الأصل الإنجليزي. وقد كان الكرمي حريصاً كل الحرص في عمله على الوضوح والبساطة وصفاء العبارة.

الكتاب الثاني الذي نقله الكرمي عن الإنجليزية، بعنوان «العرب والمسلمون في الأندلس بعد سقوط غرناطة»، هو ترجمة لفصل طويل من عمل موسوعي ضخم من أربعة مجلدات كتبه هنري تشارلس لي بعنوان «محاكم التفتيش في إسبانيا» A History of the Inquisition in Spain، وعنوان الفصل، الذي أورده المؤلف في المجلد الثالث من الكتاب، هو «تنصير العرب والمسلمين (الموريسكو) وطردهم». وقد استل الكرمي الفصل من ذلك العمل الضخم لغاية شرحها في مقدمته القصيرة للكتاب، فهو يقول إن من دوافعه لترجمة الكتاب عدم وجود بحث تاريخي عن العرب والمسلمين في إسبانيا بعد سقوط غرناطة. وقد قام المترجم بترجمة الفصل المذكور بتصرف، كما يقول، وأضاف إليه بعض التعليقات التاريخية لزيادة الإيضاح. لكنه سرعان ما يكشف عن غايته الفعلية من وراء الترجمة موضحاً أن «ما جرى للعرب والمسلمين في إسبانيا من اضطهاد وقهر وانتزاع أملاك وأموال وطرد وتشريد وغير ذلك، يشبه ما جرى ويجري لعرب فلسطين بالاحتلال الإسرائيلي لبلدهم وإنشاء دولة إسرائيل فيه».

يرى الكرمي أن ثمة شبهاً واضحاً بين حالتي الطرد والتشريد، فثمة ادعاءات دينية وقومية تكمن وراء احتلال الأرض وطرد السكان في كلا التشريدين، فقد

كانت «العملية في إسبانيا ضد العرب والمسلمين، وهي في إسرائيل ضد الكوييم غير اليهود». ويقيم المترجم في مقدمته توازياً واضحاً بين «العرب والمسلمين الموريسكو في إسبانيا». و«عرب الأرض المحتلة الآن». ويوضح الكرمي أن غرضه من ترجمة الفصل المذكور هو إعطاء القراء العرب مصدراً لتاريخ العرب والمسلمين في إسبانيا في آخر عهدهم بالأندلس. ويضيف في ملاحظة مؤلمة حادة كالسكين: «ولعل القارئ العربي أو المسلم يجد في قراءة هذه الترجمة بعض العظات والعبر، في محنته الحاضرة، مع أن العربي أو المسلم، كما يظهر حتى اليوم، لا يتعظ بالوقائع والحقائق مهما تكررت وكانت بالغة»!

لكن الملاحظة البالغة الدقة، التي يوردها الكرمي في نهاية مقدمته للكتاب، تدل على تسامحه وصفاء بصيرته، وقدرته على محاكمة التاريخ بعين معاصرة رحيمة لا تجعل من التمييز العرقي أو الديني الذي مارسه الإسبان بعد سقوط غرناطة ضد المسلمين أن يؤثر على التسامح الديني الذي ميز العرب والمسلمين في الأندلس. يقول الكرمي: «إن ما جرى في الماضي للمسلمين على أيدي رجال الكنيسة ومحاكم التفتيش يجب أن لا يسيء إلى أحد ولا أن يحمل على محمل ديني».

من هنا، فإن بالإمكان ملاحظة صلة وصل بين ما أنجزه حسن الكرمي في حقول متعددة: في حقل تأليف المعاجم الإنجليزية-العربية، وفي عمله في القسم العربي في هيئة الإذاعة البريطانية معلماً الناس اللغة الإنجليزية من خلال الراديو، ومقدماً لهم أضخم موسوعة للشعر العربي في الزمان الحديث من خلال برنامجه «قول على قول»، وأخيراً من خلال ترجمته لعدد محدود من الكتب التي تتصل موضوعاتها بانشغالاته المركزية، وبوضعيته كمنفي ومشرد خارج أرضه فلسطين.

حسن الكرمي: زيتونة فلسطين المعمّرة

د. سمير مطاوع*

كم صعب عليّ أن أجد نفسي في وقفتي هذه ... أتحدث عن فقيدنا حسن الكرمي، أستاذ الأجيال الذي وصفه أخوه الشاعر الراحل أبو سلمى بأنه زيتونة فلسطين المعمرة ... فأبو زياد لم يكن بالنسبة لي- مثلما هو لمحبيه ومعارفه- قرناً من التأريخ والشهادات والعمل الرائد لخدمة اللغة العربية... والشعر العربي والثقافة الإسلامية ... كان بالنسبة لي أكثر من ذلك بكثير ... أستاذاً ... ومعلما ... وقدوة ... ومنطلق تجارب شخصية كان محركها والقوة الخفية ورائها في علاقة عمر امتدت لحوالي ثلاثة وأربعين عاماً.

بوسعي أن أتحدث وأسهب في الحديث عن برنامجه الأشهر «قول على قول» وبرامج تعليم اللغة الإنجليزية بالراديو لمستمعيه العرب اللذين قدمت لهما من خلال إدارة برامج القسم العربي لهيئة الإذاعة البريطانية "BBC" عشرات المرات ... وعن مجلدات «قول على قول» الاثني عشر ... وعن قواميسه ومعاجمه التي كان يتألق حين الحديث عنها في كل لقاء جمعنا، سواءٌ في لندن أو في الزيارات التي كنت أقوم بها إلى بيته في عمّان ... كان يعتز أيما اعتزاز بأن جهده في كافة مراحل حياته، خلال إعداد ما أعد وما قدم كان جهداً شخصياً محضاً، هدفه الأساسي حماية اللغة العربية، وتطويرها، وإدخال مفردات جديدة إليها، باعتبار أن اللغة العربية لغةٌ حيّة وقابلة للتطوير والتحديث.

---

* إعلامي وباحث ومؤرخ؛ ووزير إعلام سابق/الأردنّ.

بوسعي أن أتحدث عن كل هذا وأكثر من عشرات الإنجازات التي كنت شاهداً على إتمام بعضها، حين كنت أرتب له لقاءات مع بعض الصحفيين الراغبين في الكتابة عن تجربته، في أغلب الأحيان دون أن يعرف مسبقاً بهذا الترتيب... لكني- ولاعتزازي بما حققتُ في حياتي من تقدم شخصي كان حسن الكرمي سبباً مباشراً فيه- أستميحُكم العذر في أن أروية اليوم رداً للجميل واعترافاً بالمعروف.

التجربة الأولى حين تقدمت للعمل في القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية عام ألف وتسعمائة وأربعة وستين... فعملاً بأسلوب الإذاعة كان عليّ أن أجتاز فحوصاً في اللغة والقواعد والترجمة... وكنت ما أزال بعد أعمل في إذاعة هولندا العالمية. وحين ظهرت النتيجة استدعيت إلى لندن لأداء فحوص مماثلة مرة أخرى ظناً من المسؤولين أن مستوى ما حققت من نتائج أعلى مما كان متوقعاً من شاب صغير حديث التجربة... ولكن النتيجة كانت في لندن بنفس المستوى، ما استدعى تقديمي إلى سنديانة القسم العربي الأستاذ حسن الكرمي... كان مجرد اسمه أمامي داعياً للقلق والخوف، لأنني تصورت أنه سيكون من الصعب عليّ إظهار قدرات في القراءة والقواعد ولفظ الحروف والأسماء يقبلها أو يعتبرها العملاق الكبير كافية.

لكن اللقاء كان بداية حب كبير.. وتقدير عظيم للرجل من جهتي... أما من جهته فكان كافياً للتوصية بقبولي للعمل في القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية.

أما التجربة الثانية فكانت السبب الأساسي في دخولي عالم التلفزيون في بريطانيا لأصبح أول مذيع أجنبي يذيع من تلفزيون هيئة الإذاعة البريطانية "BBC Television". ذلك أن قسم الإنتاج الوثائقي في محطة التلفزيون كان قد أعد برنامجاً رفيع المستوى عن صحراء الربع الخالي فاز بالجائزة الأولى في مهرجان مونترو في سويسرا. وكان مطلوباً أن يقدم هذا البرنامج شخصٌ ذو ملامح شرق أوسطية-حين لم تكن هذه الملامح قد صارت بعد لعنة-يتكلم اللغة

الإنجليزية بطلاقة... وطبيعة الحال لجأوا إلى العملاق الكبير الذي كان يقدم برنامجاً يمثل أهم إنجازات هيئة الإذاعة البريطانية وهو تعليم اللغة الإنجليزية بالراديو لمستمعيه العرب ليقوم بترشيح شخص يملك هذه المواصفات... فرشحني لهذا الدور.

والتجربة الثالثة كانت حين جاء المرحوم محمد كمال، بعد أن عهدت إليه مهمة إنشاء التلفزيون الأردني عام ١٩٦٦، إلى لندن للاستعانة بخبرة وخبراء تلفزيون هيئة الإذاعة البريطانية... واستناداً إلى الصداقة التي كانت تربطه بأبي زياد استعان به لفتح أبواب تلك المؤسسة الإعلامية العريقة التي كان ركناً من أركانها وعلماً من أعلامها... وذات يوم اتصل بي أبو زياد ليدعوني إلى عشاء في بيته في شمالي لندن على شرف محمد كمال... وكان بيت أبي زياد في حقيقته مكتبة أكثر مما كان بيت سكن لأهله، تتكون عشرات الكتب في كل زاوية من زواياه... وفوجئت أنه دعاني ليعرفني بصديقه القديم بعد أن رشحني للعمل في تلفزيون الأردن المنتظر... والذي أعادني إلى وطني وأهلي وأحبتي.

كيف يمكن لإنسان مثلي أن ينسى هذه القواعد الدافعة الغامرة التي مكنتني من دخول عام الـ "BBC" الذي كان حلم كل شاب يتطلع إلى أن ينهلُ من تجربة العالمية في حقل الإعلام.. ثم كانت وراء اختراقي عالم التلفزيون الأرقى في العالم من أوسع أبوابه ومحطاته؟ ولتكتمل صورة الدور في علاقة المحبة الغامرة التي ربطتني بأبي زياد كل هذه الأعوام. أذكر يوم جئته كئيباً محزوناً بعدما استوطنت لندن المدينة الضخمة التي أرعبتني بمساحتها ومئات محطات قطاراتها تحت الأرض... ناهيك عن مسارحها وأنديتها ومقاهيها ومطاعمها، لأقرأ له تجربة شعرية ساذجة تمثل شعور الوحدة القاتل الذي كنت أشعره في تلك المدينة ساعتئذ... وإذا به - مثل كل المثقفين والمهتمين بالفكر والفن والمسرح - واقع في حب لندن حتى جبينه... فضحك وردد على مسامعي ما رددناه جميعاً من بعده إن حب لندن لا يبدأ من النظرة الأولى... إنه حب ينمو ويكبر في داخلك كلما طالت

مدة عيشك فيها... IT GROWS ON YOU. وعلى الرغم من ثقل الأعوام، والغرام بالعمل والإنتاج بقيت ذاكرته منتجة متفاعلة متفتحة حتى آخر أيامه... كنت كل مرة أزوره فيها - واعترف أن مشاغل الحياة في عمّان جعلت الزيارات متباعدة إلى حد ما - أجد أنه ما زال يقرأ ويتذكر معي تفاصيل ذكرياتنا مع أصدقاء وزملاء عملنا معاً في القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية رحلوا عن دنيانا بكل دقائقها وأوقاتها وكأنها وقعت أمس، وإن أصيبت بالوهن قدرته على ممارسة الكتابة.

وأتذكر أنه رغم إعجاب الكثيرين من ملوك ورؤساء الدول العربية به وببرنامجه «قول على قول»، فقد كان أبو زياد شديد التواضع، رفيع الخلق، حين نعرف من الصحافة عن تفاصيل علاقاته بهم... فلا يتشدق ولا يتباهى وإنما يرسم على شفتيه شبه الابتسامة التي كان مشهوراً بها ليروي أقل القليل من هذه التفاصيل... ولكن دون أن يغفل عن الإشادة بهم وبعواطفهم تجاهه... وأذكر على سبيل المثال لا الحصر المرحومين الملك فيصل بن عبد العزيز، والشيخ زايد ابن سلطان.

بعد خمسة عشر قاموساً... واثني عشر مجلداً من «قول على قول» وثلاثة وثلاثين عاماً من تقديم البرنامج... وتراث فكري هائل... انطفأت شمعة حسن الكرمي بعد ما يزيد عن مئة عام من العطاء والشموخ كان في كافة مراحلها مجلياً ورائداً واستاذاً كبيراً... لكن ذكراه ستبقى ما دام أن الشعر هو ديوان العرب.

وإذا كان حديث الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «ينتهي عمل ابن آدم إلا من ثلاث... صدقة جارية وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له»، فإن ما تركه أبو زياد من إرث أدبي سيظل يمثل منارات من العلم والمعرفة... وسيبقى كل الذين اعتبروا أنفسهم أبناء له- ولي الشرف أن أكون واحداً منهم- يدعون له بالرحمة والمغفرة وحسن الثواب.

رحمك الله يا أبا زياد.

«اللغة... نشأتها وتطوّرها في الفكر والاستعمال»

هيا صالح*

جاءت اللغة في أصل نشأتها لتعبّر عن حاجات الإنسان وأحاسيسه وانفعالاته، هذه الحاجات تكاد تكون واحدة عند الإنسان البدائي، فهو يجوع ويبرد ويحزن ويفرح... فكان يعبّر عن ذلك بأصوات بسيطة، وهذه البساطة جعلتها تبدو متشابهة عند أبناء جنسه، ثم تطورت هذه الأصوات، فيما بعد، إلى رموز وإشارات، ثم إلى كلمات... وفقاً للتطور الحضاري المتدرج للإنسان.

ومن خلال دراسته لأصوات اللغة وأحرفها ومواطن نطقها بين مؤخر الفم ومقدمه، والمفردات التي تتقارب لفظاً ومعنى بين اللغات المختلفة، واللهجات التي يمكن إرجاعها إلى أصل واحد، وغيرها من المسائل المتعلقة باللغة، يحاول العلامة (الراحل) حسن الكرمي في كتابه «اللغة نشأتها وتطورها في الفكر والاستعمال» (سلسلة كتاب الشهر ٢٦، وزارة الثقافة الأردنية، ٢٠٠٢) أن يدلل على أنه مثلما أن اللهجات ترجع إلى أصل واحد، فكذلك اللغات السامية أو اللغات الهندية الأوروبية، إذ ترجع إلى أصل واحد أيضاً، كما أن اللغات العالمية كلها ترجع إلى أصل واحد، مورداً أمثلة على التشابه بين العربية والإنجليزية في كثير من الكلمات، بما يصلح أن يكون دليلاً على أن اللغة عند الإنسان الأول كانت واحدة، ثم تفرعت مع رقي العقل البشري واختلاف مجتمعاته.

---

* كاتبة وناقدة أردنية.

يبدأ الباحث أولاً باستعراض الآراء المختلفة في أصل اللغات، ومنها النظريات القديمة التي ترى في معظمها أن اللغة أصلها توقيفي بوحي من الله، والنظريات التي عقَّبت عليها وجاءت بعدها رابطةً التطور في اللغة بتطور العقل الإنساني، وكذلك النظريات الحديثة. ويخلص إلى أن الإنسان أصبح مخلوقاً «معشرياً» يعيش في بيئة اجتماعية، وقد تطورت لغته مع ازدياد حاجته إلى مخاطبة الآخرين للتعبير عن مراده وللتواصل والتفاهم معهم وذلك عن طريق الإشارات والرموز بداية ثم استخدام الكلمات مع مرور الزمن.

ويرى الكرمي أن اللغة والأدوات والمجتمع لم توجد جميعها دفعة واحدة فجأة، وأنه لا بد أن تكون مرت آلاف السنين قبل أن يتم التنسيق ويستحكم العيش في معشر اجتماعي صحيح. إذ كان الإنسان الأول بحاجة إلى اللحم فتعلم قيافة آثار الحيوانات ليصيدها، ثم أخذ يتعلم التدبير للصيد للعيش في حاضره ومستقبله، وصار يفهم معنى الزمان (ماضٍ وحاضر ومستقبل)، ومعنى الرموز المختلفة بحسب الحاجة، وصار له مفهوم لكل من الشكل والفراغ واللون والسرعة والحركة.. وأخذ يتصور في عقله أموراً قد تحدث في المستقبل كخطر الوحوش الكاسرة وظواهر الطبيعة عليه، فكون في عقله المفاهيم المجردة ووضع لها رموزاً بالكلمات، ثم واكبت اللغة تعقد المجتمع وتشابك روابطه فتشعبت رموزها بحسب المفاهيم التي تعبر عنها.

من هنا، يعرّف الكرمي الكلام لفظاً أو كتابة على أنه مجموعة من الرموز اخترعها الإنسان في زمانه للدلالة على الأشياء، ولولا هذه الملكة الموجودة في الإنسان لما وُجدت اللغة. ويؤكد أنه قبل استعمال الرموز لتبليغ المراد بين الناس يجب أن يسبق ذلك اتفاق مدلول لكل رمز، والربط بين الرمز ومدلوله هو

موضوع بحث لغوي يعرف بمعاني الرموز أو بعلم معاني الرموز أو مدلولاتها، أو بمعاني الكلام. والأصل في ذلك أن الإنسان يحب الشيء ويتصوره ثم يطلق عليه اسماً بكلمة من الكلمات وتكون الصلة بين الشيء واسمه وثيقة، حتى يصح أن يقال عن الكلمات التي توضع على هذا الشكل: «لغة».

ويتناول الكرمي الجانب العاطفي للّغة، وهو التأثير عن طريق التشبيه والاستعارة والمجاز والقياس والتلميح، مشيراً إلى أن العرب تفننوا في التشبيه ومنهم من أجاد ذلك ومنهم من أخفق. ويعرف الاستعارة على أنها أحد ضروب المجاز في اللغة العربية، وهي التي فيها تشبيه للمعنى من مثل (طويل النجاد، ونعني طويل القامة)، والاستعارة موضوعة للمشبه به لا للمشبه وهي، بحسب الكرمي، أوقع في النفس من الحقيقة، والمثل أوقع في النفس من التشبيه والاستعارة لأن فيه حكم ويستند إلى حادث تاريخي أو واقعي. ويشبه المثل التلويح أو التلميح إلى آية أو قول أو بيت من الشعر أو حادثة كالتعريض بكلمة أو عبارة لها معنى بعيد، وفي اللغات الأخرى، ما هما هو شبيه بذلك بما يشير إلى أنها جميعاً نابعة من العرف عند كل شعب من الشعوب بحسب تقاليده وعادته ولغته.

ويعرض الكرمي للقياس في اللغة العربية في النثر وفي الشعر، لافتاً إلى أن القياس لا مكان له في المنطق إذا أريد استعماله كالبرهان لإثبات زعم أو قضية، وأكثر ما يُستعمل القياس في القضايا الدينية لإثبات قواعد وأحكام الدين في علم الكلام وفي علم الفلسفة الدينية عند علماء الدين المسيحي في القرون الوسطى.

ويفرق الكرمي بين لغة العلم ولغة الشعر من خلال التفريق بين استعمال كل منها، فلغة العلم مقصورة على نقل المعلومات بطريقة علمية، وذلك باستعمال

مصطلحات لها صفة الدقة في تحديد المعاني ولها صفة التخصيص، بحيث يكون كل مصطلح مقصوراً على مسمّى واحد ليس فيه لبس أو خلط، وأن يكون مجرداً من ميول الشخص ومشاعره وأهوائه، أما ما اصطلح على تسميتها «لغة الشعر» فهي التي تختص بالتعبير عن النفس وانفعالاتها، ولا تهدف إلى نقل المعلومة على أنها صادقة أو كاذبة وإنما بين بين، فلغة الشعر لا تعبّر عن حقائق ثابتة وإنما تختلف في حالتها ومعانيها باختلاف اللغات، واللغات تختلف باختلاف النفس والحقائق خارج النفس ثابتة في جميع اللغات، ومن هنا كانت ترجمة العبارات العلمية، كما يرى الباحث، تكاد تخلو من الصعوبة؛ في حين أن ترجمة العبارات الشعرية تكاد تكون فوق المنال لاختلاف المعاني حسب اختلاف الثقافات عند الأمم.

ويبحث الكرمي في موضوع التخيّر والأسماء والصفات، فيرى أن كل شيء نسميه في اللغة كان موجوداً قبل تسميته، وتسميته تكون بعد إدراكه في العقل، وإدراكه في العقل يكون بعد عملية حسيّة في الدماغ تبدأ برؤية الشيء أو بلمسه أو بشمه أو بذوقه أو بسماعه، وتنتقل هذه الإحساسات عن طريق أعضاء الحس حتى إذا وصلت إلى الدماغ فسّرها بطريقته الخاصة، وهذه التفسيرات لا يمكن معرفة أن كانت صادقة أم لا، وتكون أساساً للأسماء التي نطلقها على المسميات من الأشياء، فالدماغ يختار أو يتخير الإحساسات حين إدراكها، وهو لا يختار من الإحساسات إلا التي يريد، واختياره أو تخيّره لها يكون بعامل الرغبة أو الدافع، وهو إنما يختار عدداً منها ويترك الباقي، وعدد الإحساسات المختارة تقرره طبيعة الدماغ في ذلك الحين. ويرجّح الكرمي أن البشر فيما يتعلق بعدد الإحساسات متشابهون تقريباً، ولذلك فهم متفقون في عملية الإدراك التي تجري في الدماغ وإن اختلفوا في التسمية، بسبب أن الإنسان يجمع الإحساسات عن شيء ما في مجموعة واحدة قد تختلف من شعب إلى شعب.

ويناقش الكرمي العلاقة بين اللغة والفكر، وهل الفكر بحاجة إلى اللغة، وهل اللغة بحاجة إلى الفكر، فالناس مثلاً يقولون: «أنا أعرف ما أعني، ولكني لا أستطيع أن أعبّر عن ذلك بالكلام»، ويرى أن هذا قول فيه أشكال لأن المعنى في ذهن السائل لا يعرفه إلا عن طريق الكلام، فالفكر لغة صامتة ويعرف عند النطق به لا غير. وتفكيرنا يتأثر بميولنا وأهوائنا ويتأثر بالمعلومات التي نستقيها من غيرنا، وتأثر التفكير بالميول والأهواء يكون عمداً عن طريق التعصب مثلاً، أو يكون عن غير عمد عن طريق التعصب مثلاً، أو يكون عن غير عمد عن طريق ضيق ما نشاهد من الوقائع أو اتساعه. ويؤكد الباحث أن الإنسان منذ الخليقة يفكر في الشيء وفي ضده بطبيعة الحال، وهناك عدد من النظريات التي ترى أن الإنسان خلق في عالم مُعادٍ له، فهو بين نفسه وبين العالم المعادي له، وهو يرى الأشياء من جهتين: إما خير له وإما شر له، وإما حق وإما باطل، وهذه الثانوية موجودة منذ الأزل كما يظهر، وموجودة في الديانات القديمة قبل الميلاد.

ثم يشير إلى أن اللغة هي قوالب للأفكار، فكلما ازدادت الأفكار الذهنية ازدادت هذه القوالب وازدادت معها المفردات والأفكار والصور الذهنية وليدة الحاجة، لذا فالقوالب اللغوية تكون بالتالي وليدة الحاجة، وعلى هذا فكل لغة هي وليدة الحاجة، والحاجة يمليها المحيط أو الثقافة الخاصة لكل شعب، وإذا كان الأمر كذلك، فإن الأفكار التي تدعو إليها الحاجة في العيش هي التي تكون الحافز على وضع الألفاظ والعبارات، وغنى اللغة أو فقرها دليل على غنى تلك الأفكار أو فقرها.

ويعرض الباحث إلى ما جاء في المعجم العربي من خلافات في المعنى بسبب التشويش الحاصل في صيغ الفعل وأوزانه، مقّصراً بحثه على الفعل الثلاثي، من دون التعرض للفعل المضعف الآخر أو المقصور أو الممدود. ثم يبحث في الكلمات ومعانيها في المعجم العربي فيقسمها إلى أربعة أقسام هي:

- كلمة واحدة لمعنى واحد أو مدلول واحد (الكلمات العلمية أو المصطلحات العلمية).
- كلمة واحدة ولها معان مختلفة (مثل كلمة «عين» أو «عسل» أو «عجوز»).
- شيء واحد له أسماء مختلفة (الأسد، السيف).
- كلمة واحدة لها معان مترادفة (سحاب، غمام، غيم، مُزن).

ويرجع الكرمي أسباب الإبهام في الكلمات إلى الشرح الفاسد، أو الإيجاز والمخلّ، وجهل واضعي المعاجم باللغة العربية، وعدم معرفتهم بالبلدان الأخرى كقولهم عن نهر الزّاب أنه من روافد الفرات، كذلك فقد كان أصحاب المعاجم يعيدون الكلمة الأجنبية إلى أصل عربي كقولهم عن «الصوفي» إنه الذي يلبس الصوف تنسّكاً، واشتقوا الكلمة من ذلك مع أن «الصوفية» مشتقة من كلمتين يونانيتين هما (theos) و (sophy)، بمعنى حكمة الله.

ويرى الكرمي أن اللغويين في المعاجم العامة والخاصة درجوا في جمعهم أو شرحهم على الاهتمام بأشكال الكلمات وصيغها وإعرابها وصرفها ونحوها... أي الاهتمام بالفرع قبل الاهتمام بالأصل وهو المعنى، ويقول في كتابه: «والذين دوّنوا اللغة العربية كانت تجمعهم على العموم صفة واحدة، وهي حرصهم على التفلت من المعنى اللغوي الدقيق المحدد الواضح المعالم كأن التقيد بهذا المعنى كان لهم بمثابة العقال أو الشكال يمنعهم من التحليق في جو الخيال شعراً أو نثراً، ومع ذلك فيجب أن لا نقسوا عليهم في الحكم، فقد كان لهم السبق في وضع المعاجم وتدوين اللغة».

وفي سياق متصل، وحتى لا تصاب معاني الكلمات بداء المحافظة على القديم وتخطئة المُحْدَث والغريب والمبدوع، يدعو الكرمي مجامع اللغة العربية أن تبدي

اهتماماً باللغات العامية (لم يسمِّها «لهجات») من حيث صيغ أفعالها وكيفية التعبير عن أزمنة الفعل وأسلوب التلفظ بالكلمات بحسب علم الألفاظ وأسلوب التعبير عن الأفكار وقضية الصرف والنحو، ويقول» «لو جُمعت هذه الدراسات وتوفر على البحث فيها رجال أكفاء من علماء اللغة لأمكن استخلاص صرف ينطبق على جميع اللهجات بما في ذلك صيغ الفعل وما أشبه، ولأمكن أيضاً وضع لغة عامية فصحى من جميع اللغات العامية وتكون هذه اللغة لغة العرب عموماً بدلاً من الازدواجية في كل بلد».

ويضع الكرمي في نهاية الكتابة خطة تأسيسية للمعاجم، ترمي إلى وضع أساس للمعاجم يتبين منه كيفية معالجة الكلمات من حيث ضبط معانيها وتحديدها من جهة الحقيقة ومن وجهة المجاز بحيث يتضح المعنى علمياً وخيالياً، وبهذا يكون الحديث أو الكتابة على أساس دقيق، ومتى صحّ المعنى صحّ الفكر الذي هو لغة صامتة.

والكرمي كما نعلم صاحب معاجم انتهج فيها تعليم العربية عن طريق الإنجليزية، وتعليم الإنجليزية عن طريق العربية. أما الأداة فهي الوسيلة والوساطة لمعرفة اللغة واستعمالها على الوجه الصحيح، ولهذا يجب أن تكون الأداة سليمة وفعالة، ولا بد من إعداد كامل لها ومن تطوير وتكيف مستمر.

وهو يرى أن من يقّدم على عمل المعاجم، عربية كانت أو إنجليزية-عربية مثلاً، يجب أن يتقن اللغتين ويعرفهما معرفة تامة، وذلك بدراستهما معاً دراسة أصولية علمية والتعرف على مراجعهما المعتمدة وممارستها كلاماً وكتابة وتعليماً وتأليفاً. ويقول: «ما ساعدني في مهمتي المعجمية أنني أسجل الكلمات والأسماء والمصطلحات ذوات القيمة في اللغة الإنجليزية والعربية تحت

موضوعات مختلفة، حتى إذا عرض مصطلح إنجليزي أو عربي عمدت إلى هذه التسجيلات، وكثيراً ما كنت أجد ضالتي، كل ما أدخلته في معاجمي من هذا النوع كان له أصل في مرجع مهم يعتمد عليه».

وهو يؤكد صعوبة وضع المصطلحات العلمية ونقلها إلى العربية بسبب أن اللغة العربية لم تتطور مع الفكر العلمي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي، وأن في معاجمها الكثير من التشويش في الصيغ والمعاني تحول دون وضع المصطلحات العربية الصحيحة والمقبولة لدى الآخرين. ويشدد في النهاية على حاجة اللغة العربية إلى معجم عربي صحيح سهل العبارة وواضح الدلالة ودقيق، إلى معجمين أحدهما إنجليزي عربي يحدد معاني الكلمات العربية بحسب الكلمات الإنجليزية ومعجم إنجليزي عربي يحدد معاني الكلمات الإنجليزية بحسب الكلمات العربية بما يساهم في ضبط اللغة العربية وجعلها صالحة كأساس لنهضة لغوية تفي بحاجات العصر الحديث.

حسن الكرمي ... سيرة وعطاء

د. مصطفى محمد الفار*

يرحل حسن الكرمي بعد حياة مهيبة حافلة بالروائع الفكرية واللغوية المعجمية، فكانت حياته كلها كتابة وتأليفاً وترجمة وسيرة عطاء لحصاد ضخم في أثره وتأثيره لدنيا العلم واللغة والأدب والفلسفة بعد حياة امتدت به مئة وسنتين ليلفظ أنفاسه الأخيرة بين الحبر والورق.

كان أول لقاء لي مع أبي زياد في بيت أخية الشاعر الكبير عبد الكريم المعروف بأبي سلمي بدمشق حين كنت أعد أطروحتي لدرجة الماجستير عن أبي سلمى، حيث توثقت بيننا آصرة المعرفة بعدها، فازددت قرباً من أبي زياد الذي عرفت فيه حاملاً لراية الكلمة الحرة الرصينة، والرأي الناضج، والفكر المتزن، والشخصية الحكيمة.

ومما لا شك فيه أنه كان للبيئة التي نشأ فيها حسن الكرمي أثرها إلى جانب موهبته الطبيعية في تكوينه الأدبي.

فوالده الشيخ سعيد الكرمي عالم مشهور من علماء الشريعة الإسلامية، وأحد طلائع رجال النهضة العربية المعاصرة، كان رئيساً لأول مجمع علمي في الأردن، وقاضياً للقضاة في حكومة الشرق العربي في الأردن، ونائباً لرئيس

---

* تربوي وأكاديمي وناقد. انتقل إلى رحمة الله تعالى عام ٢٠٠٩.

المجمع العلمي بدمشق، وكان فقيهاً بالدين واللغة، عالماً بأسرارها، أديباً يحسن الخطابة، كما كان شاعراً مجيداً، ومرجعاً يعتمد عليه ويستشهد بأقواله وآثاره.

ولما بدت بواكير ثقافة الأستاذ حسن تتفتح براعمها وهو صغير، كان والده يشجعه ويشد من أزره، وكان حسن يستفيد كثيراً من مجالس العلم التي كان يعقدها والده ويحضرها رجال العلم والأدب، ونشأ حسن شأنه شأن إخوته تحت ظل مجلس والده الوارف وكان لهذا تأثير كبير على حياته.

ولد حسن الكرمي في مدينة طولكرم عام ١٩٠٥ حيث تلقى تعليمه الأولي، ثم انتقل مع عائلته إلى دمشق وهناك التحق بمدرسة عنبر وأتم بها الدورة الاستعدادية، وعاد في عام ١٩٢٤ إلى فلسطين والتحق بالكلية الإنجليزية عام ١٩٣٠ وعين معلماً في حكومة فلسطين، فعلم اللغة الإنجليزية في مدرسة الرملة وفي الكلية الرشيدية والكلية العربية بالقدس، ثم عمل مفتشاً للمعارف في هذه الإدارة، وفي عام ١٩٤٥ اتجه إلى بريطانيا للتخصص، وبعد عام ١٩٤٨ التحق بالإذاعة البريطانية في لندن مراقباً للغة ثم شرع في إعداد برنامجه المشهور (قول على قول) في الشعر العربي، وهو برنامج كان يجيب فيه عن سؤال من يسأل من قائل هذا البيت؟ وما المناسبة؟ وأذاع هذا البرنامج مدة ثلاثين عاماً.

وهي جملة تميزت ببراعة شديدة في الاستهلال شدت انتباه السامعين إليها بشغف كبير، وكان السائلون من جميع الأقطار العربية يكتبون إلى حسن الكرمي وكان عليه أن يغوص في أعماق تلك الأكداس الكبيرة من الرسائل ليقدم الإجابة عن سؤال تلك العبارة، وقد تم جمع ما حوته تلك الأسئلة وأجوبتها في اثني عشر مجلداً دخلت المكتبة العربية بقوة.

يقول حسن الكرمي في مقدمة الطبعة الأولى من الجزء الأول من (قول على قول): «لقد تركت الأسئلة والأجوبة على ما هي عليه دون تغيير، وذكرت من كل سؤال اسم السائل الكريم إثباتاً لصحة السؤال ولم اقصد بالأجوبة في ذلك البرنامج إلا التعريف بشيء من ذخائر الأدب العربي وطرائفه».

ويضيف الأستاذ حسن إلى ذلك قوله في محاضرة له في مجمع اللغة العربية الأردني في موسمه الثقافي الأول بتاريخ ١٩٨٣/٢/٤ وكانت بعنوان (المعجم العربي والتعريب): «من الصعب لأي إنسان أن يجيب سؤال السائل إلا أن يكون قد قرأ دواوين الشعراء، ومجموعات الشعر وأمهات كتب الأدب واللغة، والأمثال، وتاريخ العرب وأشعار الجاهلية والإسلام، وكنت على اتصال مستمر بالمعاجم «كلسان العرب» و«القاموس المحيط»، و«صحاح الجوهري»، و«أساس البلاغة»، و«النهاية لابن الأثير»، و«تاج العروس»، وغيرها».

وحول ما أصدره من معاجم قال حسن الكرمي في هذه المحاضرة: «ثم إنني اهتممت بالإنجليزية ومقابلاتها بالعربية، ونشرت قاموس «المنار» ويطبع لي الآن في بيروت ثلاثة قواميس من الإنجليزية إلى العربية، أصغرها بحجم «المورد»، وأعمل على تأليف قاموس من العربية إلى الإنجليزية، وساعدني في ذلك أنني أيضاً قرأت الترجمات المهمة كترجمات القرآن الكريم، وترجمات «ألف ليلة وليلة»، وترجمات «مقامات الحريري»، وترجمات أشعار الجاهلية، وترجمة اللزوميات، وغيرها... وقد حولت بعضاً من كتب الأدب من العربية إلى الإنجليزية، «كالبخلاء»، ولي مقالات بالإنجليزية في موسوعتين من الموسوعات العالمية...».

وكان حسن الكرمي قد قدم سلسلة من المعاجم ابتدأت «بالمنارس عام ١٩٧٠ فتلاه معجم «المغني»، «المغني الكبير»، «فالمغني الأكبر»، «فالهادي»،

وله «قول على قول» وهو كتاب في اثني عشر جزءاً في الأدب والشعر، وكتاب «خروج العرب من إسبانيا» (مترجم)، و«حياة قط»، وكتاب في تعلم الإنجليزية، و«فلسطين وموقع القداسة منها في نفوس المسلمين» بالإنجليزية، وكتاب «معنى الصلاة في الإسلام»، وكتاب «التفكير المستقيم والتفكير الأعوج» (ترجمة) وهو من سلسلة عالم المعرفة بالكويت، وكتاب «اللغة نشأتها وتطورها في الفكر والاستعمال» صادر عن وزارة الثقافة الأردنية. يقول الكرمي في مقدمة هذا الكتاب: «كما أن اللهجات ترجع إلى أصل واحد... وهناك تشابه بين اللغة العربية واللغة الإنجليزية في كثير من الكلمات». وحسن الكرمي يفتح في هذا الكتاب باباً واسعاً للبحث الشاق الطويل ويرى أن اللغة عند الإنسان الأول كانت واحدة ثم تفرعت مع رقي العقل البشري واختلاف مجتمعاته، كما اختلفت اللهجات في اللغة الواحدة.

وكتب حسن الكرمي مقالات كثيرة نشرها في المجلات العربية والإنجليزية وفي بعض الموسوعات العالمية، كما نشر سلسلة مقالات بلغت أربعين مقالة في الفلسفة نشرها في مجلة الأديب البيروتية تحت عنوان «طبقة الفهماء» وجاء في مقالته الأولى عدد فبراير ١٩٦٦ ما يلي: «كانت الغاية في الأصل من كتابة هذه المقالات شرح الأدوار التي لعبها المفكرون عامة والفهماء خاصة في تاريخ العالم على العموم، وفي التاريخ العربي على الخصوص قديماً وحديثاً... ثم يضيف قائلاً: «وما بدأت في الكتابة حتى شعرت بالاضطرار إلى الدخول في موضوعات ليست في صميم البحث، ولكنها أساسات لا يفهم البحث إلا بها، تعرضت فيها للفلسفة الإغريقية القديمة وبعض فلاسفة القرون الوسطى، ثم لما انتهيت إلى بحث الوضع الإنساني بعد الثورة الصناعية وجدت نفسي مضطراً إلى التعرض لتغطية فلسفة هيجل وماركس ودخلت في بحث الوجودية ولا أزال فيه...»».

حياة حسن الكرمي كشخصيته؛ حياة حافلة، صنعها بفكره وقلبه، وسخرها لنفع وطنه وأمته، وأعماله وفيرة لا تتسع الصحائف الكثيرة لاستقصائها، ولو مضينا نستقصي مجالات عطائه وإبداعه لما اتسع المجال؛ فحسن الكرمي أديب ذواقة، وكاتب بليغ، وباحث مدقق، ولذلك جاءت دراساته مثلاً للنقاء الفكري، وأسلوبه في كتاباته أسلوب سلس واضح العبارة ومأنوس الألفاظ، يمتاز بعذوبة وخفة تجعله لا يبحث عن الكلمات، بل إنها تنساب بيسر وسهولة على سن يراعه وألفاظه مفصلة على قدر معانيه دون حشو أو تكرار.

وهذه المزايا نتاج لما استوعبته قريحته من أمهات كتب التراث. والأستاذ حسن ضليع في اللغة متمرس بقضاياها وعلومها، وقد تميز أسلوبه بنبرة الحديث التي عرفت عنه- أي أنه كان يخاطب القارئ ويهتم بأن يتابعه ويفهم عنه.. ليكون القارئ معه وكأنه يستمع إلى معلم أو مذيع في إذاعة، وهذه صفة تجعل القراءة في كتبه ومعاجمه تجمع بين الفائدة والمتعة.

ومع أن حسن الكرمي قد عاش في بريطانيا على مدى واحد وأربعين عاماً، إلا أنه كان يملأ صدره شعور الغضب العارم والسخط على الواقع المرير وفلاسفة الغرب الذين بنوا أفكارهم على مقولة أن اليهود شعب الله المختار، مما كان له أثره فيما أثر عنه من شعر قليل ومنه هذه الأبيات:

على العهد مهما شتَّ نائينا ... وأوسع الدهر حبل الوصل توهينا
فلا البُعد مزيل ما بأنفسنا ... ولا التداني بماحٍ بعض ما فينا
ولا الملامح في الأشخاص نعرفها ... كأنما الناس ليسوا من أناسينا

ولم يشأ القدر لهذا العلامة الجليل أن يرحل بهدوء وسلام عن هذا العالم، إذ إن الأحداث الأخيرة التي عصفت في المنطقة، وما يحيقه الغرب لمهد الديانات السماوية... كل هذه الأحداث الأخيرة أذكت عنده شعوراً بالغضب والإحباط.

وبعد، فإن سيرة حسن الكرمي، وأخلاقه وسجاياه لتضعه في طليعة بلغاء العربية ومفكريها، وفي طليعة العاملين المجدين النافعين لأمتهم والذين يشيدون لها من أسباب المجد صروحاً باقيات على الدهر.

حسن الكرمي ... شيخ الأدباء والإعلام*

ياسين الجيلاني**

قبل الحديث عن حياة المرحوم بإذن الله الأستاذ حسن الكرمي، لا بد أن أشير، بأنني مَدين بالشكر لسكرتير التحرير، الأستاذ عبد القادر الحطاب، وبعدد لا يحصى من الساعات الطويلة للاطلاع على حياة الكرمي العريضة... فهل أكون مصيباً إذا فهمت قصده، حين طلب مني الكتابة عن الكرمي، هادفاً أن يثير اهتمام الجيل الحالي، الذين لم يقرأوا له شيئاً، أو ربما لا يسمعوا به خلال العشر سنوات الماضية، وربما لن تصل كلماته في الأدب والإعلام إلى الأجيال القادمة، إذا كان التاريخ الأدبي يمضي بنا كسرعة البرق، ومعه تتغير القيم والمفاهيم من يوم إلى آخر.

إن من يبحث في حياة الكرمي، يوقن أشد اليقين، أنه يقف بإزاء بحر زاخر، فلا يدري من أين يبدأ وإلى أين ينتهي وهو في الفكر الأدبي أو الفكر السياسي والإعلامي والاجتماعي، بصفة عامة على حد السواء لا هو بالمقل في إنتاجه، بحيث يتيسر لمن أراد الإلمام به، أن يقتصر على محدود من مؤلفاته، ولا هو بالمبتذل المسف في أي كتاب من كتبه، حتى يستطيع من شاء أن يستغني ببعض كتبه دون بعض.

---

* نُشر هذا المقال في مجلة «**صدى الفاضلية**»، عمّان، ع ١٩ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٤.

** كاتب وتربوي أردني.

لقد انطفأت الشمعة بعد ما تركت نورها في قلوبنا، وغادر رحلته في الحياة، ليبدأ رحلته في عالم الخلود، عالم الأمان والاستقرار، وإذا عدنا إلى بداية حياته في القرن العشرين، لما وجدنا قلماً وفكراً، تنعقد حوله الآمال، وتتلهف إلى وقع دقاته الأسماع، سوى قلمه وفكره... ففي الوقت الذي كان شيوخ الأدب في ذلك الحين، قد استكانوا إلى نوع من الدّعة والهدوء، وأمست جولاتهم في ميدان الكلمة، أشبه بالدوران حول النفس لمجرد الدفاع عنها، وكانت أخبار فروسيتهم ما تزال تنبض في عروق الشبان الجدد.

معركة طه حسين مع التراث، ومعركة العقاد مع الكلاسيكية، ومعركة سلامة موسى مع الحضارة، كلها قد تحددت معالمها وتبلورت قيمتها قبيل الحرب العالمية الثانية، فإن الأدب العربي كان بحاجة إلى مد الشريان من الرواد، إلى الجيل الذي وُلد فيما بين الحربين العالميتين، بدماء الحياة، التي حددت التراث والمعاصرة والحضارة جميعاً.

لقد كان أدبنا بحاجة إلى ظهور الأستاذ الكرمي، الذي نادى بحرية الإنسان في كل مستويات الحياة، التي ينبغي أن يحياها بإرادته: مستوى التفكير والتعبير والسلوك والعقيدة، بلوغ حد من ضمان العيش الكريم، الذي يليق في عصر الشعوب بكرامه البشر.

يُعتبر الكرمي؛ واحداً من أشهر من رحل من جيل مضى وجيل حي، جيل الأدباء والعلماء البناة، الذين شيّدوا صرح الأدب والفكر العلمي والإعلامي، وواحداً من حلقة في السلسلة الذهبية التي تضم بين حلقاتها أسماء من طراز: الأساتذة زهير الكرمي، وراضي صدوق، والدكتور عمر الشيخ، والدكتور النابغة علي نايفة، وغيرهم الكثير من أبناء مدينة طولكرم.

ولا شك؛ أن عمّان يوم وارت ابن طولكرم مساء السبت ٥ أيار عام ٢٠٠٧ بعد حياة حافلة بالعطاء الإنساني والأدبي. وفي مجال الشعر والكتابة، على مدى أكثر من قرن من الزمان، وارته بكل إجلال وإكبار، ذاكرة له، كيف ناضل، وكيف شيّد، وكيف بنى، دون أن ينظر في سخط إلى الوراء ولا إلى الأمام... في حياته؛ رأى الكثير، وعرف الكثير، وعانى من الغربة الكثير، ومن الكثير الذي رآه وعرفه وعاناه، شق طريقه في ميدان الكتابة والصحافة، ومات وهو شيخ الأدباء في العالم.

في مدينة طولكرم وُلد، وبها تلقى تعليمه الابتدائي، ثم انتقل إلى دمشق، حتى أكمل تعليمه الثانوي فيها، وبعدها التحق بالكلية الإنجليزية في القدس الشريف عام ١٩٥٢، وكان من بيت علم وأدب وثقافة، وأخوته «أبو سلمى» عبد الكريم الكرمي (١٩٠٧ – ١٩٨٠) وأحمد شاكر الكاتب والأديب والمناضل، ومحمود الكرمي الذي عمل في الصحافة، وعبد الغني. وكان والده الشيخ الجليل سعيد الكرمي (١٨٥٢ – ١٩٣٨) رجل علم وفقه، ومن تلاميذ الشيخ محمد عبده، تزوج حسن الكرمي من سيدة سورية هي أمينة، وأنجب منها ولداً «زياد» وبنتين هما «سهام وغادة».

وبدورنا نقول: إذا وجب للأدباء حقهم في كل زمن، وإن كان هذا الحق أوجب ما يكون على الأمة العربية في هذا الزمن، وإذا نظرنا حولنا نبحث عن مثال... فذلك المثال هو حسن الكرمي، وذكرى الكرمي... فقد عمل مدرساً للإنجليزية في مدينة الرملة، ثم انتقل منها عام ١٩٣٤، ليدرس في الكلية العربية بالقدس، وبعدها تخصص في جامعة لندن في أصول التربية وعلم الإحصاء التربوي عام (١٩٣٧-١٩٣٨)، وبعد عودته إلى القدس، انتقل إلى إدارة المعارف الفلسطينية برتبة مساعد مفتش.

بعد انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين عام ١٩٤٨، وقيام دولة إسرائيل، التحق بالقسم العربي في هيئة الإذاعة البريطانية (راديو لندن)

مراقباً للغة حتى عام ١٩٦٨، وخلال مدة عمله، أعد سلسلة دروس لتعليم الإنجليزية في الراديو، التي أفاد منها الكثير من أبناء الأمة العربية، منهم من وصل إلى مراتب عليا في التعليم، وفي الحصول على شهادة الدكتوراه.

وفي إذاعة لندن الـ (B.B.C) أعد وقدم برنامجه الشهير «قول على قول»، الذي استمر في تقديمه ثلاثين عاماً متتالية، ونشرت مواد هذا البرنامج في أكثر من ثلاثة عشر مجلداً... ومن بعض أقواله: إن الوعي يثير السخط على كل ما هو كائن تطلعاً لما ينبغي أن يكون... والعزم والعقل يدفعان نحو التقدم الحضاري... ومهما أتقنّا من لغات أخرى، فإن لغتنا العربية الجميلة، تبقى هي التي ننتمي إليها، وهي التي نستطيع أن نعبِّر بها خير تعبير... وإن الثقافة التي يغلب عليها الكم على الكيف، هي ثقافة لا تدافع عن أية قيمة إنسانية، وإنما هي ثقافة تخدّر حواس الإنسان وتشل تفكيره... وإن الرجل الذي يستند في رأيه إلى العقل دون النقل، وإلى الخرافة دون ما تثبته التجربة، مثل هذا الرجل يصح أن يوصف بالإنسان التقدمي... وإن خلاص العالم مرهون بالإيمان والشجاعة: الإيمان بالعقل والشجاعة في إعلان ما يظهره العقل على أنه حق.

ستظل مؤلفات حسن الكرمي وأقواله، أثاراً باقية على الزمن، وستُضم إلى آثار الخالدين من العلماء والباحثين، مؤلفات جادة خصبة منتجة، ذات أثر فعال في ميادين الثقافة من أدب وتربية وإعلام، لقد ألف وحقق فكان في هذا وذاك، الرائد والمعلّم والإمام والباحث المجد... وإن عرضاً سريعاً لمؤلفاته، تظهر مقدار ما تحمل من تعب، ومن أهم مؤلفاته:

- قاموس «المنار» (انجليزي/عربي) عام ١٩٧٠، ثم سلسلة معاجم «المغني» ثنائية اللغة (إنجليزي/عربي) و(عربي/إنجليزي)، وهي «المغني الكبير» و«الوسيط» و«الوجيز».

- معجم عربي اسمه «الهادي إلى لغة العرب»، بالإضافة إلى ترجمته لكثير من الكتب. وله مقالات ومؤلفات في التربية وفي إصلاح المعجم العربي باللغتين الإنجليزية والعربية.
- ترجمة لكتاب «التفكير المستقيم والتفكير الأعوج» لمؤلفه روبرت ثاولس، في سلسلة عالم المعرفة، الجامع والمانع لصنوف العلم والتربية والحياة، وقد صدرت هذه السلسلة في دولة الكويت منذ عام ١٩٧٩.
- ترجمته كتاب «العرب والمسلمون في الأندلس»، تأليف هنري شارلس لي عام ١٩٨٨.

ورغم كثرة مؤلفاته الأدبية، الغنية بفكرها ومادتها وثقافتها، فقد كان له مواقفه المشهورة في بعض القضايا الإنسانية وقضايا العالم من حوله، فكان له موقف من الحرب العالمية الأولى، تجلّى في إدانته مشعلي نيرانها، وإتهام كل من شارك فيها بالقسوة والهمجية... أما حبه للحياة رغم تشاؤمه وظروفه النفسية، فتجلت في تشجيعه الأدباء الناشئين مادياً وأدبياً، أولئك الذين لا يجدون من يرعاهم، كما لم يجد هو في بدء حياته الأدبية من يرعاه.

لقد عاش حسن الكرمي في القرن العشرين، وفيه وقعت حربان عالميتان، كما وقعت فيه الكثير من الحروب والانقلابات والصراعات الإقليمية والأهلية والعرقية والعقائدية والعنصرية، إضافة إلى الحروب العربية الإسرائيلية، التي ما زالت نيرانها مستعرة في فلسطين... ومن أقواله عن مأساة فلسطين بعد الاحتلال الصهيوني لها، أن قال: إننا نعيش حقاً أحرج ساعاتنا التاريخية، ونواجه مسؤوليات ثقيلة، ونتعرض لأفدح فاجعة عرفتها القومية العربية. ولكن؛ هذه الفاجعة مع ذلك في حكم التاريخ، تحمل في طياتها وعياً قومياً جديداً، وتكتب للعروبة عمراً جديداً في مستقبلاً جديداً.

ولا يغيب عن بالنا، أن حسن الكرمي كان من أبرع شعراء العربية في القرن العشرين ومن الشعراء الذين نادوا بالتجديد والبُعد عن أساليب الصناعة اللفظية، التي تقوم على التزويق والترصيع... ذلك لأن الشعر كان لا يقصد به إلا الوزن والاستكثار من المحسنات البديعية، والتلاعب بالصيغ المتوارثة، التي اتخذت طابع الجمود والثبات، فإذا كان البارودي وشوقي وحافظ إبراهيم، قد استطاعوا أن يخلّصوا الشعر العربي من هذه الخصائص المستهجنة، وأن يعيدوا إليه ديباجته الناصعة، فإن حسن الكرمي قد صاغ بلا شك، بعضاً من تجاربه الخاصة، وتجارب عصره، صياغة شعرية قوية لا تقل جودة عن صياغة كبار شعراء العربية.

في الحق، لم يكن حسن الكرمي، ناقداً فحسب، ولا فكراً أو إعلامياً وكفى، بل كان إلى جوار هذا كله، باحثاً متأنياً ومتابعاً متقصّياً، يبحث عن المظان التاريخية والأدبية، بين الشوك والحصى، بل يسبر غوره ويتعمق معادنه، فيدرك المرمى ويستنبط الفكرة المقصودة، ووقف مواهبه على كشف الحقيقة، وأخلص لها ووقف دونها.

لم يكن حسن الكرمي، من أولئك الأدباء المحليين، الذين يفدون على البشرية ثم يتركونها، وليس لهم إلا ذلك الأثر المحدود، الذي لا يتجاوز نطاق أوطانهم، ولكنه كان علماً من أعلام القرن العشرين، وكان واحداً من أولئك القلائل الذي يصدق في حقهم، أنهم كانوا محصلة رائعة لكل ثقافات العصر واتجاهاته، وأنهم حين ذهبوا، تركوا وراءهم لمسات كثيرة، ما تزال حية نابضة في بلادهم، وبلاد أخرى من العالم.

ففي عام ١٩٦٩، قلدته الملكة إليزابيث (ملكة بريطانيا) بوسام لخدماته في العمل الإذاعي... وفي عام ١٩٨٣ منح لقب عضو شرف في مجمع اللغة العربية الأردني... وفي عام ٢٠٠٦، منح شهادة دكتوراه فخرية، من قبل جمعية المترجمين العرب... حقاً كان حسن الكرمي إنساناً عظيماً، وأحد أسرار عظمته الكبرى، إيمانه العميق بالإنسان الفلسطيني بخاصة والعربي بعامة.

أما رأيه في كتّاب عصره فيقول: إن الكتّاب أحد رجلين: فكاتب يكتب ابتغاء مرضاة القوم، وكاتب يكتب مرضاة الحق، ويرى أن الفرق بينهما هو الفرق بين ثمرة البلح ونواته، فكلوا أن شئتم من الثمر هنيئاً مريئاً، ولكن اعملوا بأن النواة التي تنبذونها، هي التي ستغوص في الأرض، لتتوارى تحت ترابها حيناً، ثم يسوق إليها الله سحاباً فيحييها، فتبزغ وتنمو ويمتد ظلها... ويأكل من ثمارها الأبناء والأحفاد... وذلك هو أدب الكرمي وفكره.

إن حسن الكرمي هو أخصب المفكرين، أو هو من قادة الفكر الذين استنارت عقولهم، فأرادت أن تنير، وعرفت، ثم جعلت هماً أن تنشر المعرفة في الآخرين، وكان الأكثر نتجاً والمعهم عبقرية، فهو المنطقي والصحفي والإعلامي الفذ، وهو الداعية إلى الحرية الإنسانية، لأن غاية الإنسان هو دائماً تعديل النظام المادي الراهن، من أجل العمل على تحقيق الإنسان الجديد.

وبعد هذا كله، هل يعقل أن يقال بأن حسن الكرمي كان من صناعة الحضارة الغربية والفكر الغربي وحدهما؟! أليس هو القائل: إننا ننكر التفكير بعقول غيرنا، سواء أكانت هي عقول الغربيين، أم كانت عقول الأقدمين، ففي كلتا الحالتين نكون أبواقاً لا تنبض بالحياة.

في الحق إن حسن الكرمي هو صناعة فلسطينية عربية بامتياز، صقلته مطارق الغرب، فاستقدم تحت وقعها هذا العربي الفلسطيني وفكره المعاصر، الذي ما زال يشع علماً وسراجاً منيراً... رحم الله حسن الكرمي، وأنزله من جنته منازل الصديقين والأبرار.

حسن الكرمي مفكّراً موسوعياً*

كايد مصطفى هاشم**

يكتنف الكتابة عن الموسوعيّين، غالباً، شيء من الحَيرة، لا سيما إذا كانوا من أصحاب المشروعات ذات الآفاق الفكريّة الممتدّة في مجالات معرفيّة عدّة وعبر زمن طويل نسبيّاً. فزاوية الكتابة في هذه الحالة - مهما ضُيِّقَت - تبقى عصيّة الفصم والعزل عن تشعُّباتها واتصالها المتناسج مع زوايا أُخرى جديرة بالاهتمام والتنويه. ومحاولة الاجتزاء - ولا سيما أمام مقتضيات الكتابة في الجرائد والمجلات - لا تخلو من الشعور باقتراف التعسُّف بحقّ مَنْ يُكتَب عنهم أو مَنْ يدور حوله الحديث!

والراحل حسن سعيد الكرمي (١٩٠٥-٢٠٠٧)، الذي عاش مئة عام ونيف، من أكثر الموسوعيّين الكبار الذين تتناوش الكتابة عن إنتاجهم الفكريّ أسباب الخشية من عدم الاستيفاء، حتّى في حدٍ أدنى، لاتساع الصورة التي يختزنها الذّهن عن الرّجل وأعماله وتشابك تفاصيل سيرته وخبراته - لا سيما في التّعليم والإعلام - مع انعكاساتها على صعيد التأليف والتصنيف المعجميّ والترجمة. رغم ذلك سأكتفي هنا بمعالم مجتزأة من تلك الصورة الكبيرة،

---

* نُشر هذا المقال في الملحق الثقافي لصحيفة «**الدستور**» الأردنيّة/ملف خاصّ عن حسن الكرمي، يوم الجمعة ٢٩ حزيران /يونيو ٢٠٠٧.

** كاتب وباحث أردني؛ مساعد الأمين لعام لمنتدى الفكر العربي ومدير تحرير مجلة «**المنتدى**».

محاولاً أن تكون دالّة، ولي العذر في أنّ هنالك مَنْ هم أقدر مني على الخوض في جوانب هذا الإنتاج الشاسع الأطراف، ولهم من تخصُّصاتهم ومعرفتهم بالراحل وفكره وآثاره ما يكفيني المؤونة لمقاومة إغـراء الخـوض في بحر زاخر لا أستطيع معه القول إنّني أعرف له حدوداً.

ومن أوليّات الحديث عن حسن الكرمي الإشارة إلى «قول على قول»، البرنامج، ثمّ الكتاب الذي تعدَّدت أجزاؤه فبلغت (١٢) جزءاً، وقيل أن الجزء الثالث عشر ما يزال حبيس الأدراج. ولا شكّ أن عوامل شهرة البرنامج، الذي كان يبثّه القسم العربيّ في هيئة الإذاعة البريطانيّة (B.B.C) حتى عام ١٩٨٩، واستقطابه ملايين المستمعين النّاطقين بالعربية من شتى الأرجاء ومختلف الفئات، تختزلها شخصيّة معدّه ومقدّمه في ثقافته الأصيلة المتعمّقة الممزوجة بعشق نادر للأدب والشِّعر واللغة، ونَفَس طويل في التّدقيق والمتابعة والتّتبُّع، وجَلَد أسطوريّ في مواصلة الغوص في مصادر التراث العربيّ بمجلّداتها الضّخمة، ليستخرج الإجابات الوجيزة والوافية على أسئلة المستمعين الواردة إليه بكثافة ودون انقطاع.

وقد لا نبتعد عن الحقيقة كثيراً في تلمُّس مشروع حسن الكرمي في «قول على قول»، حينما نقول إنّ نجاح البرنامج الإذاعيّ ذاك واستمراره على مدى أكثر من ثلاثين عاماً، بالتوهج نفسه الذي رافق بداياته، لا يعود فقط إلى براعة استهلال كلّ حلقة بتلك العبارة اللافتة للانتباه والجاذبة لفضول المستمع: «وسألني سائل من القائل وما المناسبة؟»، ولا فقط لأسلوب البرنامج الأنيس وحُسن اختيار مادّته وقوة الإقناع في الجواب والإلقاء الآسر لأبيات الشعر الذي تميَّز به الكرمي، لكن إلى غاية لا تخفى من تقصُّد لتوظيف كلّ هذه العناصر من أجل إعادة الاعتبار للأدب والشِّعر وجمال القول مبنىً ومعنى، وتوجيه حصيلة البحث المضني نحو تغذية الأرواح، وتقديم ثقافة أدبيّة سائغة تصقل الأذواق

وتربّي ملكاتها، بصفاءٍ يعزف عن أساليب الإثارة الإعلامية السهلة التي تفرغ المضمون من جوهره وتسطّح الخِطاب.

لم يبتعد الكرمي عن تكوينه النفسيّ والعلميّ وعمله الأول في فلسطين، معلّماً ومربياً، حينما أعدّ وقدّم في هيئة الإذاعة البريطانية برامج مثل: «نقل الأديب» - والعنوان ذاته بالمناسبة هو عنوان لأحد كُتب أديب العربية إسعاف النشاشيبي – و«لكلّ سؤال جواب» و«تعليم اللغة الإنكليزيّة بالراديو»؛ فضلاً عن «قول على قول»؛ بل إنّ سمات المعلِّم جلية الأثر والتأثير في مجمل ما صنع وأنجز في عالم المعرفة؛ مضافاً إليها مدركاته الثقافيّة الإعلاميّة في خواص الاتصال ودقائق عمليّة التواصل المبنيّة على البحث والاختبار اللغويّ، سواء في أسرار لغته العربية الأم، أم في مطاوي اللغة الإنكليزيّة، التي شهد له بعض زملائه من البريطانيين بتفوقه في معرفتها على ما يعرفه الإنكليز أنفسهم، وأيضاً على تجربة العيش والتعايش في الغرب والتواصل مع الآخر بمستويات مختلفة، وإرادة ذاتية – في الدرجة الأولى – لإعمال الفكر حرّاً طليقاً بأجنحة ترفض التواري، والنّهل من تجارب القراءة والتأمل والتحليل في كلّ مفاصلها ومنحنياتها ما وسعه النّهل.

كان عماد مشروعه الرئيس إنعاش روح اللغة العربيّة وتطويرها من داخلها، أي من طبيعتها نفسها، وتخليصها من تحجُّر المعاجم، ما جعل الفكر عند العرب – كما يرى ويقول هو نفسه – متحجّراً أيضاً. ففي حوار أجرته معه قبيل وفاته مطبوعة «شُرفات الشام»، التي تصدرها وزارة الثقافة بسورية، يقول الكرمي: «إنّ اللغة العربيّة لغة عالميّة كالإنكليزيّة والفرنسيّة والروسيّة، ولها ميزة هي أنّ الفعل فيها أهمّ من الاسم، عكس اللغات الأوروبيّة التي يكون فيها الاسم أهم من الفعل، وبالتالي فإنّ اللغة العربيّة لها طبيعة خاصة تخالف طبيعة اللغات الأوروبيّة، ومن الطبيعي أنْ لا تنطبق عليها الدراسات التي

استُنبِطَتْ من لغاتٍ تختلف معها في الطبيعة». ويضيف في هذا السياق جواباً على سؤال حول التحدّي المفروض على اللغة العربيّة من طوفان المصطلحات والمفاهيم: «كلّ اللغات تواجه تحدّيات، ولولا هذه التحدّيات لما كان لأية لغة أنْ تتطوّر نحو الرقي. وإنَّ العرب هم المطالبون بتطوير لغتهم بحيث تتماشى مع التقدّم الحضاريّ والرقي العلميّ من جميع نواحيه، وهم الآن ليسوا على درجة كافية من العلم أوّلاً، ولا على درجة كافية من المقدرة اللغويّة ثانياً، وهذا هو سرّ المشكلة».

ولأنَّ لكل لغة روحها، وهي تجري بوحي من تلك الروح، فالكرمي يؤكّد أنَّ على الكُتَّاب والأدباء أنْ يتحسَّسوا روح العربيّة ويتجاوبوا معها. وفي منظوره - رغم أنّ كثيرين يخالفونه الرأي - أن تطوّر العربيّة يجري عن طريق العاميّة بعكس الإنكليزيّة التي تطوّرت بتأثير الكُتَّاب والأدباء والعلماء. لهذا لا يجد في دراسة العامية العربيّة خطورة؛ لأنها بنظره «لغة العامة» دون الخاصة، وهي لغة الواقع والعلاقات بين النّاس، ودراستها تكشف عن مخزونٍ من الفلسفة الشعبيّة في الحياة ... غير أنّه يُرجِع صعوبة اللغة العربيّة - أو ما يُعدّ صعوبة - إلى وجود «لغتين» في الاستعمال منذ الصغر: لغة فُصحى و«لغة عامية»، وأنّ المشكلة هي في الكيفية التي تُصبح بها «اللغتان» على درجة واحدة من المأنوسيّة والاستعمال على الأقل.

ولست في معرض تحليل آراء الكرمي اللغوية وتفصيل رؤيته ومنهاجه في وضع المعاجم، لكن لعل هذه المقتطفات من أقواله تحيلنا إلى شيء من بواعث وملامح مشروعه المعجميّ الأجلّ، الذي بدأه بقاموس «المنار» الثنائي (إنكليزي-عربي) ١٩٨٦، الذي وجهه إلى الطلاب في المراحل الدراسية العُليا والمترجمين؛ مهتماً بإبراز اللفظ والمعنى بدقّة لتيسير التناول في كلتا اللغتين، دون أنْ تكون مادّة لغة على حساب مادّة أُخرى. وتوسّع في هذه الطريقة وزاد عليها في سلسلة

معاجم «المُغْني» الثنائية: «الأكبر»، و«الكبير»، و«المغني زائد»، و«الوسيط»، و«الوجيز»، التي توالى ظهورها في السنوات اللاحقة... ديدنه فيها ومدار جهده سلامة اللفظ، ودقّة المعنى ومواءمته لمستخدم المعجم ومستواه الدراسيّ وحاجته العمليّة. فعلى سبيل المثال، اعتنى في «المُغْني الكبير» بإيراد استعمالات الأفعال مع أحرف الجرّ والظّروف، وغير ذلك من الاستعمالات الموضحة بالشروح والأمثلة والشواهد، ما يعلِّم اللغة الإنكليزيّة تكلُّماً وكتابةً، وفي الوقت نفسه يعلِّم اللغة العربيّة في المقابل بطريقة غير مباشرة؛ ويُظهر اختلاف طبيعة كلّ لغة عن الأُخرى من خلال المعاني المضمّنة في الشواهد. وفي «المُغْني الفريد» يوجّه عنايته إلى الاستعمالات اللغويّة الأمريكيّة في الأفعال والأسماء والصفات؛ آخذاً في الاعتبار مضاهاة هذه الاستعمالات لنظيراتها الإنكليزيّة من حيث الانتشار والأهمية؛ مقدماً بذلك صورة للتطوّر اللغويّ لدى الآخر يمكن الاستفادة منه في تطوير اللغة العربيّة، من دون إغفال طبيعتها وما لها من خصوصيّة، وهو الأمر الذي كان شغله الشاغل وهمّه الماثل في نهاراته ولياليه، والذي تجلّى في معجمه الأُحاديّ الضخم المكوَّن من مجلَّدات أربعة: «الهادي إلى لغة العرب».

وهذا الانشغال بالتطوير اللغوي ودقّة الأداء وفتح منافذ التنفُّس الفكري، جعل الكرمي، رغم تقدُّم السن به، دائم الاتصال بالواقع من حوله: يقرأ بنهم ويتابع بدأب، ويُبدي بجرأة الناقد المتمرِّس ما يرى في شؤون اللغة والثقافة والفكر. وأحد دلائل هذا التفاعل، عدا سلسلة مقالاته التي نشرتها مجلّة «الأديب» اللبنانيّة في نحو أربعين من أعدادها تحت عنوان «طبقة الفُهماء» وغير ذلك من مقالاته الكثيرة، تصدّية لتأليف كتاب يعدّ من أهم ما كُتب في الدراسات اللغوية العربيّة المعاصرة، وهو المعنون بـ «اللغة: نشأتها وتطوّرها في الفكر والاستعمال»، الذي يشكّل مدخلاً واسعاً لدراسة فكره اللغوي، وكذلك تأليفه لكتابٍ بالإنكليزية عن مواقع القداسة في فلسطين؛ فضلاً عن ترجمته لكتابين مشهورين من اللغة

الإنكليزية، أولهما «التفكير المستقيم والتفكير الأعوج»(Straight and Crooked Thinking) لروبرت هـ. ثاولس، وقد نُشرت الترجمة، التي راجعها صدقي عبدالله حطّاب، في سلسلة «عالم المعرفة» بالكويت في آب/أغسطس ١٩٧٩. وهذا الكتاب يبحث في منطقيّة طرائق التفكير باستخدام اللغة شفاهةً أو كتابةً من خلال نماذج تطبيقية وشواهد مُنتقاة تكشف خفايا تلك الطرائق التي هي خفايا التفكير والإيحاء، خاصة الأعوج منه، بأسلوب راعى فيه المؤلِّف بحذق قدراً عالياً من الوضوح. ومع ذلك فإنَّ حسن الكرمي يصارح القارىء بأنّه عانى من الصعوبة في إيجاد «العبارة الملائمة للغة العربية من جهة وللقراء العرب من جهة ثانية»، والسبب – على حدّ تعبيره – يكمن في أن «اللغة العربية قد ابتعدت زمناً طويلاً عن معالجة القضايا التفكيريّة المنطقية حتى فقدت المفردات المناسبة لها في الاستعمال. ثم إنَّ القراء العرب لم يعهدوا من قبل في العصور الأخيرة التصدّي لفهم أمور الفكر والمنطق باللغة العربيّة». ولذلك يطلب من قارىء كتابه المُترجَم أن يبذل الجهد ويُعمِل الفكر عند القراءة؛ مؤكّداً محاولته من خلال الترجمة إفهام القاريء ما يريد المؤلِّف أن يقوله بلغة سهلة مع المحافظة على الأصل، وإنْ كان يضطر أحياناً إلى زيادة عبارة هنا أو هناك لزيادة المعنى وضوحاً.

إن الكرمي في مقدّمته القصيرة لكتاب ثاولس يشير إلى قضية شديدة الخطورة ما زلنا نعانيها ونلحظ تأثيراتها في التعليم والإعلام والثقافة والإدارة والبحث العلميّ في البيئة العربية حتى أيامنا هذه، وهو بإشارته الخاطفة أيضاً يضع أصبعه على مكمن من مكامن التخبُّط في الخطاب والتلقّي، الذي يشوب العلاقات في هذه المجالات الأساسيّة، والذي يتراجع بها فيما يبدو التراجع غامض الأسباب، وحقيقته «عوج التفكير»، و«انحراف المعاني» عن دلالاتها المنطقيّة، وغياب المنطق، وتشتُّت الفكر النّاقد، وبالتالي عدم سوية أدوات التقييم والتقويم.

أما كتابه الثاني المُترجَم: «العرب والمسلمون في الأندلس بعد سقوط غرناطة»، الذي طُبع عام ١٩٨٨، فهو ترجمة لفصلٍ طويل من المجلَّد الثالث لكتاب تاريخيّ يتألَّف من مجلَّدات أربعة، وضعه هنري تشارلس لي بعنوان (A History of the Inquisition in Spain)، «تاريخ محاكم التفتيش في إسبانيا»، طُبع في لندن ١٩٠٧. ويقول الكرمي إنَّ ما دعاه إلى ترجمة هذا الفصل أنه لم يكن في المكتبة العربية بحث تاريخي عن العرب والمسلمين في إسبانيا بعد سقوط غرناطة، فأراد أن يضيف هذا البحث إلى تلك المكتبة، لكنه ما يلبث أن يفصح عن دافع أهم من مجرد إضافة أثر إلى اللغة العربية، وهو الإحساس بأوجه الشبه بين «ما جرى ويجري لعرب فلسطين بالاحتلال الإسرائيليّ لبلدهم وإنشاء دولة إسرائيل فيه»، و «ما جرى للعرب والمسلمين في إسبانيا من اضطهاد وقهر وانتزاع أملاك وأموال وطرد وتشريد وغير ذلكس.

ويحدّد الكرمي في مقدّمته للفصل الذي اختار ترجمته وعلّق عليه في مواضع عدّة، وجهاً للتشابه بين الحالتين «من حيث أنّ عملية استرجاع المفقود من الأرض أصلها ديني ثم قوميّ ثانياً، وقد كانت العمليّة في الأندلس ضد العرب والمسلمين، وهي في إسرائيل ضدّ الكوييم غير اليهود» وفي موضع آخر من المقدّمة ينبّه إلى أن ما جرى في الأندلس يجب أن لا يسيء إلى أحد، ولا أن يُحمَل على محمل دينيّ. ويشير إلى إنّ التفرقة ضدّ العرب والمسلمين (الموريسكو) هي عين التفرقة ضدّ العرب في إسرائيل. كما يجد الكرمي تشابهاً بين ما كان يبديه البابا والنبلاء أحياناً من انزعاج لسوء المعاملة التي يلقاها العرب والمسلمون بعد سقوط الحكم العربي في الأندلس، وما تعرب عنه بعض الدول ولا سيما الولايات المتحدة (والكلام هنا عام ١٩٨٨)، وهو - بتعبير الكرمي - «كلام يذهب مذهب الرياح والنتيجة واحدة. وكانت غاية الإسبان إخراج العرب والمسلمين كافة، وهذه لا تزال غاية إسرائيل» (ونضيف إلى ذلك الفرق بين الإسبان الشعب

وأهل البلاد الأصليّين في الأندلس، والغزاة الإسرائيليين الصهاينة الذين جاءوا فلسطين أشتاتاً ليحتلوها) . وهنا ينجلي غرض الكرمي من ترجمة ما كتبه هنري تشارلس لي في اطلاع القارىء العربي أو المسلم على مصدرٍ فيه بعض العظات والعبر في محنته الحاضرة؛ مردفاً ذلك بالقول ... «مع أنّ العربي أو المسلم، كما يظهر حتى اليوم، لا يتعظ بالوقائع والحقائق مهما تكرّرت وكانت بالغة»!

ورغم أنني لا أرمي إلى أن أحوّل مقالي للحديث عن هذا الكتاب ومضمونه، إلا أنه تجب الإشارة إلى أن الكرمي نبّه فيما يشبه التنبوء قبل أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر إلى مسألتين، هما: أنه قد يوجد عذر لما جرى للعرب والمسلمين على أيدي محاكم التفتيش في عصور مظلمة سيطر عليها التعصب الديني الأعمى، لكن من الصعب إيجاد عذر لما يلقاه العرب والمسلمون في فلسطين وخارجها في القرن العشرين. والمسألة الثانية أنه قد يُنظر إلى إخراج العرب والمسلمين من الأندلس كمظهر من مظاهر حملة التوسع الاستعماري في أوروبا في ذلك الزمان، فيما يُنظر إلى الاحتلال الإسرائيلي على أنّه آخر حملات ذلك التوسع التي تحدث بحماية الأمم المتحدة والدول الغربية والولايات المتحدة بصورة خاصة.

على أي حال فالحديث عن آراء الكرمي في التاريخ والنّقد التاريخي يحتاج إلى بحثٍ على حدة، ذلك أن هذا جانب يكاد يكون منسياً من بين جوانبه الفكريّة المتعددة. وما اللمحات التي أكتبها ويكتبها غيري في هذه المناسبة إلا ممهّدات لخوض بحرٍ عميق نكتشف فيه المزيد بعد غياب بحاره حسن الكرمي، الذي ترك لنا أشرعته منشورة على مساحة الأفق، رحمه الله.

ملف مجلة «المنتدى» حول كتاب

«قضايا في الفكر والتفكير عند العرب»*

للراحل الأستاذ حسن سعيد الكرمي

(العدد ٢٥٧؛ ٢٠١٣)

تقديم: كايد مصطفى هاشم**

الحـــديثُ في هذا اللقـــاء عن عـــالم ومفكرٍ جليلٍ، شَرُفَ منتدى الفكر العربيّ بأن ينشرَ واحداً من مخطوطاتهِ المتعدِّدة (كتاب «**قضايا في الفكر والتفكير عند العرب**»). والفضلُ في ذلك - بعد الله - لرئيس المنتدى، سموّ الأمير **الحسن بن طلال**، الذي عهدنا فيه وفاء العالم المفكِّر الحكيم لأهل العلم والفكر والنَّظر، والذي بادرَ بحماسة المُحِب إلى مبارَكةِ تبنّي المنتدى لنشر مخطوطات أستاذه وصديقه المرحوم **حسن سعيد الكرميّ** (١٩٠٥-٢٠٠٧). فكان هذا الكتاب الذي نحتفي بإشهاره اليوم، ونقدمه باعتزازٍ إلى القراء العرب، ومَنْ يقرؤون بالعربيّة، من المتخصصين وغير المتخصصين، ولا منّة في هدايا المعرفة.

---

* الكلمات التي ألقيت في حفل إشهار هذا الكتاب، الذي أقامه منتدى الفكر العربي في مقرّه يوم الأربعاء ٢٠١٣/٥/١٧، وأداره معالي أ.د.**إبراهيم بدران**، عضو المنتدى ومستشار رئيس جامعة فيلادلفيا/ الأردنّ، وشارك فيه كلٌ من : السيدة سهام حسن الكرمي، والدكتور سمير مطاوع، وكايد هاشم.

** مساعد الأمين العام لمنتدى الفكر العربيّ، ومدير تحرير مجلة «**المنتدى**».

ويسعدني - في هذه المناسبة - أن أزفَّ إليكم أننا في سبيلنا قريباً لإصدار مذكِّرات الكرميّ التي أملاها على ابنته السيدة **سهام**، وهي المذكِّرات التي تُشكِّلُ وثيقةً إنسانيّةً من خبرات إنسان عاش قارئاً باحثاً مفكراً كاتباً مئةٍ ونيفٍ من الأعوام، لكنه في دنيا الفكر ارتحلَ حيّاً عبر الدهور، وجالَ في العصور، وارتادَ مستقبلٍ سيتردَّد فيه ذِكره وصداه – بعدَ الممات - بما تركة من ميراث الكنوزِ العقليّة والفكر المنقِّب عن الأسئلة قبل الانشغال بمعرفة الإجابات.

لا أُبالغ إذا قلت إنّ كتاب «**قضايا في الفكر والتفكير عند العرب**» من أهمّ الآثار التي قدّمها المفكِّر المرحوم الأستاذ حسن الكرمي في الفكر العربيّ المعاصر، لأنَّ هذا الكتابَ يمثلُ خلاصةً لخبراتٍ متنوِّعةٍ وعميقة في البحثِ والدراسةِ والنظر العقليّ، ليس في شؤون تخصصيّة ضيقة حول اللغة والفكر والتفكير والتربية والتعليم، فحسب، وكما هو ظاهرٌ من عنواناتِ فصول الكتاب، وإنما - ويدرك القارىء ذلك منذ الفصل الأوّل في الكتاب - في أبعادٍ مفصليةٍ ومؤشرات تثيرُ الفكر وتحرِّك التفكير وتداعيات السؤال، وتتعلَّق في المحصِّلة بتاريخ العرب الاجتماعيّ في كثيرٍ من الجوانب.

كانَ الأستاذ الكرميّ يردِّدُ أنه لا تاريخ اجتماعيّ لدينا نحنُ العرب، وكان يمكن أن يتصدَّى لوضعِ كتابٍ أو أكثر، يسرُدُ فيه التاريخ الاجتماعيّ على نحوٍ ما، لكنَّهُ ارتادَ الموضوع عبرَ سياقٍ من التداخل المعرفيّ، ومن حيث وصلَ إلى هذا الحكم بتبيان الأسباب والعوامل التي رأى أنها تكمنُ وراء ما يمكن أن نَصِفَهُ بفهم وتشخيصِ أصول المعضلات التاريخيّة المزمنةِ في الشخصيّة الجمعيّة العربيّة، وفي أزمة التفكير، والمسلكيّة الاجتماعيّة، وصِراع الانشداد إلى المقدَّس

والاستجابة لسنن التطوّر والتجديد، وبالتالي في إدراك متانةَ النسيجِ في هذه الشخصيّة وذهنيتها، ومدى استجابتها للتعامل السويّ مع المعضلات، وكذلك مواضعِ التهلهل؛ بل قل الداء فيها، دون أن يقصُر عن تقديم ما رآه علاجاً، فيه ما فيه من نجاعةٍ بالقياس إلى التجربة الإنسانيّة العامّة. فالتفكيرُ – والقول للكرميّ – «دليلٌ على الرقي العقليّ، ويمكن معرفة درجة رقي الشعوبِ من معرفةِ طرق تفكيرها». فهو يتحدَّث – مثلاً – عن ألاعيب الأفكار المدسوسة عبر وسائط الدعاية والنشر والإعلام، باستغلال أنَّ الناس عموماً ليس لديهم الوقت لأن يُمحصوا الأقوال ليعرفوا الصادق من الكاذب، ولا لديهم من التفرُّغ الذهنيّ لإعمالِ المنطق والنظر فيما يُقال، فيُساقون إلى قبولِ ما يُقال لهم من غيرِ إمعان، بل إنهم يخافونَ من المعارضةِ والاحتجاج. يقول هنا: «إنَّ الأكثريّة الغالبة من الناس لا تفكِّر، والذين يفكِّرون لا يزيدون عن الربع على أكبر تقدير». وهذا سبب أنَّ «الأكثريّة تقفُ سدّاً منيعاً ضدّ انتشارِ أي رأي جديد أو مُخالِف، ولا عبرة في أن يكونَ الرأي الجديد سليماً منطقيّاً مقبولاً عقليّاً. وهنا تكمن الصعوبة التي تواجه المفكِّرين لدحض الرأي السائد».

ويتحدث ضمن ما يتحدث فيه عن العادات المنحرفة في التفكير، وعن تعبير «فتنة اللغة» المرتبط باللغة العربيّة؛ بمعنى أن يستعمل الإنسان كلمة ويظنّ أن مدلولَها موجودٌ فعلاً خارج الذهن، فيعيشُ عالماً موهوماً، يقوم على الافتتان بالصورةِ الكلاميّة على اعتبار أنها حقيقةٌ واقعة، فيكتفي بالأقوال ويؤمن بصحتها، ولا شيء في الواقع يؤيد!

ثم هو يحلِّل الاستعباد البغيض، حتى في العالم الحرّ لمعاش الإنسان وتفكيره، والتطبُّع على العبودية الذي هو مَدرَجةٌ إلى الطبع، وما أدت إليه العقلية

التي تطبَّعت بالعبوديّة لصالح العصبيّات من تشوّهات اجتماعيّة أعلَت من قدر الغريب الأجنبيّ، وزرعت التحاسد والتباغض بين ضحاياها، فشلَّت تفكيرهم، وامتصَّت طاقاتهم الإيجابيةِ نحو مزيدٍ من العبوديّة.

والأمثلة كثيرة في هذا الكتاب، الذي يمكن وصفه بالكتاب المحرِّض على يقظة التفكير، التفكير الناقد للذات أولاً، وليس جَلد الذات كما هو التعبير السائد، والمحرِّض على التساؤل حول حقيقة ما أصبحَ مسلَّمات في التفكير، لعل الإدراك العقلي المنطقيّ ينهض من رقدتهِ، وتخفّ وطأة الغربة النفسيّة التي باتت سِمة تهدد بنية مجتمعاتنا، وتسهِّل لمن لا يروم خيراً أن يجد اللقمة سائغة لا تكلّفه أدنى جهدٍ في تناولها.

قصة كتاب

«قضايا في الفكر والتفكير عند العرب»

سهام حسن الكرمي *

هذا الكتاب الذي نحن في صدد الحديث عنه، كان حسن الكرمي قد كتبه في السنوات الأخيرة من عمره، ولم يعش ليراه مطبوعاً كما نراه نحن الآن. كتبهُ وقد خبا بصرُه وارتجفت يداه فلم يقوَ على التحكُّم بالقلم. لذلك، فقد اعتمد على الآخرين في نقل أفكاره إلى الورق. وهذا أيضاً كان رهنَ دقّةِ المُتلقِّن وأمانتِه، إضافةً إلى قدرة الكاتب على نقل أفكاره بسلاسةٍ دون رؤيةِ ما يُملي. مع ذلك جاء الكتابُ عل أفضل ما كان قد يتمنّاه الوالدُ من حيث المحتوى وعمقِ الموضوع. ولا بد هنا من القولِ بصدق إنني راجعت الكتاب بدقةٍ وأمانةِ المُراجِع ليخرج إلى القارئ لا تشوبُه شائبة.

هذه الأفكار هي ما كان الوالدُ لا يفتأ يتكلَّم عنها، وقد أعطاها ما أمكنه في هذا الكتاب، لكنها ليست شاملةً لجميع ما كان يُقلقه ويقُضُ مضجَعه في هذه

---

* تربوية ومؤلِّفة.

الحياة. فكثيراً ما كان يشكو من قلّة اهتمام الشعب العربيّ بالقراءة وقلّةِ صبرِه على سماع حديثٍ ذي شأن إمّا في محاضرةٍ أو برنامجٍ راديو. وكان يعزو ذلك إلى عدم تعوُّدِهم على القراءة المُفيدة منذ الصغر في المدارسِ أو البيت، ولضعفِ المناهج الدراسية التي لا تتطلَّب من التلميذِ المطالعةَ لاستنباط المعلوماتِ؛ بل تَتوقَّعُ منه حِفظَ المعلومات، سواءٌ فهمَها أم لم يفهمها. وباعتقاد الوالد أن عدم وجود قاموسٍ مُبسَّط في متناول التلميذ يستنيرُ به في التحقُّقِ من معاني الكلمات والطريقةِ الصحيحة للفظها هو سببٌ آخرُ في التهاون فيما بعد باللغة والعلوم كافة.

وموضوعٌ آخرُ كان يشغَل بال حسن الكرمي هو الترجمة. فكان يرى أنَّ المترجم الحقّ يجب أن يكون فقيهاً في اللغتين: اللغةِ التي يُترجِم منها واللغةِ التي يُترجم إليها. كما ينبغي له أن يكون ذا دراية تامة بالثقافةِ والأدب والتاريخ حتى لا تفوتُه الخلفيةُ للمعلومات عند نقلها إلى اللغة الأخرى. وكان دوماً يشير إلى مثالٍ على ذلك في الترجمةِ الحرفية التي استخدمها الكثيرون عند الإشارة إلى «جَوزة الحَلق» بتعبير تفاحةِ آدم. فهذا التعبيرُ في الإنكليزية يشير حتماً إلى قصةِ الخليقة في الديانات القديمة التي أشارت إلى تناول آدمَ للفاكهة المُحرَّمة على شكل تفاحة. بينما قصةُ آدم في القرآن لم تذكر نوعَ الشجرةِ المُحرَّمة، ولو وَعى المترجمُ الخلفيّةِ الثقافية لهذه القصة لما أخطأ. وكم شكى الوالدُ من إساءةِ المترجمين إلى الثقافةِ العربية بترجمة الكتب الأجنبية ترجمةً ركيكة واستخدام تعابيرَ خاطئةٍ سَرَتْ فيما بعد في وسائل الإعلام، ودَرَجَ الناسُ على استعمالها وهي خطأ.

حاول البعضُ عن حُسن نيةٍ، برأي الوالد، إعادةَ نشرِ أمّهات الكتب العربيةِ القيمةِ بكلفةٍ لم يَضُنوا بها، بغيةَ إنعاش تلك الثقافةِ في أذهان النشء. لكن، في رأي

الوالد أيضاً، أن ذلك لن يُجدي نفعاً ما لم يرافق هذه الكتبَ هوامش ومقدماتٌ تُفسِّر مضمونَها بلغةٍ مُبسَّطةٍ يفقها القارئُ الحديثُ ويستسيغُها مما يُشجعُه على القراءة، وهذا هو المطلوب.

وعودةٌ إلى الكتابِ الذي بين أيدينا، فقد أسهبَ المؤلفُ في الحديث عن إصلاح المعجم العربي لتتحدَّدَ معاني الكلماتِ فتتضحُ الصورةُ في ذهن المرء، وبذلك ينصلحُ الفكر. من دون ذلك تحصل البلبلةُ فلا يعرفُ المتحدِّثُ إنْ كان قد نقلَ آراءَه كما أرادَ، ولا يفقه السامعُ ما قيل. ويؤكد الوالدُ أهميّة مناهجِ التعليم وضَرورة وضعها بشكلٍ سليم ليستقيمَ الفكرُ لدى النشء منذ البداية. ويُظهر اهتماماً بالغاً في إنعاشِ كبرياءِ الشعب بتراثه وحثِه على عدم استيرادِ قيَمِه وأفكاره من الخارج كما استورد نمطَ لباسه وكثيراً من أساليب حياته. وهذا في رأي المؤلِّف ما يحُطّ من هِمم الشعوبِ فتركنُ إلى كل ما تُلقَّن به دون اعتراضٍ، وتنسى أنَّ لها الحقَ في رفض ما يُسيء لقوميتِها ومعتقداتِها.

هذا عرضٌ مقتضبٌ للكتاب أرجو أن أكون قد أعطيتَه شيئاً من حقّه، ولكم في آخرِ الأمر الحكمُ العادل عليه.

كتاب «قضايا في الفكر والتفكير عند العرب» وذكريات مع مؤلِّفه

د. سمير مطاوع*

أُدركُ أنَّ الدقائق القليلة التي يفترض أن تستغرقها هذه الكلمة لن تمكنني من إيفاء حسن الكرمي حقّه عليّ كصاحب الفضل في كثيرٍ مما حققته في حياتي؛ عبر علاقة من المحبّة والتقدير بدأت عام ١٩٦٥، ولم تنته إلاَّ حين فارق الدنيا تاركاً لنا ذكرى وتراثاً من الشعر والأدب والفكر والفلسفة سيخلِّد هذا العلامّة لأجيال وأجيال تأتي إلى الدنيا بعدنا.

وعليه، فإن اختلاط الشخصي بالعام فيما سأقول حتميّ ولا مناص منه، فاعذروني.

حين وصلتني نسخة كتاب «**قضايا في الفكر والتفكير عند العرب**»، من إصدار منتدى الفكر العربي مشكوراً، كان ذلك بمثابة تذكرة إلى عالمٍ سحري مررت به وعشتُ فيه ردحاً من الزمن في لندن وعمّان.

توقَّفتُ في مطلع الكتاب عند كلماته في مطلع الفصل الثالث بعنوان «**البلبلة في اللغة والفكر**»، ذلك أنها أعادتني فوراً إلى لقائنا الأوّل عام ١٩٦٥. كنتُ قد

---

* إعلامي وباحث ومؤرخ؛ ووزير إعلام سابق/الأردنّ.

تقدَّمتُ بطلبٍ للعمل في القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية، فأرسلوا إلى إذاعة هولندا العالمية التي كنتُ أعمل بها مجموعة فحوصات في اللغة والصوت والإلقاء... وما إلى ذلك. وحين عادت النتيجة حصلتُ على علامة كاملة، فشكَّ المديرون الإنجليز بأن الإذاعة الهولندية «غشَّشتني»، فدعوني – الإنجليز – إلى لندن لتجربتي في فحوصات أُخرى، ومنها دعوني إلى مقابلة المديرين الإنجليز ومعهم المرحوم (أبو زياد)، الذي كنت سمعت عنه الكثير، وسمعت برنامجه «**قول على قول**» عشرات المرات! ومَنْ لم يسمع هذا البرنامج في أنحاء العالم العربي كافة عشرات المرات؟ فأصابني شيء من الهيبة والخوف. لذلك أخذت أتحدَّث الإنجليزية باللهجة الإنجليزية، التي تعلَّمتها في صغري حين كان من بين هواياتي تقليد اللهجات من خلال استماعي إلى القسم العالمي بهيئة الإذاعة البريطانية باللغة الإنجليزية.

لم يعلِّق (أبو زياد) كثيراً، لكنه ظلَّ يبتسم طيلة المقابلة. وبعدها دعاني إلى تناول الغداء وحديث في العموميات؛ إلى أن صعدنا إلى مكتبه فانطلق بكلّ الكياسة وعمق التجربة يشير إلى محاولاتي من خلال اللهجة في الحديث بالإنجليزية؛ مستعملاً الكلمات نفسها التي أوردها في كتابه موضوع الحديث (صفحة ٢٢): «الأصل في اللغة هي استعمال المفردات التي يفهمها الآخرون كرموز للمعاني والمدلولات. وإذا كانت اللغة أداة التفاهم فهي أيضاً أداة الفكر. فإن كانت الأداة صحيحة كان الفكر صحيحاً... ومعنى صحّة اللغة أن تكون واضحة المعاني... ويكون التركيب في عبارات مفهومة... وتكون العبارات بموجب قواعد معروفة يفهمها القوم...». لذلك، أضاف (أبو زياد)، رحمه الله، أن «لا داعي لاختيار كلمات أو عبارات قليلة الاستعمال في الحياة العادية لتبهرهم أو نسعى لخلق الانطباع بأنك متمكِّن من اللغة، لأن مثل هذه الكلمات قد يكون لها في المجتمع الإنجليزي

الذي لا تعرفه مدلولات مختلفة! ولذلك أيضاً حذار من اختيار الكلمات الصعبة في حديثك للدلالة على قدراتك اللغوية حين لا تكون على يقين من مدلولاتها في المجتمع الذي لا تعرفه!

كان ذلك هو الدرس الأوّل الذي علَّمني إياه حسن الكرمي، وحرصت على الالتزام به في كل مجمَع أكون أحد المتحدثين فيه.

ومع الدروس الكثيرة؛ بل الكثيرة جداً، التي أجاد عليَّ بها حسن الكرمي، أحد أهم الأساتذة في حياتي، كانت نصائحه عند استشارته في مشروعي لوضع كتاب يتناول دور الأردن في حرب عام ١٩٦٧ منارة على الدرب أضاءت طريقي. وحين قرأتُ كلماته في الفصل الخامس «**اللغة والفكر**» (صفحة ٣٦): «في رأيي المبنى على الملاحظة أن العرب عموماً قلما يقرؤون، وإذا قرؤوا فغالباً ما لا يستوعبون ما قرؤوه. والسبب هو قلَّة اعتياد الناس على القراءة منذ الصغر. وعدم استيعاب القارئ لما يقرؤه سببه عائد إلى أن معظم الكتب المتداولة ضحلة المضمون لا ترمي إلى توضيح المعنى بقدر ما يستهويها وضع الكلام المنمَّق. ويتصل بهذا الأمر شيء آخر هو أن العرب لم يهتموا الاهتمام الكافي بتوثيق الوقائع بالتدوين والتسجيل بالتواريخ والتفاصيل بحيث يمكن للباحث الرجوع إليها في دراسته»... حين قرأت هذه الكلمات التي كانت كلماته نفسها يوم سألني إن كنتُ اعتزم الكتابة باللغة العربية أم باللغة الإنجليزية (؟) وعبَّر عن ارتياحه حين أخبرته أنها الثانية؛ أي اللغة الإنجليزية، بأن هنأني وتمنّى لي التوفيق على الرغم من صعوبة المهمّة، خصوصاً مسألة التوثيق. وفي هذه الوقفة لا يسعني إلاَّ أن أذكر بالامتنان والتقدير والترحُّم على الغالي جلالة **الملك الحسين** – طيَّب الله ثراه – الذي مكَّنني من الاطلاع على وثائق القيادة العامة للقوات المسلحة الأردنية والديوان الملكي

الهاشمي العامر كافة المتعلِّقة بفترة تلك الحرب المشئومة وظروفها وتطوّراتها. وأكمل (أبو زياد) بأن قدَّمني وأوصى بي أمين مكتبة الوثائق في هيئة الإذاعة البريطانية التي تضم كنوزاً من عشرات آلاف الوثائق، ومنها بالطبع التقارير والدراسات والتعليقات الخاصة بحرب ١٩٦٧.

وانطلاقاً من التضليل الإعلامي الذي مارسه الإعلام العربي طيلة أيام الحرب الستة، وما قبلها وما بعدها، نصحني بقراءة كتاب عنوانه «**الفكر القول**». ويشير المرحوم (أبو زياد) في كتابه «**قضايا في الفكر والتفكير...**»، في الفصل الثامن وعنوانه «**التأثير على التفكير عند الناس**» (صفحة ٦٢) إلى كتاب «**الفكر القول**»، الذي يبحث في الأساليب التي تُتَّبَع في تحريف الحقائق، ووضع الباطل مكان الحق عن غش مُتعمَّد وتضليل مقصود؛ متذكراً هنا ما كانت تبثّه بعض الإذاعات العربية، وخصوصاً إذاعة «صوت العرب» من القاهرة. ويشير أستاذنا الكبير إلى ذلك في الصفحة (٦٢) أيضاً، التي توقفت عندها طويلاً، كأنه كان يردِّد الكلمات على مسامعي في تلك اللحظة، رغم فارق السنين: انتبه – فيما تسعى إليه من التوثيق – إلى البلاغات الحربية، التي كانت تُعظّم خسائر العدو وتقلل خسائر الأطراف العربية. وينبّه أيضاً إلى ضرورة تمحيص تقارير المراسلين الحربيين، التي كانت في كثيرٍ من الأحيان تذكر شيئاً وتحذف أشياء... كانت في أغلبها مليئة بالمغالطات والاتهامات.

كنت أعود إلى (أبي زياد)، سواء في مكتبه في الإذاعة أو في بيته في شمالي لندن، الذي كان بمثابة مكتبة ضخمة أكثر مما كانت بيتاً بالمعنى المنزلي الذي تعارفنا عليه، ولا أظن أنَّ فرداً في أي مكان في العالم جَمَعَ ذلك العدد من آلاف الكتب والمؤلَّفات. كنت أعودُ إليه للسؤال أو طلب النصيحة. ولقد كانت

أهم نصائحه تلك التي أنارت لي الطريق قبل الشروع في البحث والكتابة، وحين اعتزمت ترجمة كتابي إلى العربية. ولقد عثرت على نص تقريبي لها في الفصل الرابع «**مشكلات في اللغة العربية**» (صفحة ٢٩): عليك أن تتذكّر أن «المصطلحات الأجنبية متنوّعة، سياسية واقتصادية وطبية وعلمية وفلسفية، وما إلى ذلك... يتبعها سيلٌ دافق من المصطلحات المُحدَّثة» وأضاف: «هذا الخضم الزاخر من المصطلحات لا يقوى أي قطر عربي ولا الأقطار العربية مُجتمعةً على ترجمته إلى اللغة العربية بالسرعة الممكنة. وفي القيام بهذا العمل دون تروي خطر في إحداث البلبلة في المصطلحات بين البلاد العربية كما هو حادث الآن».

وسألني في ذلك اللقاء ما إذا كنت سأقوم بالترجمة بنفسي أم سأعهد إلى مُترجِم للقيام بهذه المهمة. أجبتُ بالطبع سأقوم بذلك بنفسي لأني بوصفي مؤلِّفاً فأنا أكثر الناس معرفةً وإدراكاً لما قصدت. وكانت كلمته القويّة: «أحسنت.. ولكني أنصحك بأن تعهد إلى شخص آخر متمكِّن من اللغتين بمراجعة النصّ المُترجَم لأنه - كقارىء - سيكون أكثر حيادية وموضوعية من المؤلِّف. ونصحني بصديق للطرفين كان يعمل معنا في القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية، وأُتيح له فيما بعد شرف الخدمة في معيّة سموّ الأمير **الحسن بن طلال**، وهو الأستاذ **توما الهزو**.

أما لقاءاتنا الأخيرة التي كنتُ أحرص عليها أشدّ الحرص فكانت في شقته في عمّان حين كان منكبّاً، رغم السنّ والإجهاد على وضع قاموسه الأخير، الذي سيظلّ على مدى السنين معيناً لا ينضب يعود إليه المترجمون كلما أعوزتهم الحاجة إلى فهم الكلمة ومعانيها ومدلولاتها.

ولا أملك في الخِتام إلا أن أذكِّر بحديث الرسول الهاشمي الأمين محمّد ﷺ: «ينتهي عمل ابن آدم إلاَّ من ثلاث: صدقة جارية، وعلم يُنْتَفع به، وولد صالح يدعو له».

أما العلم فقد ترك فقيدنا الأستاذ حسن الكرمي أفضله وأغزره، وأما الولد الصالح فأعداد الذين سيدعون له بالرحمة أكثر من أن يشملهم إحصاء، أو يُشار إليهم بالعدد. رحم اللّه فقيدنا الكبير الأستاذ حسن الكرمي، وأسكنه فسيح جناته.

ملحق

مطبوعات المنتدى

أولاً: سلسلة الحوارات العربية العالمية

١ - *Europe and the Arab World* (بالإنجليزية والفرنسية)
تقرير الحوار العربي الأوروبي الأول، ١٩٨٢

٢ - *America and the Middle East*
تقرير الحوار العربي الأمريكي الكندي، ١٩٨٣

٣ - *Palestine, Fundamentalism and Liberalism*
تقرير الحوار مع الأحرار الدوليّين، ١٩٨٤

٤ - *Europe and the Security of the Middle East*
تقرير الحوار العربي الأوروبي الثاني، ١٩٨٥

٥ - **العرب والصين**
مداولات الحوار العربي الصيني حول الحاضر والمستقبل، ١٩٨٦

٦ - **المقاومة المدنية في النضال السياسي**
مداولات ندوة اللاعنف في النضال السياسي، ١٩٨٦

٧ - *Arab, Non-Violent Political Struggle in the Middle East*
المحرّرون: رالف كرو، وسعد الدين إبراهيم، وآخرون

٨ - **ديجول والعرب**
مداولات ندوة شارل ديغول في ذكرى ميلاده المئة، ١٩٨٩
تحرير وتقديم: د. سعد الدين إبراهيم

٩ - **العرب واليابان**
مداولات الحوار العربي الياباني الأول، ١٩٨٩

١٠ - *Arab-German Relations in the Nineties*
مداولات الحوار العربي الألماني، ١٩٩١

١١ - *Arab-Japanese Dialogue II*
مداولات الحوار العربي الياباني الثاني، ١٩٩١

١٢ - *Arab-Japanese Dialogue III*
مداولات الحوار العربي الياباني الثالث، ١٩٩٢

١٣ - *Arab Immigrants and Muslims in Europe*
الحوار العربي الأوروبي الخامس، ١٩٩٣

١٤ - *Ethics in Economy: Euro-Arab Perspectives*
أخلاقيات الاقتصاد: بحوث ومناقشات ندوة فكرية، ١٩٩٣

١٥- **التنمية، السياسة الخارجية، الديمقراطية:**
ندوة عربية نمساوية، ١٩٩٥

١٦- *(Euro-Arab Seminar 1995, Amman (1995*

١٧- *(Euro-Arab Seminar 1996, Vienna (1996*

١٨- **العرب والأتراك: الاقتصاد والأمن الإقليمي**
بحوث ومناقشات ندوة، ١٩٩٦

١٩- *The Arab World and Turkey*

٢٠- **دور المنظمات غير الحكومية في تطوير المجتمع الأهلي: أوروبا والأقطار العربية** بحوث ومناقشات ندوة، ١٩٩٧

٢١- *The Role of NGOs in the Development of Civil Society: Europe and the Arab Countries*

٢٢- **الكلفة البشرية للنزاعات**
بحوث ومناقشات ندوة، ١٩٩٨

٢٣- *Human Cost of Conflict*

٢٤- *WTO Trading System: Review and Reform*

٢٥- **التعاون العربي الإيراني: المحاور السياسية والاقتصادية والثقافية**
بحوث ومناقشات ندوة، ١٩٩٩

٢٦- **آفاق العلاقات العربية الصينية في القرن الحادي والعشرين**
بحوث ومناقشات ندوة، ٢٠٠٢

٢٧- **العرب والصين: آفاق جديدة في الاقتصاد و السياسة**
بحوث ومناقشات ندوة، ٢٠٠٦

ثانياً: سلسلة الحوارات العربيّة

١- **تجسير الفجوة بين صانعي القرارات والمفكرين العرب**
تأليف: د. سعد الدين إبراهيم، ١٩٨٤

٢- **تجربة مجلس التعاون الخليجي: خطوة أو عقبة في طريق الوحدة العربية**
تأليف: أ. عبد الله بشارة، ١٩٨٥

٣- **التكنولوجيا المتقدمة وفرصة العرب الدخول في مضمارها**
مداولات ندوة، ١٩٨٦

٤- **العائدون من حقول النفط**
مداولات ندوة حول التعاون العربي في مجال العمالة، ١٩٨٦

٥- **الأمن الغذائي العربي**
مداولات ندوة، ١٩٨٦

٦- **القمر الصناعي العربي بين مشكلات الأرض وإمكانات الفضاء**
مداولات ندوة، ١٩٨٦

٧- **إمكانات واستخدامات الشبكة العربية للاتصالات الفضائية**
تأليف: د. محمد المقوسي، ١٩٨٦

٨- **تحديات الأمن القومي العربي في العقد القادم**
تأليف: د. علي الدين هلال، ١٩٨٦

٩- **التعلُّم عن بُعد**
مداولات ندوة «**التعلُّم عن بُعد والجامعة المفتوحة**»، ١٩٨٦

١٠- **الأرصدة والمديونية العربية للخارج**
مداولات ندوة «**السياسات البديلة لحماية الأرصدة ومواجهة المديونية**»، ١٩٨٧

١١- **العنف والسياسة في الوطن العربي**
مداولات ندوة، ١٩٨٧

١٢- **الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي**
مداولات ندوة، ١٩٨٧ (طبعة ثانية ١٩٩٧)
تحرير وتقديم: د. سعد الدين إبراهيم

١٣- **الإنتلجنسيا العربية**
مداولات ندوة، ١٩٨٨

١٤- **الأزمة اللبنانية: الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية**
مداولات ندوة، ١٩٨٨

١٥- **التعددية السياسية والديمقراطية في الوطن العربي**
مداولات ندوة، ١٩٨٩

١٦- **النظام الإنساني العالمي وحقوق الإنسان في الوطن العربي**
مداولات ندوة، ١٩٨٩

١٧- **آفاق التعاون العربي في التسعينات**
مداولات ندوة، ١٩٩١

١٨- **نحو تأسيس نظام عربي جديد**
مداولات ندوة، ١٩٩٢

١٩- **التنمية البشرية في الوطن العربي**
بحوث ومناقشات ندوة، ١٩٩٣

٢٠- **اتفاقية غزة - أريحا: الأبعاد الاقتصادية المحتملة**
مداولات ورشة عمل، ١٩٩٣

٢١- **الحرية الأكاديمية في الجامعات العربية**

مداولات ندوة فكرية، ١٩٩٤

٢٢- *Academic Freedom in Arab Universities*

٢٣- **الجامعات الخاصة في الدول العربية**

مداولات ندوة فكرية، ١٩٩٥

٢٤- **الغزو العراقي للكويت: الخبرات المستخلصة والخروج من الأزمة**

مداولات ندوة، ١٩٩٦

٢٥- **مواقف الفكر العربي من التغيرات الدولية: الديمقراطية والعولمة**

تأليف: د. علي أومليل، ١٩٩٨

٢٦- **التصوّر العربي للسلام**

مداولات ندوة، ١٩٩٧

٢٧- **تطوير البنية المالية التحتية في الوطن العربي**

تحرير: د. عبد الرحمن صبري، ١٩٩٩

٢٨- **النظام العربي. . . إلى أين؟**

مداولات ندوة، ٢٠٠٠

٢٩- **أسواق النفط والمال. . . إلى أين؟**

مداولات ندوة، ١٩٩٩

٣٠- **حل النزاعات العربية بالطرق السلمية**

مداولات ندوة، ١٩٩٩

٣١- **تطوير سياسات الطاقة الداخلية وعلاقتها بقطاع المياه في الوطن العربي**

مداولات ندوة، ٢٠٠٠

٣٢- *Domestic Energy Politcies in the Arab World*

٣٣- **آفاق التعاون العربي بين الإقليمية والعالمية**

مداولات ندوة، ٢٠٠١

٣٤- **الثقافة العربية الإسلامية: أمن وهوية**

مداولات ندوة، ٢٠٠٢

٣٥- **الخطاب العربي: المضمون والأسلوب**

مداولات ندوة، ٢٠٠٣

٣٦- **أسس تقدم الوطن العربي في القرن الحادي والعشرين**

مداولات ندوة، ٢٠٠٣

٣٧- **الشباب العربي وتحديات المستقبل**

مداولات مؤتمر، ٢٠٠٤

٣٨- **الوسطيّة بين التّنظير والتّطبيق**

مداولات ندوة، ٢٠٠٥

٣٩- **الفكر العربيّ في عالم سريع التّغير**

مداولات ندوة، ٢٠٠٧

٤٠- **الشباب العربي في المهجر**

مداولات مؤتمر، ٢٠٠٧

٤١- **دولة السّلطة وسُلطة الدولة**

مداولات ندوة، ٢٠٠٧

٤٢- **المرأة العربيّة: آفاق المستقبل**

مداولات مؤتمر، ٢٠٠٨

٤٣- **المواطَنة في الوطن العربيّ**

مداولات ندوة، ٢٠٠٨

٤٤- **نحو تطوير مؤسسات العمل الشبابيّ العربيّ**

مداولات ندوة، ٢٠٠٨

٤٥- **القدس في الضمير**

مداولات ندوة، ٢٠٠٩

٤٦- **الأزمة الاقتصادية العالمية وتداعياتها في الوطن العربي**

مداولات ندوة، ٢٠٠٩

٤٧- **قضايا المياه: عربيّاً وإقليميّاً**

مداولات ندوة، ٢٠١٠

٤٨- **الشّباب وظاهرة العنف**

مداولات مؤتمر، ٢٠١٠

٤٩- **المستقبل العربيّ في ضوء الحِراك الشبابيّ**

مداولات مؤتمر ، ٢٠١٢

ثالثاً: سلسلة المترجمات العالميّة

١- **التصحّر**
تقرير اللجنة المستقلة المعنية بالقضايا الإنسانية، ١٩٨٦

٢- **المجاعة**
تقرير اللجنة المستقلة المعنية بالقضايا الإنسانية، ١٩٨٦

٣- **ثورة حفاة الأقدام**
تأليف: برتراند شنايدر/أمين عام نادي روما السابق، ١٩٨٧
ترجمة: منتدى الفكر العربي

٤- **أطفال الشوارع**
تقرير اللجنة المستقلة المعنية بالقضايا الإنسانية، ١٩٨٧
ترجمة: منتدى الفكر العربي

رابعاً: سلسلة دراسات الوطن العربي

١- **المـأزق العـربي**
تحرير: د. لطفي الخولي، ١٩٨٦

٢- **تقرير حالة الأمة العربية في عام ١٩٨٨**

٣- **تقرير حالة الأمة العربية في عام ١٩٨٩**

٤- **الدولة القطرية وإمكانيات قيام دولة الوحدة العربية**
تحرير: د. فهد الفانك، ١٩٨٩

٥- **مستقبل المجتمع والدولة في الوطن العربي**
تأليف: د. سعد الدين إبراهيم، ١٩٨٩

٦- كرّاس **اتفاقية مجلس التعاون العربي (بالإنجليزية)، ١٩٨٩**

٧- **مصر والوطن العربي**
تأليف: د. سعد الدين إبراهيم، ١٩٩٠

٨- **العقل السياسي العربي**
تأليف: د. محمد عابد الجابري

٩- **التسوية: الشروط، والمضمون، والآثار**
تأليف: د. غسان سلامة، ١٩٩٥

١٠- **التنمية العربية: من قصور الماضي إلى هاجس المستقبل**
تأليف: د. يوسف صايغ، ١٩٩٦

١١- **تحديات عولمة الاقتصاد والتكنولوجيا في الدول العربية**
تأليف: د. فتح الله ولعلو، ١٩٩٦

١٢- القطاع الخاص ومستقبل التعاون العربي المشترك
تأليف: د. الشاذلي العياري، ١٩٩٦

١٣- التعليم العالي في البلدان العربية: السياسات والآفاق
مداولات ومناقشات ندوة فكرية، ١٩٩٥

خامساً: سلسلة الدراسات والبحوث الاستراتيجيّة

١- السياسات التعليمية في وادي النيل والصومال وجيبوتي
تأليف: دة. أماني قنديل، ١٩٨٩

٢- السياسات التعليمية في المشرق العربي
تأليف: دة. سعاد خليل إسماعيل، ١٩٨٩

٣- مستقبل النظام العالمي وتجارب تطوير التعليم
تأليف: د. سعد الدين إبراهيم وآخرون، ١٩٨٩

٤- الأمية في الوطن العربي
تأليف: أ. هاشم أبو زيد، ١٩٨٩

٥- التعليم العالي في الوطن العربي
تأليف: د. صبحي القاسم، ١٩٩٠

٦- سياسات التعليم في دول المغرب العربي
تأليف: د. محمد عابد الجابري، ١٩٩٠

٧- سياسات التعليم في دول الخليج العربية
تأليف: د. محمد جواد رضا، ١٩٩٠

٨- التربية العربية منذ ١٩٥٠: إنجازاتها ومشكلاتها وتحدياتها
تأليف: د. ناثر سارة، ١٩٩٠

٩- احتياجات الوطن العربي المستقبلية من القوى البشرية
تأليف: د. أنطوان زحلان، ١٩٩٠

١٠- كيف تفكر النخبة العربية في تعليم المستقبل؟
تأليف: د. ضياء الدين زاهر، ١٩٩٠

١١- تعليم الأمة العربية في القرن الحادي والعشرين: الكارثة أو الأمل (التقرير التلخيصي لمشروع مستقبل التعليم في الوطن العربي)
تحرير وتقديم: د. سعد الدين إبراهيم، ١٩٩١

سادساً: سلسلة اللقاءات الشهريّة

١- اللقاءات الشهرية لمنتدى الفكر العربي عام ٢٠٠٣ (٢٠٠٤)

٢- اللقاءات الشهرية لمنتدى الفكر العربي عام ٢٠٠٤ (٢٠٠٥)

٣- اللقاءات الشهريّة لمنتدى الفكر العربي عام ٢٠٠٥ (٢٠٠٦)

٤- بين الأقلمة والعولمة: آراء واجتهادات وحوارات في عالم مضطرب (٢٠٠٦)

سابعاً: سلسلة دراسات المنتدى

١- العمل العربي المشترك: آمال وعقبات ونتائج
تأليف: د. محيي الدين سليمان المصري، ٢٠٠٤

٢- المجتمع المدنيّ وتحوّلات الدّيمقراطيّة في الوطن العربيّ
تأليف: د. الحبيب الجنحاني، ٢٠٠٦

٣- الحُكم الاقتصادي العلمي والصدمة الارتدادية
تأليف: أ. د. حميد الجميلي، ٢٠١٢

ثامناً: سلسلة كراسات المنتدى

١- ثلاث رسائل مفتوحة إلى الشباب العربي
الحسن بن طلال، ط١؛ شباط/ فبراير ٢٠٠٥
ط٢؛ ١٠ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٨

٢- حقائق عن النفط
كمال القيسي، كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٥

٣- قضايا شبابيّة
د. محمود قطّام السّرحان، ط١؛ آذار/ مارس، ٢٠٠٦
ط٢؛ ١ تموز/يوليو ٢٠٠٨

٤- التوثيق ما بين الموروث التّاريخيّ والواقع المعاصر
د. سعد أبو ديّة، أيلول/ سبتمبر، ٢٠٠٦

٥- شَذرات شبابيّة
أ. د. هُمام غَصِيب، ١ تمّوز/ يوليو ٢٠٠٨

٦- حول المواطنة في الوطن العربيّ
الحسن بن طلال، ٢٠ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٨

٧- **القدس في الضمير**

الحسن بن طلال، ط١؛ ١٥ شباط/فبراير ٢٠٠٩

ط٢؛ ١٠ تشرين الأوّل/أكتوبر ٢٠٠٩

٨- **سُبل النهوض بالبَحث العلميّ في الوطن العربيّ**

أ. د. هُمام غَصِيب، ٣٠ نيسان/ إبريل ٢٠٠٩

تاسعاً: سلسلة كتاب المنتدى

١- **الوسطيّة: أبعادٌ في التراث والمعاصرة**

إشراف وتقديم: الأمير الحسن بن طلال، ٢٠٠٦

٢- **الجدار الأخير: نظرات في الثقافة العربية**

تأليف: أ. د. صلاح جرّار، ٢٠٠٦

٣- **مرايا في الفكر المعاصر: حوارات مع نخبة من المفكرين العرب**

يوسف عبدالله محمود، ٢٠٠٧

٤- **اللغة العربيّة والإعلام وكُتّاب النصّ**

مداولات ندوة، ٢٠٠٧

٥- **إدوارد سعيد: المثقّف الكونيّ**

مداولات ندوة، ٢٠٠٨

٦- **الثقافة وأزمة الهُويّة العربيّة**

أ. د. محمد عبد العزيز ربيع، ٢٠١٠

٧- **الحَداثة والحُرّيّة**

أ. د. الحبيب الجنحاني، ٢٠١٠

٨- **قضايا في الفكر والتفكير عند العرب**

أ. حسن سعيد الكرمي، ٢٠١٢

عاشراً: سلسلة كتاب النهضة

١- الحركة العربية (سيرة المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة ١٩٠٨-١٩٢٤)

سليمان الموسى، ٢٠١٣

٢- مذكرات حسن سعيد الكرمي (١٩٠٥-٢٠٠٧) في الحياة والثقافة العربية، ٢٠١٥

حادي عشر: إصدارات خاصة

١- في الفكر العربيّ النّهضويّ
الأمير الحسن بن طلال ولفيف من أعضاء المنتدى، ٢٠٠٦

٢- استلهام ابن خلدون والفكر الاجتهادي
أبو يعرب المرزوقي، ٢٠٠٧

٣- شبابيّات، ٢٠٠٨

٤- استراتيجيّة عمل للسنوات الخمس المقبلة (٢٠١٠-٢٠١٥)

٥- أزمة الفكر والهُويّة العربيّة وعلاقتها بالقصور التنمويّ
أ. د. جورج قرّم

٦- المؤتمرات الشبابيّة: خلاصات وتقارير (٢٠٠٤-٢٠١٠)، ٢٠١٢

٧- مقالات مختارة/ منجاة الأمة: رؤى لاستشراف المستقبل العربي، ٢٠١٢
الحسن بن طلال

٨- الفكر العربي وسيرورة النهضة، ٢٠١٣
الحسن بن طلال

٩- الميثاق الاجتماعي العربي، ٢٠١٣

١٠- اللقاءات الحوارية حول الأوراق النقاشيّة الملكيّة، ٢٠١٥
تقديم: الحسن بن طلال

ثاني عشر: الكشافات/نشرة ومجلة *المنتدى*

١- الكشاف التراكمي للأعداد ١- ١٧١ (١٩٨٥-١٩٩٩) لنشرة *المنتدى*
إعداد: أمل محمد زاش (طبعة محدودة)

٢- *Al Muntada: Cumulative Index (Issues 1-30) Compiled by Amal M. Zash*

٣- الكشاف السنوي للأعداد (١٧٢-١٨٣) لعام ٢٠٠٠
إعداد: أمل محمد زاش (طبعة محدودة)

٤- *AL Muntada: Annual Index (31-34)*
إعداد: أمل محمد زاش (طبعة محدودة)

٥- الكشاف السنوي للأعداد (١٨٤-١٩٥) لعام ٢٠٠١

إعداد: أمل محمد زاش

٦- *Al Muntada: Annual Index (35 - 48) 2001*

إعداد: أمل محمد زاش

٧- الكشاف السنوي للأعداد (١٩٦-٢٠٧) لعام ٢٠٠٢

إعداد: أمل محمد زاش

٨- *Al Muntada: Annual Index (39-42) 2002*

إعداد: أمل محمد زاش

٩- الكشاف السنوي لمجلة المنتدى للأعداد (٢٠٧-٣١٢) لعام ٢٠٠٣

إعداد: أمل محمد زاش

١٠- الكشاف السنوي لمجلة المنتدى للأعداد (٢١٤-٢١٩) لعام ٢٠٠٤

إعداد: أمل محمد زاش

١١- الكشاف السنوي لمجلة المنتدى للأعداد (٢٢٠-٢٢٥) لعام ٢٠٠٥

إعداد: أمل محمد زاش

١٢- الكشاف السنوي لمجلة المنتدى للأعداد (٢٢٦-٢٣١) لعام ٢٠٠٦

إعداد: أمل محمد زاش